الفَجَمْ

الفَجَمْ

رواية

محمد أبو سيف

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

رسم الغلاف: محمد أبو سيف

تصميم الغلاف: محمد عاطف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٨/٢٣٣٠١

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 522 – 3

الفَجَمْ

رواية

محمد أبو سيف

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو سيف، محمد

الفجم: رواية/ محمد أبو سيف.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٥٢٢ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٣٣٠١ / ٢٠١٨

إهــداء

إلى الأستاذة والمعلمة الدكتورة سعاد فطيم

التي علمتني حرفا فصرت لها عبدا

محمد أبو سيف
نوفمبر 2017

1

القرية تنام في سكون الليل.. الأبواب مغلقة على ساكنيها من البسطاء الكادحين نهارا، وفي الريف يتجلى النهار واضحا بشمسه وحره، كما يتجلى الليل بسواده وسكونه.. وصوت أشبه بالفحيح يعم الجو، أنت لا تسمعه جليا كصوت الأذان أو أجراس الكنيسة، أو زغاريد الفرح وصوات المآتم، لكنه يتخلل جسمك ويستقر في أذنك فيهزك رعبا.. العجائز من أهل القرية يعرفونه ويخافونه، والشباب سمعوا عنه ويرهبونه، أما الأطفال فيقومون من أسرتهم إلى أحضان أمهاتهم خوفا وفرقا من ذلك الصوت غير المسموع.. إنه الفجم وانتابني سؤال بديهي: أحقا هو موجود؟

كان سؤالي عن صحة وجود الفجم بداية لسلسلة من الأسئلة شغلت رأسي وأنا عائد إلى البيت، سائرا عبر الأزقة المتربة الملتوية بعشوائية، إذ إن قريتنا لم يكن مخططًا لها أن تتسع كل هذا الاتساع لتلتهم الأرض الزراعية،

وتبور أراض وتقلع محاصيل لإدخالها في كوردون المدينة، فبنيت المنازل بلا تخطيط، ولا مرافق أو بنية تحتية، فبدت شـوارعها وحاراتها وأزقتها أشبه بشعر منكوش مهوش ليس له أول من آخر، فتنحرف فجأة، أو تضيق على غفلة، أو تعلو وتهبط بلا منطق، وتشعر أن أقدام مجموعة من العميان هي التي دكت سبلها بلا قصد، وبفعل السير يوميا بلا رؤية ولا هدف فصارت على ما هي عليه، وبفعل الزمن والتعود والتكرار والنمطية وعدم التفكير لم يلتفت أحد إلى حالة الشوارع المذرية فاعتادها الناس وألفوها.. أم هي التي ألفتهم؟ ولطالما حذر جدي الكبير من مغبة تلك الجهالة، فالفجم ينجذب إلى الخرابات مثله مثل العفاريت والجان وأبو رجل مسلوخة، إلا أن الفجم ليس خرافة مثلهم، بل هو موجود لا شك، ووفقا لرواية جدي الكبير، فقد حضر أول ظهور للفجم، ورأى بعيني رأسـه ما تشيب له الولدان، لكنه لم يفصح عن تفاصيل لأسباب شيب الولدان هذا، إما إشفاقا علينا، وإما هربا من ذكرى مؤلمة لا يريد اسـترجاعها، لكني قررت أن أسـأل جدي الكبـير عنه، ما الفجم؟ وماذا رأى جـدي من أهواله وكيف يعيش وأين يتواجد؟ ولماذا قريتنا بالذات؟ وما شكله؟ وماذا يأكل؟ وعشرات الأسئلة التي تدفقت بلا نظام إلى رأسي، فشغلت تفكيري وعمت بصيرتي، فلم أرَ البت سمر وهي تعترض طريقي بابتسامتها الداعية، ومررت بها كأنها غير موجودة، لكني التفت على صوتها تعاتبني: "كده برضك يا جاد! ما فيش حتى سلامو عليكو!!" قلت وأنا أذوب صبابة وقلبي يقفز بين ضلوعي: "يقطعني ويقطع الفجم، هو اللي خلاني ما شوفكيش".

الحياة في قريتنا كوم والبت سمر كوم تاني، فهي رفيقة طفولتي السعيدة وصباي المتفتحة وفتوتي الفائرة ومراهقتي المرهقة، وحبيبتي الآن، لا يمر يوم إلا وأرى سمر صباحا وظهرا وعصرا ومغربًا، وكان الليل من ضمن الأوقات السعيدة التي نكمل بها يومنا لكن منذ أن كبرت وحاضت منعها أبوها عمي فراج من الخروج بعد المغرب، ثم بعد العصر ثم معظم النهار إلا للضرورة، كما منعها من المدرسة، ورغم علمه بارتباطنا منذ الطفولة وعلم القرية كلها أن "جاد لسمر، وسمر لجاد" إلا أن عقل عمي فراج ضلم وعاداته قديمة، فهو يصر على فلاحة الأرض القليلة التي يملكها بيده، لا يستعين بالمحراث الميكانيكي ولا أدوات الفلاحة المتطورة، لا يزال يؤمن بالفأس والمنجلة والساقية والشادوف، وعمي فراج يعد صديق جدي الكبير المفضل، رغم فارق السن الكبير بينهما، فجدي الكبير تخطى المائة والخمسين عاما بسنوات توقف هو ونحن عن عدها، لكن الغريب أننا نسينا كم هرم هذا الرجل، فهو لم يشتكِ يومًا من ألم أو مرض أو حتى تعب، ونظامه لم يتغير منذ سنوات أطول من عمري وعمر جدي الوسيط وجدي الصغير وأبي، فنحن خمسة أجيال نعيش في بيت ملك في قرية الجبايتة إحدى آلاف القرى في أقصى جنوب مصر.. أفقت من دوامة الأفكار على صوت البت سمر تقول في دلال: "مش عايزة أعوق لحسن بيقولوا الفجم ظهر في الناحية".

كهربتني كلمة البت سمر، وتذكرت جدي والغروب الذي أصبح وشيكا، فقلت في حزم: "وانتي إيه اللي مخرجك الساعة دي؟ إمشي على داركم

واياكي تطلي حتى من الشباك". على ما يبدو أسعدتها رجولتي فابتسمت في خجل فبدت غمازتاها، وأرجحت كتفيها وهي تعلم أني أحبها أكثر حين تفعل ذلك وقالت معاتبة: "ماوحشـتكش؟"، قلت والشوق مفضوح في صوتي وعينيَّ: "قوي.. بس خطر وقفتنا هنا"، قالت: "خلاص نتقابل بعد العشـا"، رفضت في شدة: "عشا لما يعشش نافوخك، يا بت انتي مجنونة؟ الفجم في الناحية"، ضحكت في استهزاء: "انت روخر بتصدق زيهم! إيش حال ما كنت متعلم"، لطمتني الجملة ووقعت في مطب لم أره، كيف وأنا المتعلم الطالب في السـنة النهائية بكلية طب أسـيوط، أنساق وراء خرافة الفجم تلك! كيف وأنا رجل العلم لا أؤمن إلا بالأدلة العلمية والبراهين المعملية أنزلق وراء كلام جدي وباقي أهل القرية الجهلاء؟ كعادتها أفاقتني البت سمر من غيبوبتي سائلة: "ها!"، قلت بلا وعي: "أشوفك ورا سور المدرسـة"، افترقنا على موعد، وأسرعت إلى جدي وقد عقدت العزم على مفاتحته في خرافة الفجم هذه، فانتشار الخرافات في قريتنا أسهل من انتشار الكوليرا والبلهارسيا، بل أسهل من انتشار الهواء نفسه، فوسائل الاتصال في قريتنا سـبقت العالم بسـنوات طوال قبل النت والموبايل، فالقرية كلها تعرف ماذا يطبخ كل بيت، وتعرف من مريض وتعرف من سـيتزوج من خلال الزغاريد، وزعرودة الخطبة تختلف عن زغرودة الزواج أو الطهور أو النجـاح في الامتحان، فزغرودة الخطبة قليلـة العدد تفلت رغم إرادة صاحبتهـا يتبعها زغرة مـن زوجها تعني: "اصبري لمـا ربنا يتمم بخير"، فـترد على الكلمة التي لم تقال: "من فرحتـي"، وزغرودة الفرح والدخلة

تلالي في سماء القرية طويلة متنغمة متلوية ممطوطة ناعمة فاجرة مفضوحة، كأنها ألفاظ تخدش الحياء، أما زغرودة النجاح فهي أشبه بالصفير المتقطع، وعادة تكون قصيرة قليلة التكرار خوفًا من الحسد.

2

لامست الشمس خط الأفق وقد تلونت بحمرة الرحيل، إيلاج النهار في الليل سيبدأ، كم أحب تلك اللحظات التي أنتظرها على سطح منزلنا كل يوم مرتين، في الفجر والغروب، ويصر جدي الكبير أن يشهدهما كل أفراد الأسرة، حتى صارت طقسا يوميا لعائلتنا، عائلة الجبايتة التي سُميت القرية باسمها، فجدي الأكبر أو الجبتي الكبير هو جد جدي الكبير، وهو مؤسس عائلة الجبايتة، ومنه تناسلت عائلتنا التي كبرت واتسعت حتى أصبحنا لا نعرف بعضنا البعض، وأُفيق على صوت دخول جدي الأصغر الذي دائما يحضر متأخرا للاجتماع اليومي لنشهد عملية إيلاج النهار في الليل، كيف تتم بتدرج هادئ وإيقاع لا يتغير.. النهار ينحني بمغيب الشمس ليرتدي عباءته الغامقـة، وقلنا كلنا في نفس واحد بين مسـموع وخافت ومتمتم وصامت: "سبحان الله"، وبهذه التسبيحة ينتهي الاجتماع، وينسحب كل

إلى مهجعه، لكني لم أنسحب مع أبي، وظللت أنتظر حتى يخلو السطح لأسأل جدي الكبير عن الفجم مع انسحاب آخر ضوء من بقايا النهار التفت جدي الواقف مواجها للبقعة التي كانت شمسا منذ لحظات، وجدني أقف في انتظاره، فجلس على المقعد الخوص الذي صنعه بنفسه، اقتربت منه وجلست تحت قدميه، وهي علامة على الرغبة في الحديث، تعلمناها كلنا منذ نعومة أظافرنا، بادرني بالسؤال: "جبت العيش؟"، فهززت رأسي إيجابا: "قبل المغرب وحطيته في المشنة وغطيته بالصوفة"، فلاذ بصمته سارحا في نجوم بداية الليل، وصمت جدي إذا طال ودخل في مرحلة التأمل، فمن الحماقة أن تقطع عليه تأمله، إذ سينالك زغدة من عصاته الخشبية التي لا تفارقه أبدا، تذكرت موعدي مع البت سمر، فبعد دقائق سيقوم ليصلي المغرب، ثم جلسة التأمل حتى العشاء، ثم الصلاة والنوم، إذنْ هذا أنسب وقت لأسأله فقلت: "جدي.. هو إيه الفجم ده؟".

لم تهتز خلجة من وجه جدي حين ألقيت عليه السؤال، وظل في سرحانه اللا نهائي برهة قبل أن يقول: "انت شفته؟"، قلت: "لأ. بس.." قاطعني مسكتا إياي: "يبقى مش حتعرفه"، أوقعني جدي الكبير في حيرة من أمري، فهل هذا الرد إجابة لسؤالي أم نهي عنه، أم دعوة للبحث أم هروب من الإجابة، فقلت: "وأعرفه منين يا جدي؟"، نظر إليَّ وشبح ابتسامة ساخرة في مسحة وجهه سائلا: "عامل إيه في جامعتك يا جاد الله؟"، وجدي الكبير هو الوحيد الذي ينطق اسمي كاملا، لم أردَّ لأني سرحت، ضحك جدي مفيقا إياي: "سرحت برضك!"، فسارعت بالاعتذار: "لا مؤاخذة

يا جدي"، فقال مهونا وقد تجلت طيبته وحكمته: "مؤاخذة على إيه يابني! يا ريت إخواتك يتعلموا منك السرحان"، وقبل أن أجيب، قام مكبرا ناويا صلاة المغرب، فأدركت أن الفرصة فاتتني، وعليَّ أن أسرع لأصلي وأغتسل استعدادا لموعدي مع البت سمر.

أنهيت الصلاة ولم أعِ منها شيئا، وارتديت الجلباب المكوي بيد أمي التي أدركت خروجي، فامتعضت راجية: "ما بلاش خروج الساعة دي يا جاد"، قلت وأنا أتأكد من وجاهتي أمام مرآة الصالة: "انتي بتصدقي الكلام الفارغ ده يوماي؟"، أصدقائي في الكلية يتعجبون من تمسكي بلهجتي النوبية، حتى وأنا أنطق الإنجليزية، وبعضهم يحب كلمة يوماي التي أنادي بها أمي، فأصدقائي خليط بين ماما ومامي وأمي وأما ووالدتي والحاجة وست الكل.

آذان العشاء وأنا أخترق طرقات القرية العشوائية التي خلت من المارة، وغلقت الأبواب، كما غلقت الشبابيك رغم حرارة الصيف، لم يكن هناك غيري في الشارع، بل في القرية كلها، حتى القطط والكلاب انزوت وهجعت في الأركان المظلمة حين لم تجد أحدًا من الأطفال ليلاعبها أو يحنو عليها بلقمة في تلك الساعة المبكرة من الليل، هممت في سيري حتى أصل قبل البت سمر، فليس من المروءة أن تنتظرني هي، في العادة تكون تلك الساعة من أزحم الساعات في الشوارع الضيقة إذ تفترش النسوة الحصر العنجريب، مطلقين أطفالهن نصف عرايا يمرحون بحرية حولهن

فتتفلطح أقدامهم وتخشن جلودهم ويتوحدون مع طمي التربة التي بنيت منها البيوت، وتركت أشباح القرية ورائي وقد شارفت على سور المدرسة، ودرت حـول المبنى متجها إلى الركن المظلم في تكويعة من السـور حيث تعودنـا اللقاء، لمحت ظلًّا يتحرك من بعيد فانتبهت أهي سـمر؟ لكنها لم تظهر، فجلسـت على حجر صوان كان جزءًا من تمثال أثري قديم، لمحت ظلا جديدًا يتحرك في سرعة الوميض يكسـو السور المضيء، لا يمكن أن يكون هذا ظل سـمر، فهي ليسـت بهذه الضخامة، ودق قلبي تلك الدقة التي أعرفها حين أخاف.. ما هذا الظل!

وجدتني أتلفت حولي في توجس، وقد تملكني خوف حقيقي بعد رؤية تلك الظلال الضخمة على سور المدرسة الأبيض، الذي كتب عليه عبارات تعليمية نمطية مثل عبارة العلم نور، وبجوارها عبارة مدرستي نظيفة، لماذا يصر أهل قريتنا على تشويه كل شيء، لماذا يصرون أن يضعوا شعارًا لكل شيء؟ فهناك شعارات المدرسة، وشعارات للنوادي والفرق الرياضية، وشعارات لكل السلع الاستهلاكية والشركات والمصانع والبنوك، شعارات لتوجيهات الحكومة، وشعارات للأحزاب السياسية وأيضا شعارات للتوجهات الدينية، ولأول مرة ألتفت إلى أن كل ما يحمل شعارًا فهو فاشل، تأخرت البت سمر، يبدو أن رفع الشعار يشعرنا بأننا لخصنا الموضوع وأوجزناه في برشامة ننظر فيها حين نحتاج، فننـام ونحن مطمئنين أننا أنجزنا المهمة، فأي ناظر من الخارج سيرى شعار الأمانة موجودًا سيظن أننا أمناء، وسيرى شعار الشرف والعمل والحرية والإخاء والمساواة واحترام القانون، إلى آخر الشعارات

التي تسربل كل حياتنا وهي لم تتعدَّ أن تكون شعارات، عناوين على رؤوس صفحات بيضاء لم تكتب، ولن تكتب طالما هي شعارات، وتذكرت مقولة جدي الكبير حين قال: "إحنا بنعيش عيشــة شبه العيشة، فعندنا مدرسين لكن ماعندناش تعليم، عندنا لاعبين لكن ماعندناش رياضة، عندنا قضاة لكن ماعندناش عدل، عندنا طــب لكن ماعندناش صحة، عندنا شرطة لكن ماعندناش أمن، عندنا مفكرين لكن ماعندناش ثقافة، عندنا ساسة لكن ماعندناش سياسة"، وعاد إلي القلق وركبني الخوف، وحين حاولت الهروب إلى أفكاري، غلبني الخوف الذي وصل إلى الرعب حين رأيت ظلًّا ضخـمًا يحجب ضي القمر يتحرك في شـيطانية لوحش ذي ثلاث رؤوس تتلوى كالأفاعي على مبنى المدرســة، وصوت فحيح خشن محشرج يجمد الدم في العروق، يا ليلة سودة.. أهو الفجم!!

آثرت السلامة ولم يأخذني الشغف، ولم يدفعني الفضول إلى حماقة أندم بعدها، فانزويت في ظلام الركن، وكطفل صغير يلعب الاستغماية تكورت على نفسي وضممت أطرافي في أضيق حيز ممكن خلف بقايا التمثال الأثري، مراقبا ظلال الوحش الذي تتلوى رؤوســه الثلاث في أفعوانية وقد صار على بعد خطوات مني، وتذكرت البت سمر، أسميت سمر لأنها تسامر، أم لأنها سمراء، أحب أن أراها خمرية تميل إلى الغمقان، وأذكر عندما كنا صغار نستحم في النيل عند المعبد الصغير عرايا إلا من نقاء الطفولة وسذاجتها، كان لون جســمها أفتح من وجهها وذراعاها حتى الكتفين، كنت أسخر منها وأغيظها قائلًا: "يا ملونة"، فتثور وتبكي وتظل تدعك جسمها بالطمي

لتغمق جلدها، فأقلدها وقد نسينا خلافنا، ومع الغروب نعود إلى ديارنا متشابكي الأصابع، نحمل صنادلنا على أكتافنا، وما جنيناه في يومنا من زلط ملون، ما زلت أحتفظ به في دولابي.

أين أنتِ يا سمر؟ وتمنيت ألا تأتي، على الأقل حتى ينصرف هذا الوحش الخرافي، لكني سمعت صوت حديث! أي والله.. إنه كلام فأخذتني الشجاعة بعد أن راودتني الطمأنينة لسماع صوت آدمي، لكن ماذا يفعل هؤلاء الحمقى في تلك البقعة المقطوعة، والوحش يرابط على بعد خطوات منهم! ألا يرونه أو يشعرون بوجوده! فدفعني فضولي أن أشب بعنقي ناظرا تجاه الصوت، فرأيت رجلين يقودان ثلاثة جمال، وقيادة الجمال تتطلب أن يكون واحدٌ أمامهم، والآخر خلفهم، لذا فهما يتحاوران بصوت مرتفع، وكانا يحملان كلوبين مضيئين في أيديهم، فألقت الكلوبات ضوءها على الجمال، فسقط ظلها على حائط المدرسة وهي تسير، فتعلو رؤوسها وتهبط وتتمايل أعناقها وتستقيم، فترسم تلك الظلال المرعبة على الحائط: "أبوكم على أبو سمر على أبو الحب اللي قطعلي الخلف بسبب تلات جمال" هكذا أسررت لنفسي، وقمت نافضا خوفي، حامدا الله على السلامة، وعلى أن البت سمر لم تأتِ وتشهد الحالة المذرية التي كنت فيها، وقررت العودة إلى منزلنا: "حاجة تكسف".

3

ما إن دخلت غرفتي حتى فتحت الدولاب، وأخرجت الصندوق الخشبي الذي يحوي الزلط الملون، والذي صنعه لي جدي الصغير من خشب الورد، وتذكرت خوفي وأنا لابد خلف التمثال الأثري، فابتسمت، ثم قطبت جبيني متذكرا أن ظلال الجمال التي أخافتني لا تعني أني يأست من معرفة حكاية الفجم تلك، وهل هي خرافة أم حقيقة ويأست من جدي الذي سيتلاعب بي كعادته ولا يعطيني إجابة واضحة، فقررت أن أفتح تحقيقا موسعا بين الناس لعلي أصل إلى إجابة شافية.

بغباء الجهال وحماقة المغرور بدأت تحقيقاتي مع عجائز القرية وشيوخها، وكنت أظن أن الأمر سيكون سهلا، لن يتعدى جلسة شاي كحل أو قهوة سوداء مع بعض كبار السن، يقصون عليَّ قصة الفجم وتنتهي المسألة، وأنا قادر بما إني متعلم أن أرتب وأفند وأنقي وأصنف وأبوب الحكايات،

ثم أعيد صياغتها لنفسي بالأسـلوب العلمي اللائق بعقلي المستنير فأصل للحقيقة، لكن التجربة على أرض الواقع كانت مريرة، وعكس ما توقعت فاسـتخراج المعلومة من فم أهل قريتنا أصعب من استخراج السمنة من بطن النملة على رأي خالتي سمسـمة جدة سـمر، وخالتي سمسـمة من عجائـز القرية المعمرين، وما أكثرهم في قريتنا، فقريتنا دخلت موسـوعة جينيـس؛ لأن بها أكبر عدد معمرين في العـالم أكبرهم جدي الكبير الذي تخطى القرن ونصفًا، يليه عمي دهب الذي سيحتفل بميلاده المائة والثلاثين بعد أيام، ثم خالتي سمسـمة التي أتمت المائة والعشرين عاما من شهور، وحين أقول خالتي وعمي فأنا لا أقصد تلك القرابة المعروفة، ففي قريتنا كل الكبار هم أعمام وأخوال الصغار، وخالتي سمسمةكارثة من كوارث الزمـن حطت على رؤوس الرجال، فما منهم أحد إلا وذاق مرارة جدالها ومحاوراتها ومنطقها القوي وحجتها الدامغة وفصاحة لسانها وقدرتها على خوض الصراع مع أعتى الرجال حتى جدي نفسه! فيحكى أنها قالت لجدي لا! ويحكـى أنها في مرة أخرى قالت له: "انت غلطان"، ويُحكى أيضا أنها تجـرأت عليه في نوبة جنون وقالت: "إنت باينك كبرت وخرفت يا آدم"، وهي لا تترك محاورها إلا وقد اقتنع أو تعب من المناقشة، فقررت أن أبدأ بها في تحقيقاتي لمعرفة سر الفجم.

صليـت الفجر خلف جدي الكبير، ونحن حـين نصلي نقف بترتيب الأعـمار من باب الاحـترام، ويأتي دوري في الصف العـاشر بعد أعمامي السبعة وأخوالي التسعة وأولادهم، ثم أنا، وخلفي مباشرة يبدأ جيل الأحفاد

حتى سن السابعة، أما من هم دون السابعة فينتشرون بيننا وحولنا، لكن مكانهم المفضل فوق ظهر جدي، والشاطر من يظل متعلقا به أطول فترة ممكنة، ولعبة "جدي بيصلي" لعبة قديمة من موروثات العائلة، وتبدأ مع إقامة الصلاة، فيتحلق الأطفال بين الثالثة والخامسة في دائرة حول جدي الإمام، وما إن يركع حتى ينطلق القادرون منهم، وهم طوال القامة إلى القفز على ظهره متسلِّقيه ليصلوا إلى أكتافه بسرعة قبل أن يستقيم ظهره ويقول "سمع الله لمن حمد" فإن لم تصل إلى الأكتاف وتتشبث بها، سقطت على الأرض "وبقيت طوبة" ثم تسنح الفرصة الذهبية لصغار السن وقصار القامة حين يسجد، ففيها نسمعه يقول: "سبحان ربي الأعلى" ثلاث مرات ثم يدعو كثيرا، فهي مدة أطول من الركوع، ثم إنها متكررة مرتين في الركعة الواحدة، لذلك كنا نحب صلاة الظهر والعصر والعشاء؛ لأنها أربع ركعات، أي ثماني سجدات أي ثماني فرص للقفز والتشعلق، فترى الأكف البضة تتسابق لتلحق لها مسكة أو شعبطة في أي جزء من رأس جدي، فيد تمسك بشعره الطويل البارز أطرافه من تحت العمامة الكبيرة، وأخرى تمسك بالعمامة نفسها وثالثة في أذنه ورابعة في أنفه وعينه وذقنه وشنبه، وهو كالجمل يحمل كل هؤلاء ولا يبالي، بل إنه نهر الأمهات حين حاولن منع أولادهن من مضايقة جدهم الكبير في صلاته، فأصبح هذا إذنْ يأخذ قوة القانون الواجب تنفيذه، وصارت الأمهات يسألن أبناءهن عند سماع الآذان: "مش حتلعب جدي بيصلي؟"، فيسرع الطفل إلى الاغتسال ويجري إلى السطح ليكون سباقا ليلحق له مكانًا قريبًا من جدي، "ما أجمل

حكمتك يا جدي" هكذا أسررت لنفسي وأنا أرى لعبة جدي بيصلي تتكرر قبل وجودي وحتى الآن، فقد تعلمنا كلنا الصلاة وأحببناها بهذه الطريقة العبقرية، تعلمناها كلعبة، أي متعة، ثم حين كبرت مداركنا فهمناها فصارت ملاذا لنا من عناء اليوم، تصور طفلًا في الثانية من عمره يلعب لعبة خمس مرات يوميا، ولمدة خمس سنوات حتى يصل السابعة، نكون فيها أقرب مايمكن من فم جدي الكبير، فنسمعه يتمتم أو يجهر بالفاتحة فحفظناها، وما تيسر من السور القصار، فحفظناها، وترسخ في وجداننا أن صوت الآذان هو إعلان للمتعة فاستبشرنا به وأحببناه.

ما إن خلا السطح من المصلين، حتى اقتربت من جدي بنية استئذانه لأبدأ رحلة البحث عن الفجم، وبدأت كلامي بسؤال مباشر: "مش عايز تريحني ليه ياجدي"، قال في أريحية ساخرا: "لجل مانا بكرهك ومش طايقك"، فضحكت، وقلت: "بتكلم جد إيه هو الفجم ده؟"، جذبني من أذني بأصابع أقرب إلى الكماشة طابعا قبلة على جبيني وأنا أتلوى من الألم: "أيايايايا"، وهمس في أذني: "ياحمار أنا لو جاوبتك مش حتصدق، تاني هام أنا لو جاوبت على كل سؤال يبقى ماحدش حيشتغل، ولا حيدور ولا حيبحث"، فهتفت متشجعا بكلامه: "ما هو ده الموضوع اللي جايلك فيه"، قال: "حتقابل الولية سمسمة؟"، اندهشت سائلا: "وعرفت منين!!"، قال: "مانا عارف دماغك متستفة، رتبت العواجيز حسب السن وحتبتدي بسماسيب وبعديها دهب، عموما دي ولية كدابة وبتقول إنها 120 سنة بس دي أكبر مني، ابقى سلم لي عليها".

4

"يا بنت الإيه يا خالة سمسمة! مخنصرة من عمرك 30 سنة!"، هكذا تساءلت مبتسما وأنا أشق شوارع القرية في يوم قائظ من أيام بأونة، وهو شهر يوليو في التقويم الميلادي، وليس له مقابل في التقويم الهجري، وأعتقد أن له مقابلًا في التقويم اليهودي "عجيبة الحكاية دي!" لأول مرة ألتفت أن لدينا أربعة تقويمات! ولماذا نأخذ بالميلادي على جميع المستويات الرسمية والشخصية، لكن أحيانا نكتب الهجري بجوار الميلادي ذرًّا للرماد في الأعين، مع أن التقويم القبطي هو التقويم الصحيح المناسب والملائم لبلدنا فهو مقسم وفقا لمواسم الزراعة، وطبيعة المناخ، ويرصد بدقة التغيرات المناخية التي تمر على مصر، وقد صاغوا للأشهر أمثالا شعبية مسجوعة فسهل حفظها وتداولها، فتسمع أن "برد طوبة، خلى الشابة كركوبة"، وتسمع: "برمهات، روح الغيط وهات"، وبرمهات هو شهر الحصاد، وتسمع: "كهياك،

صباحك مساك"، وفي قول آخر: "كهياك: تخلص فطارك تحضر عشاك"، نظرًا لقصر النهار فيه، والناس ينطقونها كياك وقد تم الاستغناء عن الهاء المعطلة للنفس في وسط الكلمة، وكان القرار بالإجماع من كل المصريين، الذين آلوا على أنفسهم سنفرة الحروف والاستغناء عن بعضها وتحوير البعض الآخر من باب التسهيل والتليين، فنطقوا العربية فأفرزوا العامية المصرية وهي في طريقها لتكون لغة مستقلة، وحب قريتنا للسنفرة يرجع لطبيعتهم النباتية، فهم في لين النبات وطراوته ورقته، ورغم صلابة عودهم وقوة نسيجه إلا إنهم يميلون مع الريح ليستمروا في البقاء، ينمون رأسيا وليس أفقيا مثل باقي الأمم وفي سعيهم الدائم للضوء يلتفون ويتشابكون ويتعانقون فيخنق بعضهم البعض، وهم مثمرون معطاءون، ثابتون الجذور في الأرض لا يتتعتعون مهما حدث، فالجبتي كائن غير مهاجر، يظل مكانه في الوادي الضيق، وعلى العالم أن يسعى إليه، إما غازيا وإما مهاجرا، وفي كلتا الحالتين هو مبلوع مهضوم متحلل في التربة المصرية، لنمتصه كما يمتص النبات السماد.

أفقت من خواطري على صوت البت سمر التي بادرتني متوجسة غضبي: "صباح الخير يا جاد"، أقبلت عليها مبتسما: "صباح الورد والنرجس"، ارتخت عضلات وجهها واطمأنت أني لست غاضبا سائلة: "يعني مش غضبان مني؟"، قلت: "قلقت عليكي، مش عوايدك تخلفي معاد"، قالت شارحة: "على عيني وربي، أبويا حكم رأيه ماخرجش، وفكرت أهاوده وأنط م الشباك زي كل نوبة، فضل سهران مع الرجالة قدام باب الدار لحد

الفجر، عشان الفجم"، قلت ملامسا يدها: "كويس اني اطمنت عليكي"، سحبت يدها متلفتة في خجل أعشقه فيها: "رايح فين بدري كده؟" قلت: "حعدي على خالة سمسمة.. ما تيجي معايا نفطر عندها"، قالت في طفولتها الجميلة: "لا يا أخويا، جدتي سمسمة رغاية ولتاتة ولسانها متبري منها ومجنونة"، ضحكت صائحا: "يا بت ما تقوليش على ستك كده"، ولأنها تعرف أن هذا أيضا رأيي في الخالة سمسمة نظرت لي قائلة: "ابقى خليها تنفعك"، قلت مكسبا كلامي هيبة العلماء وأهمية الباحثين: "أنا رايح لها عشان قررت أعرف أصل وفصل الفجم".

شارفت القرية على الانتهاء وتبدى عن بعد دار خالتي سمسمة، فهي تقطن خارج حدود القرية، وقد كان لها دار وسط القرية التي تشوهت بأيدي أبنائها وتحولت إلى مسخ مدينة، بيوتها ذات طوابق كعلب رصت فوق بعضها، وقد وصل ارتفاع البنايات إلى ستة طوابق، وهو ما يعتبره أهل قريتنا ناطحات سحاب، ويحلو لأصحابها أن يسموها أبراجا، فترى برج المراغنة نسبة إلى عائلة الميرغني، وبرج الجبايلة نسبة إلى عائلة أبو جبل، وبرج الجبتية نسبة إلى عائلة الجبتي، وهو أعلى الأبراج، إذ يصل ارتفاعه إلى ثمانية طوابق كاملة، ويعد أشهر برج في قريتنا ليس لأنه يحمل اسم الجبتي، لكن لأنه تحول إلى مزار سياحي لسكان القرية، فمنذ إتمام بنائه توافد الفضوليون لرؤية هذا العجب العجاب الذي فاق عمايير مصر ارتفاعا وأبهة، فله مدخل واسع مغطى بالزلزلي الأبيض ومُطعَّمٌ بالأحمر والأصفر، وسلالم عريضة بلاط سطوح، وكل دور يحوي أربع شقق،

وحـين صعد النـاس لأول مرة في حياتهم إلى سـطح البرج، شـهقوا من هـول المنظر، فقـد رأوا القرية كلها من جميـع النواحي حتى حدود الجبل الشرقية والغربية، وكانت شهقة الفضوليين من الزائرين للبرج أول شرارة سرى أثرها في الناس حين سـمعوا عن هول الارتفاع، وأنك لا تستطيع الاقتراب من السور حتى لا تدوخ، فأثار ذلك الشباب المحب للمغامرة، وصعدوا البرج واقتربو من السور، بل وتباروا فيمن ينظر أطول فترة ممكنة، وصـارت مغامرة البرج مجال منافسـة لإبهار البنـات اللاتي كن يصرخن فزعا عندما يقترب شـاب من الحافة، وقد تجرأت مرة البت هجلة مقلدة الشباب واقتربت من السور، فداخت وسقطت مسورقة حتى قبل أن تصل للسور وبالتكرار أصبح اصطحاب البنات ليسورقوا فوق السطوح تقليدا متبعا ومواعيد غرامية تضرب ومزارا سياحيا عاطفي، فبشكل ما صارت مسورقة البنت علامة الإيجاب لبداية قصة الحب، فيحملها الشاب الذي لم يبلغ الخامسـة عشر بعد، هابطا بها ثمانيـة طوابق، وتعلن بذلك العلاقة بين فلان وفلانة، أهل قريتنا قادرون على تحويل أي فعل أو قول إلى تقليد متبع! فهم سريعـو التأثر ببعضهم البعض، وسريعو الألفة مع كل جديد وبالتكرار والمعايشـة يصبح تقليدًا، ثم عرفًـا، ثم قانونًا، ثم يضيفون إليه التحابيـش مثل: إن أنجح قصص الحب تلك التي تبدأ بمسـورقة البنت عند الغروب، وإنه من الشـؤم أن تسورق وقت الظهيرة ويجب أن تكون مرتدية جلبابًا أبيض حتى يتسـخ حين تسقط مسورقة فيعرف الناس أنها سـورقت، أي تحب، أي مرتبطة، فيلزم كلٌّ حدوده، حتى السقطة نفسها

صار لها شـكل وقانون، إذ يجب على المسـورقة أن تقع على جنبها الأيسر ويسرع الحبيب إليها ليحملها بين ذراعيه ورأسها ناحية الغروب، ويقول لها "سلامتك يا فلانة"، فلاترد، طبعا لأنها مسورقة، ويجب أن تظل مغمضة الأعـين حتى يهبط بها إلى الشـارع فتفتح عينيها وتقول: "الله يسـلمك يا فلان"، فإذا نجحت العلاقة واستمرت وأثمرت خطبة وزواجا، عزا الناس ذلك إلى دقة وصحة المسـورقة، وإذا فشلت أرجع الناس السبب إلى عدم الالتزام بأصول المسورقة، ليس إلى عدم توافق الروحين ولا تنافر الطباع ولا اختلاف الشـخصيات، ولا عيوب كل منهما.. عجبا يا قريتي تسعين إلى الجهل سـعيا.. وأفقت من شرودي على صوت خالتي سمسمة تقف بباب دارها تصيح: "ما لسـة بدري يـا سرحان يا ابن السرحانين، إنت يا واد مابتحسـش على دمك، إنت مش عارف إني بفطر بعد الفجر جايلي ع الضحـى، طب حتتغدى إمتى؟ نفسي أعرف بهيم زيك دخل كلية الطب إزاي"، لم أبالِ بثورة خالتي سمسمة واحتضنتها مقبلا.

صحبتني خالتي سمسمة داخلين الدار ولم تتوقف عن رغيها وسبابها المتخلل لحديثها طوال الوقت، فبين الشتمة واللعنة والسبة والقذفة تسمع بعض ما تقوله وأنا أسمعها بنصف أذن، فقد تعودت كما تعود أهل قريتنا على أسلوبها الأبيح، وهي في سبابها لا تقترب من المحارم أو الأخلاق أو العورات، فهي شـتامة مؤدبة، وبهذا تكون وضعت قانونًا للشتيمة، أوله الشجاعة، فلا تسب أحدًا من وراء ظهره، ثانيها أن يستحق الشتمة حين يأتي بفعل منـافٍ للعرف أو المنطق، أو يرتكب خطأ، لكن أعجب قاعدة

وضعتها خالتي سمسمة هي استخدامها للشتيمة في المديح، وقد سار على دربها كل أهل القرية فتسمع: "فلان ده ابن جنية" أي شاطر، وتسمع "الواد فلان ده قرد مسلسل" يعني حرك ونشيط، وتسمع أن فلانة سوسة، بمعنى ناصحة، وفلان ده حمار شغل، وعِلّان ثور في ساقية، أي حمال للمصاعب، عجيبة أنتِ يا خالة.. أفقت من سرحاني على سؤالها: "عامل إيه مع البت سمر؟"، قلت مصطنعا الخجل: "الحمد لله"، فاعتدلت لي واضعة يدها في وسطها وبنبرة مهددة قالت: "اقعد عوج وكلمني عدل يا وله، الحمد لله ده إيه! ما تحكي ولا حتسوق السهوكة"، آثرت السلامة وقررت أن أحكي لها، بل وجدتها فرصة علها تكون واسطة خير بيني وبين عمي فراج أبو سمر: "ما بنشوفش بعض إلا صدفة" قطبت جبينها لأن كلامي لم يعجبها: "صدفة ده إيه! إنت صايع وإجازة ماوراكش شغلانة، وهي لا ليها في شغل البيت ولا المطبخ، وراكوا إيه؟"، قلت بعد تردد: "عمي فراج محرج عليها تخرج"، قالت: "من إمتى"، قلت: "من ساعة ما رجعت في الإجازة"، خبطت على فخذها متوعدة: "طيب يا فراج الكلب، يظهر إني ماعرفتش أربيك"، ثم التفتت إليَّ فجأة "إنت بتحبها بصحيح يا وله؟"، باغتني السؤال فارتج عليَّ، فصرخت في وجهي: "إنت بتفكر؟!"، أسرعت بالجواب قبل أن تنفجر: "بحبها.. بحبها يا خالة.. والنعمة الشريفة بحبها"، هدأت قليلا حين لمست صدقي وقالت: "وناوي تتقدم لها إمتى يا حيلة أمك؟"، اكتسى وجهي بسحابة غامقة، وأنا أقول: "عمي فراج شارط الشهادة قبل الجواز.. بيقول عايز يضمن مستقبل بنته الوحيدة"،

وكأني ألقيت عود كبريت على صفيحة بنزين تحوي أصابع ديناميت ومادة تي إن تي شديدة الانفجار، فقد صرخت مولولة "ناعاااام! شهادة! شهادة إيه أبو شـهادة الموكوس بن الموكوسين..."، ولم أسمع باقي الموشح لأني سرحت في عمي فراج وما سيحدث له من جدته خالتي سمسمة، وخفق قلبي خفقة الخوف، إذ إن هذه المرأة المتوحشة من الممكن أن تلتهم حفيدها عم فراج لمجرد شـبهة شـبح خيال فكرة أنه يقف في طريق الحب، فتفسد العلاقة بيني وبين حمامي، وفي انشـغالي بمأساة عمي فراج التي تسببت له فيها نسيت أم الفجم على اللي جابوه: "أنا إيه اللي كان جابني؟".

تآكل عظم النهار في محاولات يائسـة لإقناع خالتي سمسمة بالعدول عن رأيها أن تسارع إلى بيت عمي فراج، ولن تتركه إلا بعد أن يحدد موعد لكتب الكتاب والدخلة، وصمتت فوجدت فرصة لأحول مجرى الحديث إلى الهدف الذي أتيت من أجله، وهو السؤال عن الفجم، فقلت مصطنعا عدم الاهتمام: "ألا إيه حكاية الفجم دي يا خالة؟"، رغم قوتها وشجاعتها إلا أني لمحت شـبح وجل يختلج في الجفن السفلي للعين: "بيقولوا ظهر في الناحية، إنتي شفتيه؟"، غمغمت: "الله يلعنه"، فكررت سؤالي بمزيد من الشـغف: "شـفتيه؟"، فهزت رأسـها إيجابا، قلت: "وإيه اللي خلاه يظهر تـاني؟"، قالت: "وهو من إمتى مشي.. من سـاعة ما حـل علينا وهو كل يوم له ضحايا، كل يوم واحد ولا اتنين بيفترسهم، الملعون".

سـكتت وكأني أكتشف موضوع الفجم لأول مرة، فمعنى كلامها أنه

موجود بالفعل، وأن له ضحايا، وأنه لم يغب عن الناحية أبدا منذ أن حل بها، ولماذا لم نسمع عنه إلا اليومين دول وما شكله وكيف يلتهم ضحاياه، وكيف ينتقيهم.. سيل من الأسئلة المؤجلة والحديثة طرحتها كلها في حجر خالتي سمسمة، كأني أتخلص من عبء يثقل كاهلي، طال صمتها حتى قالت: "الكلام اللي حقولهولك يا جاد تحفظه وتوعاه زي إسمك، فاهم يا ولة"، وعادت إلى صمتها تبحث عن أفضل نقطة لتبدأ منها، فقررت أن تبدأ من البداية: "زمان.. زمان قوي كان جدودنا عايشين هنا، جدودنا اللي انتوا ماتعرفوهمش، حكم إحنا سلسالنا يرجع لجدي يوغوث جد سيدنا نوح".

بدأت خالتي سمسمة في الحكي، وقد اختارت أبعد نقطة لتبدأ منها، فنظرت إلى ظلال الأشياء في فناء الدار، فوجدتها ظلالًا قصيرة تتوارى من حرارة الشمس تحت الأجسام الصلبة، فعرفت أنه الظهر، وخالتي مستمرة في الحكي عن أصلنا وفصلنا: "يوغوث جاب سيدنا نوح عليه السلام، ونوح جاب حام، وحام جاب كنعان، وكنعان جاب مصرايم، وهو ده اللي اتسمت البلد باسمه.. مصر"، وحين وصلت إلى جدي مينا موحد القطرين كنت أنا أفرفر من الحر والعطش والجوع، وقد مالت الشمس مطلقة بوق الرحيل، وخالتي سمسمة تقول: "انت ما جعتش يا وله؟".

أحمت خالتي سمسمة الفرن وأزكته بالحطب قبل أن تدفع بصاج العجين إلى آتون النار ليختفي لحظات وسط اللهيب، لكنك تستطيع أن تلمحه

وهو ينضج فيقب وينفش قبل أن تسحب الصاجة بالخرقة المبللة وترشه بالسمسم وحبة البركة، ثم تدهنه بالسمنة، وتلحوسه بالمربى، كم أحب جلسة الفرن في دار خالتي سمسمة خصوصا في الشتاء، فأسرح في النار المتراقصة وأراهن نفسي ألا أنعس، وفي كل مرة أخسر الرهان، فالتحديق في النار طويلًا مثل التنويم المغناطيسي، يسلبك الإرادة فتثقل جفونك وتنعس وتنام، هل يتعذب الرغيف في النار؟ هل جزيئاته وذراته كانت لبشر أشرار ماتوا وتحللت جثثهم فصاروا ترابا نبت فيه حبات قمح أو ذرة، طحن فصار دقيقا وأنا آكله الآن؟ كم من أجدادي وأسلافي أكلت؟ وصوت الحطب يطرقع في انفجارات عشوائية فيخلق شريط صوت لمنظر النار والخبيز، فترتخي أذناك كما ارتخت عيناك فتسلم نفسك للنعاس.. هببت من نومي على صوت خالتي سمسمة تصرخ توقظني وتطفئ النار التي كادت أن تشتعل في ملابسي حين قفزت شرارة أثناء نومي واستقرت في طيات جلبابي وأنا متكور ملاصق للفرن: "يخيبك يا وله أسيبك خمس دقايق ألاقيك نعست! هي عوايدك ولا حتشتريها، أنا مش منبهة عليك ميتة مرة ما تنعسش قدام الفرن يا وله"، قالت جملتها الأخيرة وهي تزغدني لأعتدل جالسا، وناولتني سطل اللبن الرايب لأروي عطشي، بعد أكلة البط الدسمة التي ختمناها بفطيرة المربى الطازجة، ثم كوب شاي حبر يتبعه فنجانان من القهوة السوداء تصنعهما خالتي على الكانون الصغير قلت: "والله قعدتك ماتتساب يا خالة"، قالت: "ما بدري"، قلت: "يا دوب على ما أروح، عايز أرجع قبل الليل ما يغمق"، قالت: "انت تخليك

بايت الليلة"، قلت: "هه!"، قالت "يقطع شيطانك وشيطان سرحانك، هلبت ما سرحت مني وانا بحكيلك يا وله"، قلت: "عن إيه؟"، قالت: "يخيبك، عن الفجم يا مدهول".

في الحقيقة أنا حين أسرح أترك جزءًا من حواسي منتبها، فأترك عيني مفنجلتين فأنظر لكن لا أرى، وأترك أذني مطرطقتين، فأسمع ولا أنصت، وطبيا أعلم أن ما يدخل الأذن أو العين أو أيًّا من الحواس الخمس الظاهرة فهو يسجل، لكنه يظل في هامش الذاكرة حتى يتم استدعاؤه، فأنتظر حتى أخلو لنفسي لأسترجع ما سمعت ورأيت، وبما أني أبيت ليلتي في بيت خالتي سمسمة فقد سنحت لي فرصة لأسترجع ما حكته لي بالأمس، وفي السرير العنجريب تمددت ورحت أفرغ شريط الذاكرة، لقد بدأت خالتي من يوغوث جد سيدنا نوح وختمت بالإسكندر الأكبر، ولم يكن الفجم قد ظهر في بر مصر بعد، حكت لي عن جدودي العظماء، ليس هؤلاء الذين ندرسهم في المدارس مثل أحمس ورمسيس، لكن جدودي الذين تسلسل منهم الجبتية مثل سنوحي وبيبي وميوتي وميريت، هؤلاء الناس البسطاء الذين صنعوا التاريخ لكن لم يدخلوه، لم يكونوا قوادًا ولا ملوكًا ولا كبار كهنة، بل كانوا فلاحين وفلاحات عاشوا على نفس تلك الأرض زرعوها وسكنوها وعمروها ولم يذكرهم التاريخ، فلا أحد يعلم اسم من اخترع النورج والفأس والشادوف والمنجل والمذراة، لا أحد يعرف من عالج الجروح وطهرها، ولا من داوى المرضى وشفاهم، ولا من اخترع الزجاج، ولا العمليات الجراحية وخياطة الجروح، والعمليات الجراحية

في الجسم والمخ وصناعة العطور والمراهم وكريمات التجميل، من اخترع الناي أو الهارب أو العود، من اخترع الرحاية والهون والمقشة، من أول من دمس الفول؟ من أول من طهى البامية، من أول من خبز، كيف عرفوا أن نبات القمح أو الذرة إذا حصدت وذريت وطحنت وعجنت بالماء واللبن والبيض والسكر صارت فطيرة شهية كتلك التي أشم رائحتها الآن مما يعني أن خالتي سمسمة قد أعدت الفطار، وفي قريتنا نأكل وجبتين في اليوم، الإفطار وهو يبدأ من بعد صلاة الفجر حتى الضحى، والوجبة الثانية بعد العصر، وجاءني صوت خالتي سمسمة مناديا في حنو منغمٍ مغنى، ففي قريتنا هكذا نوقظ النائم، وفن إيقاظ النائم مجال للمنافسة بين نساء قريتنا، فكلهن في رقة أوراق الشجر وعذوبة ماء النيل، وفي الصباح الباكر تسمع زقزقة العصافير وخرير مياه النيل وحفيف أوراق الشجر متناغما مع أناشيد إيقاظ النائم الصادرة من الدور التي تفتحت أبوابها لتبدأ يوم جديد، وسمعت خالتي سمسمة تغني: "اصحى يا جاد الله، وخد هدية الله.. شمس النهار قوم واحمد، ربك ع الفطار قبل مايبرد"، "الله عليكي يا خالة صباحك ورد وعصافير"، "صباحك زفت مطين بطين"، "الله الله الله!! راحت فين الحنية اللي كانت من شوية؟"، سألتها ضاحكا فقالت: "مش خلاص صحيت لازم ألطشلك لجل ما تفوق"، وطبعت قبلة على جبيني وقبلت أنا يدها، ومع الفطار شرعت خالتي سمسمة تحكي عن الفجم وكيف ظهر بعد رحيل الإسكندر من مصر، بعد أن ترك خليفته بطليموس الأول جد كليوباترة "حكم فيه ناس فاكرينها مصرية، لكن

لا، ولا تقربلنا"، هكذا أكدت خالتي سمسمة وهي تسلسل عائلة الجبتي الحديثة حتى جدي كاموس الذي ظهر الفجم في عصره.

"كات سنين سودة بعيد عنك" هكذا بدأت خالتي سمسمة سرد قصة ظهور الفجم مع نهاية عصر كاموس الذي ورث بلدًا محتلة من قبل الرومان وقبلهم البيزنطيين، "كان همهم يمصوا دم المصريين، سرقوا البلد ولاد الهرمة"، وحكت كيف نقل الرومان كل العلوم والاكتشافات والفنون المصرية إلى بلادهم، وكيف أنهم أفرغوا مكتبة الإسكندرية من برديا‌تها ومخطوطاتها وبنوا إمبراطوريتهم على أساسها، "وماكفاهمش كده وبس، لا ونفضو إيديهم من مصر وناس مصر، كان جدك كاموس ضعيف وهفية ومالوش شخصية عامل زي جدك آدم"، فقلت متلطفا: "حرام عليكي يا خالة.. ده حتى بيحبك"، فلتت منها ومضة غريبة عليها لم أرها في وجهها من قبل وهتفت بلا وعي: "بجد يا وله؟"، ثم أدركت اندفاعها في ردة الفعل وتماسكت قائلة: "حبه برص"، لكن على مين، فقد انفضح أمرها وبانت لبتها وأظهرت لهفة لا تصدر إلا من محب مشتاق لأي أمل أو رجاء من المحبوب والحبيبة أمثالنا فقط هم من يدركون تلك اللحظة التي تكسر يأسك وتشع الأمل في روحك أن يكون المحبوب بعيد المنال قد باح بما يفيد حبه، تلك اللحظة التي لم تستغرق ثانية كانت كفيلة أن تكشف لي ما لم أتوقعه، خالتي سمسمة تحب جدي الكبير! يا للعجب! متى بدأت قصة الحب؟ وهل هي قصة حب أم مأساة حب؟ أم هي حب من طرف واحد؟ ووجدتني أنسى الفجم وسنينه وأتوجه

بكل عقلي تجاه هذا الاكتشـاف المذهـل، فقلت مناورا: "ده حتى باعتلك السـلامات معايا"، أشاحت بيدها قائلة: "وأعمل إيه بسلاماته، هو مش قادر يهز طولـه وييجي يطل عليَّ وهو عارف إني مابخرجش من داري"، كلما تكلمت خالتي سمسـمة زاد تأكدي أنها تحبه، وما القسوة والخشونة وطولة اللسان إلا غلالة رقيقة تغطي بها وجدانها حتى لا ينفضح أمرها، لكنـه انفضح يا خالة، فجأة قلـت: "يتحبيه يا خالة؟"، هي طبعا لم تتوقع السـؤال بهذه المباشرة الفجة، فارتـج عليها أمرها، وهمت أن تقول كلاما لكنها أمسكت، وتلهت في شيء تافه مثل ذبابة مزعجة تهشها بعيدا شاكية، "يا أختي الدبان ماله بقى رزل كده"، فلما لم أرد، وظللت ناظرا إليها مبتسما ابتسامة أدركت بلاهتها حين اضطربت وصرخت في وجهي: "إيه يا وله"، قلت: "إيه إيه يا خالة"، قامت فجأة هاربة من محاصرتي لها: "انت قعدتك بقت رزلة قوم غور روح على داركم"، فاشفقت عليها ولحقت بها: "طب مـش حتحكيلي حكاية الفجم؟"، قالت وهي تتجه إلى غرفتها: "بلا فجم بلا زفت في يومك الأغبر ده"، ورزعت باب الحجرة منهية الحوار والمناقشة والكلام وضاعت فرصة معرفة حكاية الفجم من خالتي سمسمة، فقمت خارجا وحين فتحت باب السكة فتحت باب حجرتها وقالت: "ابقى سلملي عليه"، لم أسمع خالتي سمسمة تتحدث بتلك الرقة من قبل، بل أكاد أجزم أني لمحت دمعة تترقرق في مقلتيها، يا بنت الإيه ياخالة! بتحبي؟ أما أنت يا جدي فلي معك شأن آخر.

5

نحن نعيش وسط أناس لا نعرفهم، أو بالأصح لا نحاول أن نعرفهم، فقط نعرف أسماءهم وقدرهم ومكانتهم والقوانين التي ترسم علاقتنا بهم، لكن لا نعرفهم كأشخاص، والشخصنة ضرورية للمعرفة الحقة، نجعلهم أحياء ملموسين لهم أبعاد وزوايا، فأنا أعرف جدي وخالتي سمسمة وباقي أهلي وأهل القرية كلهم لكني لا أعرفهم، وإلا لماذا أُنكر على جدي الكبير أنه كان شابا ومثل كل الشباب يحب، ولماذا يحب الشباب فقط؟ من وضع قاعـدة للحب؟ من قال إن العجائز لا يحبون، وإن كان هناك قانون يحدد سـن الحب فما هو؟ ولماذا ننظر إلى كبار السـن كحـالات انقضى عمرها الافتراضي وعليهم الجلـوس في انتظار الموت؟ أليس من الظلم أن نلغي إنسانيتهم وحقهم في الحياة لمجرد أنهم كبار السن؟ فهذا ضد المنطق، فأنت حين تمارس شيئا لمدة طويلة يتحول إلى جزء منك وأنت جزء منه، فتصيرا

واحدًا، ومن ناحية أخرى فإن جدي الكبير وخالتي سمسمة وعم دهب وباقي معمري القرية قد مارسوا الحياة لمدة طويلة جدا حتى صاروا جزءا منها وهي جزء منهم، صاروا هم الحياة، والحياة لا تتوقف ولا تثبت، فلماذا نطالبهم بالثبات؟ الحياة تتطور وتنمو وتتسع وتتشعب، الحياة تأخذ وأيضا تعطي، وقد أعطى هؤلاء كثيرًا، وأخذوا كثيرا، فلماذا نحكم عليهم بالجمود؟ هذا حكم جائر لا شـك، فمن حقهم أن يحبوا فهكذا الحياة، ومن حقهم أن يعطوا فهكذا الحياة، ومن حقهم أن يأخذوا فهكذا الحياة.

سرحت في فلسفتي الكذابة وأنا في طريقي إلى القرية، أكان اعتزال خالتي الناس بسبب فشلها في الحب؟ هي دائما تردد المثل القائل: "البعد عن الناس غنيمة"، وجدي الكبير يقول: "معرفة الناس كنوز"، لا أدري مَن أصدق فيهم! إنهما متناقضان أيكون هذا هو السـبب في فشـل حبهما؟ ووجدتني أسرح في البت سـمر، أأعرفها؟ وهل نحن متوافقان أم متعارضان، نحن قليلو الشجار، فغالب الظن أننا متوافقان، ولكن هل سنظل متوافقين إلى الأبد؟ لقد درسنا في كلية الطب أن المرأة تتغير جسمانيا ونفسيا حين تتزوج، ثـم تتغير أكثـر حين تلد، وتتغير ثالثا حين ينقطـع الحيض، ثم رابعا حين تصبح جدة.. كم هي مسـلية حياة المرأة ومتغيرة! ووصلت في سيري إلى مشـارف القرية، حين ناداني الواد حامد صديقي المقرب وكاتم أسراري ورفيق الصبا والشباب، كان جالسا على قهوة توشكى الكبرى التي يملكها عم منير التشكاوي، فقريتنا صارت خليطًا من عائلات نوبية متفرقة بعضها من كوم أمبو وبعضها من توشـكى وأدندان وفيلة وأبو سـنبل وحلايب

وشـلاتين وصولا لأم درمان جنوب النوبة القديمة، وبادرني الواد حامد ونحن نحتضـن بعضنا ونربت بقوة تصل إلى الـضرب على ظهر بعض: "طبعا جاي سرحان ولا على بالك"، قلت: "خير؟"، قال: "وانت ييجي من ورا سرحانك خير"، خفق قلبي خفقة الخوف واعتراني قلق فألححت في السؤال: "ما تنطق فيه إيه؟"، جلسنا إلى الطاولة وطلب لي شايًا ووضع ساقًا فوق ساق، فبدت ساقاه المعوجتان الرفيعتان كفرعي حطب تفحما من تحت جلبابه الأبيض، وبلهجة الحكماء الناصحين قال: "مش تسيب خبر انـك حتبيت بره البيت"، هنا أدركت مـا حدث، فقد قلقت أمي كعادتها وقلبـت الدنيا نواحًا وبكاء وعويلًا ونحيبًا من نوع "إبني جراله حاجة"، فوجدتني متعصبا صائحا: "من إمتى بنسـيب خبر؟ ما طول عمرنا نبيت في أيتهـا بيت لما ننعس"، ضحك وراح يصب الشـاي مـن الإبريق رافعا بزبوزه لأعلى درجة ممكنة حتى يرغي الشـاي، قائلا: "أمك عاملة مناحة وبتقول إن الفجم كلك".

أعادتني كلمة الواد حامد إلى نقطة البداية، الفجم، قلت: "وانت تعرف إيه عن الفجم"، ألقيت كلامي، ولا أقصد السـؤال، لكن الواد حامد بما عرف عنه من لبابة وفصاحة وعلم غزير اعتبرني أسأله لأستفيد ومن علمه أستزيد، فانقصع في كرسيه رافعا درجة القلاطة ممسكا بكوب الشاي بيد تاركا اليد الأخرى ترسم خطوطًا افتراضية في الهواء، فحب حامد للرسم أكسبه تلك العادة، كأنه يرسم الكلمات ليثبتها في ذهنك رغم أنه يقرأ ويكتب بالعافيـة، فحامـد لم يكمل تعليمه الابتدائي لظـروف عائلية اضطرته أن

يترك المدرسة ويساعد أمه في زراعة القيراطين الحيلة، ولا يدري أحد متى وكيف تعلم الرسم والنحت، واكتسب بجدارة لقب فنان القرية، ولوحاته وجدارياتـه وتماثيله تجدها في كل بيت، وأمتع سـاعات حياتي أقضيها في صحبتـه وهو يرسـم أو ينحت، فمنذ الطفولة وأيام الاسـتحمام عرايا في الجندول الصغير كنا نلعب لعبة حرب الهكسوس، وننقسم فريقين، فريق بقيادة أحمس وفريق بقيادة فرعون ملك الهكسوس، وكان السلاح المفضل لدينا هي "كنابل" الطين، نلقيها على بعضنا البعض ونجري ونناور ونحاور حتـى ينتصر جيش أحمس على جيش فرعـون، ولا تنتهي اللعبة إلا لو تم النصر، أو تقلب بزعلة وقمص وغضب وينسـحب فريق منا، لكن الواد حامد بجسمه النحيف كعود خيرزان، وأصابعه الطويلة المعروقة يتعامل مع الطين بمنطق آخر، فهو يقبض على جالوص الطين قبضة غير قبضتنا، فقبضتنا فيها قوة وغلظة وغشومية، أما قبضته فكانت حنينة، فتصبح يده كمهد رضيع يهنن ويحنن الطين، وتعمل أصابعه وأظافره كأزميل وسكين، ويظل يشكل ويضيف وينقص منها حتى تصير تمثالا وكان يعشق التفاصيل، فالحصان أو السمكة تلمح فيه الرموش وملمس الجلد والشعر، ومع نهاية اليوم يحمل ما نحته ليحرقه في فرن دارهم، فيصير فخارا: "انت سامعني ولا سرحت؟"، ضحكت وأنا أرشف من الشاي: "سرحت طبعا"، فأعاد كلامه: "بقولك الفجم ده شـبه التنين، عارفه؟"، هززت رأسي إيجابا وأنا أحاول السيطرة على ابتسامتي، حتى لا تبدو متهكمة من وصلة التخريف التي سيلقيها: "بس الفرق بينه وبين التنين إن له تلات دمغة وتلات رقابي

طويلـة زي التعابين، وكل دماغ ليها شـكل والعياذ بالله لما تبصلها كإنك شفت بسم الله الرحمن الرحيم"، لم أتحمل هذا الهراء فقلت مستهزئًا واللي يحصل يحصل: "يا سلام!"، لكن صديقي الطيب لم يلمح استهزائي، وحتى يستدل على صحة كلامه قال: "ده العضة منه والعياذ بالله تقضي على أتخنها تخـين بياكل البنـي آدم في قطمتين.. في تلاتة في تلاتة كل راس تاكل حتة، راس تاكل الجسم وراس تاكل الراس والتالتة تاكل الإيدين والرجلين"، لم أسمع باقي الهراء الذي يقوله، وسرحت في سؤال طالما هف على عقلي، ماذا يكون حالك يا حامد لو أكملت تعليمك؟ ماذا لو كنت دخلت كلية فنون جميلة؟ ماذا لو تعلمت وقرأت وتنورت؟ ووجدتني أسأله لا لأحرجه لكن لطفا به ورغبتي ألا ينساق وراء الخرافات وما أكثرها في قريتنا: "إنت شفته؟"، ولهول المفاجأة قال: "طبعا".

لم أصدق ما قاله الواد حامد، وانهلتُ عليه بالأسئلة المتلاحقة من نوع فين وإمتى وإزاي؟ مرورا بإنت بتهزر ويا جدع قول كلام تاني، ووصولا إلى أهم سـؤال: "وإزاي أنا ما عرفش؟"، أشاح بيدية المسلوعتين زاعقا: "وانت حد بيشوفك؟ قاعد في أسيوط طول السنة والشهر اللي بتجيه يا مع البت سمر، يا مع جدي الكبير وخالتي سمسمة"، قلت كالمعتذر: "ما أنا... موضوع الفجم ده واكلي دماغي، بقوم بيه وأنام عليه، لستها امبارح حلمان بيه"، قبل أن يرد اقتربت مجموعة من الغلمان لا يقلون عن سـبعة يبلغوني أن أمي تستدعيني فورا، فصرفتهم برسالة تطمئنها أني بخير، وسألحق بهم أول ما أخلص كوب الشـاي، وتعجبت من سرعة انتشـار خبر ظهوري

بالسلامة، عجيبة قريتنا في نشر ونقل وذيوع وشيوع الأخبار بتلك السرعة، فأنا تركت بيت خالتي سمسمة منذ ساعة تقريبا ولم ألتقِ إلا بالواد حامد جالسا بطوله في القهوة التي تستعد لاستقبال زبائن الظهيرة، ووجدتني أسأل حامد: "هي عرفت منين؟"، بجعصة الفيلسوف ونخعة العارف ببواطن الأمور قال: "يعني مش عارف بلدنا، النفس مرصود والكلمة مسموعة حتى لو في سرك"، فسرحت في كلامه، فهو حقيقي وملموس، فما من حدث أو كلمة تقال في أي مكان إلا وتنتشر انتشار الدخان في الفضاء، فتنقل الكلمة من فم إلى فم لتصبح كلمتين فثلاثا فعشرا، فحدوتة طويلة عريضة، عجيبة يا بلدنا، من قال إن الفيس بوك والتويتر والإنترنت هي أسرع وسيلة تواصل اجتماعي؟ ففي قريتنا السرعة تفوق راماتها أضخم كمبيوتر، وسعة تخزينها تفوق أجعصها هارد ديسك، بدليل خالتي سمسمة التي تحفظ تاريخنا عن ظهر قلب، وليست خالتي سمسمة وحدها، بل كل المعمرين والشيوخ حتى جيل جدي الوسيط يحفظون التاريخ، فقد شربوه مع الماء وتنفسوه مع الهواء، فليس من الغريب أن تنتقل الأخبار بتلك السرعة، جرعت آخر بق في كوب الشاي، وقلت لحامد: "قوم بينا"، قال: "على فين؟"، قلت: "على دارنا"، في ندالة رفع ذراعيه المعروقتين هاتفا: "لا يا عم، أروح معاك وأمك ناويالك على نية سودة؟ إنت اتجنيت"، قلت راجيا: "خليك جدع يا حامد، ما تسيبنيش في وقعة زي دي"، وحتى أطمئنه أضفت: "أمي بتحبك ولو شافتك معايا حتأجل زعلها، وانت عارفها تطلع تطلع وتنزل على مافيش"، تفكر في كلامي، ثم سأل

مشترطا: "وان شاطتنا إحنا الاتنين؟"، جذبته من ذراعه أوقفته دافعا إياه: "قوم بقى بلاش ندالة"، فتخلع وتمايل ولف ساقيه حول بعضهما، حتى كاد أن يقع صائحا: "طيب طيب ماتزقش"، فقلت: "واهو بالمرة تحكيلي حكاية الفجم"، وسرنا كما تعودنا أن نسير ونحن صغار متشابكي أصابع اليد، أو أحدنا يحتضن كتف الآخر ووطدت نفسي أن أسمع الحكاية من فم شاهد عيان، لكن ما لقيناه في طريقنا من القهوة إلى بيتنا، وهي مسافة لا تقل عن ثلاثة كيلومترات، كان أهول وأعظم من الفجم نفسه.

تحركنا حامد وأنا من القهوة سائرين على مهل في اتجاه بيتنا، وبعد نصف كيلو تقريبا عاد وفد الأطفال السبعة يستعجلني، فلم أعرهم اهتماما، إذ كنت مشتبكا مع الواد حامد في حديثنا الهام عن الفجم، وكان يقول: "أنا مش بس ححكيلك أنا حوريهولك"، فزاد شغفي ونهرت الطفل الرذل الذي يجذب جلبابي: "عمي جاد عمي جاد، جدتي بتستعجلك وبتقولك شهل وبلاش لكاعة"، لم أعره انتباها سائلا حامد: "شفته فين؟"، أشار إلى رأسه وقال: "هنا"، آه يابن الفرطوس، فأعدت السؤال بصياغة أخرى: "هنا فين؟"، قال ضاحكا: "في دماغي اتصورته ورسمته"، انقضضت عليه ألوي عنقه تحت إبطي وهو يصرخ: "والنعمة الشريفة ما بهزر"، جذبني طفل آخر: "عمي عمي ستي مأكدة علينا مانرجعش إلا بيك"، لكني كنت مشغولا بصديقي الذي يتلوى تحت إبطي: "وانا اللي صدقتك يا مجنون يا ابن المجانين"، وفي حركة لولبية انكمش حامد، فصار أرفع من أن أقبض عليه، وانفلت مني هاربا ضاحكا، ونتيجة الحركة المفاجئة اختل توازني

وسـقطت على الأرض، ولسوء حظي ارتطمت رأسي بحجر من أحجار الطريق وخدشًـا ذراعي اليمنى خدوشًـا داميـة، أسرع إليَّ حامد يقيمني ملهوفا فوجدتها فرصة لأنتقم منه فتصنعت الإغماء، فركع بجواري واضعا رأسي على فخـذه الخالي من اللحم ملقيا أوامـره إلى الأطفال أن يحضروا ماء، وراح يمسـح جرح رأسي بطرف كم جلبابه، وأحضر الأطفال الماء، فخلطه حامد بتراب الأرض فصنع منه كرة طين في حجم كف اليد، وراح يكبـس الجرح، هنا أدركت أني لو تماديت في تمثيلي سـأموت جرَّاء تلوث جـروح رأسي وذراعي، ففتحت عيني فرأيت نظرة اللهفة في وجه حامد الجزع، وهو يقول: "أنا آسف والله ما اقصد أوقعك"، هنا اكتفيت بانتقامي وضحكت: "إنت صدقت"، ترك رأسي وجلس شـاربا ما تبقى من الماء، ثم مسـح فمه بكم الجلباب متنهدا: "يا ابـن الإيه يا جاد، خلعت قلبي"، وانفجرنا ضاحكين في سعادة لا أستشعرها إلا مع صديقي الطيب، جذبني من جديد طفل: "عمي عمي يالا عشـان عوقنـا"، نهرته في رفق والتفت إلى حامد قائلا: "عارف وشـك وانت مخطوف فكرني بإيه؟"، أطرق أذنيه فأكملت ويا ليتني ما أكملت: "بس ماتجيبش سيرة لحد من يومين كنت جنب المدرسة بالليل"، وحكيت له موقفي المذري حين خفت من خيالات الجمال الثلاثة، فضججنا بالضحك من جديد حتى اغرورقت عيوننا وسـاحت وجوهنا الملطخة بالدم والطين وماء الأعين السعيدة، جذبني نفس الطفل الرذل "عمي عمي.." قبـل أن يكمل صرخت فيه صرخة نطرته من على الأرض، فأطلق ساقيه للريح مبتعدا، وفي أثره باقي الأطفال، قمنا حامد

وأنا ونفضنا التراب عن ملابسنا التي صارت كأنها خارجة من بق الفجم واتجهنا إلى بيتنا، وهو مشوار يستغرق حوالي نصف ساعة بالسير المتمهل، وما إن وصلنا المنطقة المزدحمة من القرية حتى انهال عليَّ الناس بالسلامات وسمعت العجب العجاب عن مغامرتي مع الفجم ذي الرؤوس الثلاث، وكيف حاربته وهو يحاول أن يفترسني وقد عقرني في ذراعي ورأسي وكيف ضربت الرأس الأولى، لكن نبت مكانها رأس ثانية، وكيف استعنت بقوة لا إله إلا الله والله أكبر حتى انتصرت عليه وطردته من الناحية! هنا أدركت خطئي حين حكيت لحامد موقفي المخزي عند سور المدرسة أمام سبعة من الأطفال لا يملكون إلا خيالًا واسعًا وشغفًا بالمغامرة يفوق شغفهم بالعسلية، وما يشغلني الآن كيف سأدخل على أمي وأنا على هذه الحال، وهي قد سمعت أن الفجم هاجمني وأصابني بجروح.

6

ما إن انحرفنا إلى شارعنا، حتى هجم علينا أهل القرية كلهم وقد تجمعوا أمام منزلنا الذي امتلأ من السطح والشقق والسلالم والمدخل بالقادمين من كل صوب وحدب بعد أن سـمعوا من العيال السبعة قصة هجوم الفجم عـليَّ "يا ولاد العفاريت"، مال عـليَّ حامد وقد أدرك هو الآخر ما حدث وهمس: "حد يحكي حكاية زي دي قدام عيال"، كنا نتقدم بصعوبة وسط الحشـد الغفير، ومـن خلفهم عند باب البيت وقفـت أمي وأبي وأعمامي وأخوالي وجدي الصغير والوسيط، وما إن وقعت عيناها عليَّ حتى قفزت في حضني أو أنا في حضنها، كانت تبكي وتضحك وتدمع وتتكلم وتقبلني في كل جزء من وجهي وأكتافي في نفس الوقت، ثم تبعدني عنها تتفحصني لتعود وتضمني، نسيت جروحي وألم رأسي وحرقان ذراعي ولم أشعر إلا بوجع أمي، كانت حين تحضني يلكزني قلبها المتسـارع في صدري، وحين

تبعدني تلفني عيناها في فرحة مشوبة بالقلق والحمد والشكر واللوم والعتاب والحب، كم من المشاعر تزاحمت على عضلات وجهها الدقيق، وخرجت كلها من عينيها الواسعتين محمولة في ماء العين الملهوفة، لم تقل شيئًا سوى كلمة واحدة "يا ضنايا"، وفي حضن أمي سرحت في الكلمة، لأول مرة أنتبه أن كلمة ضنى تنتمي إلى معاني المعاناة والتعب والرهق والنصب والضنى! لماذا يستخدمها الناس للإشارة لأولادهم؟ وأجابني الموقف الذي أنا فيه، فكم كابدت المسكينة وهي تعيش ساعات الليل الطوال لا تدري ماذا حل بي، وكم عانت وهي تتخيل مايمكن أن يحدث لي في تلك الظروف الطارئة بسبب وجود الفجم في الناحية، وكم فزعت حين رأتني دامي الرأس والذراع فتأكد لها صدق رواية الناس، ألا تنتهي معاناة الأمهات؟ فهي تعاني في الحمل وتعاني في الولادة، وتعاني في الرضاعة والفطام والمشي وشقاوة الطفولة وحماقة الصبى ورهق المراهقة وحمية الفتوة حتى بعد أن يكبر الولد تحمل هم صحته وسهره ومذاكرته ومشاكل أصدقائه وحبه وخطوبته وزواجه وخلفته وخلفة خلفته.. يا ألله! كان من المستحيل أن أصد هذا الكم الهائل من المشاعر، ليس من أمي فقط لكن من الناس الطيبين اللذين تكتلوا كل يحاول أن يلامسني من باب الطبطبة، والطبطبة عندنا أقرب للضرب، وهي عادة تكون على الظهر والأكتاف والساعدين، لكن نظرًا للزحام الشديد وزخم المشاعر وكثرة الأيدي وعشوائية الطبطبة، فقد تلقيت معظمها على قفاي فاستسلمت لقضاء الله واعتبرته عقابا "عشان ماعملش كده تاني"، ولم تتركني أمي وظلت متعلقة بذراعي حتى وهي

تسـلمني لأبي وأعمامي وباقي طقم العائلة ليعبروا عن مشاعرهم بمزيد من الطبطبة، وحانت مني التفاتة لأعلى فرأيته.. جدي الكبير، يقف شامخا على السـطح، وأكاد أجزم أني لمحت عينيه دامعتين، وبإشارة من يده قال "اطلعلي"، فسلكت نفسي من الزحام المجنون مخترقا زحامًا أكبر عبر السلم مع مزيد من الطبطبة: "يخرب بيت ده حب"، حتى وصلت إلى السـطح، فوجدته واقفا بجوار السـور فأسرعت إليه، وفي لهفتي لم ألحظ أنه يقبض على عصاته وإبهامه إلى أسفل: "أي".

لكزني جدي في جانب مؤخرتي بطرف عصاه فلوحني، فأصبحت في وضع جاهز لتلقي ضربة ثانية سـماش ساحقة ماحقة بعرض العصا على مؤخرتي كلهـا، فأسرعت مقتربا منه مقبلا يده، طبعـا من باب الاحترام والتبجيل، لكن أيضا لأقرب المسافة بيني وبينه فلا أسمح للعصا أن تنالني بضربة ثالثة، وما إن رفعت رأسي حتى رأيت الحنية كلها تطل من عينيه وهو يحتضني بقوة كاد يعصرني، فتركت نفسي لتلك المعصرة العاطفية مستشعرا لـذة الحضن القـوي، وحضن جدي يختلف عن حضـن أمي عن حضن صديقي عن حضن باقي الناس، والحضن عموما طقس ولغة صامتة تعني التوحد والقرب، لكن حضن الأم يفوق كل الأحضان، ففيه قاموس كامل لكل معاني الأمومة والحب واللهفة والفدا والاحتواء والطمأنينة والراحة وغسل الهموم، حضن عطاء بلا مقابل حضن تعود فيه طفلا لا تخجل أن تبكي فيه، وتنفس ما في داخلك بلا قيود أو حرج، فقط سيل من المشاعر تنساب انسياب النهر في المجرى، أما حضن جدي ففيه قوة وشدة وحماية،

كأنه يقـول لك: "ما تخافش أنا موجود"، وأحضان أهل قريتنا تعلن مبدأ الكل في واحد، أحاطني جدي من كتفي كأنه يتسـند عليَّ، فتحولت فورا إلى عكاز وأحطته من خصره وجلسنا في ركن السطح الذي خلا من الناس بإشارة من يده، وكعادتي جلست عند قدميه، لكنه ربت بكفه على المكان الخالي بجواره فقفزت جالسا ملاصقا له، استند بكفيه على العصا وفوقهم وضع ذقنه، وقال: "احكيلي"، بلا تردد أو تفكير حكيت له ما كان منذ أن تركت المنزل بالأمس وحتى علقة الطبطبة التي سـبقت ضربات العصا، فضحك قائلا: "تستاهل"، ثم ربت على ركبتي قائلا: "يعني ما شفتوش"، فوجدتها فرصة فقلت مناورا: "مش لما أعرف هو موجود ولا دي خرافة من خرافات البلد"، صمت قليلا ثم نطق دون أن يحرك وضعه المتجه إلى الجنوب دائـما: "من جهة موجود هو موجود، وزي ما خالتك سمسـمة قالتلـك، هو جه مع الكفار لما دخلـوا مصر أيام جدنا كاموس، هلبت ما شتمتني أنا وكاموس والكل كليلة؟"، باغتني السؤال فارتج عليَّ وقلت في عبط: "إيييي آه"، فضحك مجددا وقال: "الله يسامحك يا سماسيب"، فاجأت نفسي وقلت: "هو انتو كنتو بتحبو بعض؟"، لم أصدق أني ألقيت السؤال بهذا الغباء والمباشرة، ألهذه الدرجة أفقد السيطرة على فضولي؟ ورغم أني أجلس بجواره، إلا أني أجزم أني لمحت ومضة كتلك التي قفشتها في عين خالتي سمسمة، لكن سرعان ما أطفأها، وتبسم قائلا: "عارف يا جاد الله إيـه أكتر حاجة بتعجبني فيك؟ إنك دوغري مابتعرفش تلف وتدور"، لم أدرِ أهذه إجابة بالإيجاب أم النفي، واسـتطرد جدي: "عشـان كده بحب

أقعد معـاك"، قلت: "طب مـا تريحني وتحكيلي يا جـدي"، ناور معي في أريحيته المعروفة: "أحكيلك عن أنهي موضوع؟"، قلت: "الفجم.. أصل فيه ناس بتقول إنه شـبه التنين، وله تـلات رؤوس وبياكل البني آدمين"، ظل صامتا بـلا تعبير فقلت بلهجة الواثق العـالم: "كلام تخاريف طبعا"، التفت إلي بنظرة إشفاق وصدمني: "مين قال إنه تخريف؟"، ظللت فاغرًا فمـي، أيتكلم جد أم يلاعبني ويناورني فقلت: "بتتكلم جد يا جدي؟"، هز رأسـه إيجابا: "جد الجد"، وقبل أن أنهال عليه بسـيل أسئلة قال: "قوم نام الليلة في حضن أمك ونبقى نكمل كلامنا بعدين".

7

نزلت إلى أمي التي آلت على نفسها ألا تتركني إلا بعد أن تشبع مني وأمي مثل كل الأمهات لا تشبع، فتركت لها نفسي تزغطني وتدللني غير عابئة باعتراضات أبي وأجدادي: "افتح بقك يا جاد وبطل سرحان ع الأكل"، هكذا قالت أمي وهي تلقمني قطعة سمك في فمي وقد تحلقنا حول الطبلية الكبيرة التي لا تنصب إلا في العزايم والمناسبات، وقد دار الحديث حول الحادث الأليم الذي تعرضت له وكيف أن الله سلم ونجاني من الفجم! عجيبة تلك الناس! فرغم شرحي وحكيي وإيضاحي أني لم أتعرض لهجوم الفجم، وأن جروحي نتيجة سقوطي على الأرض، إلا أنهم يصرون على سرد الخرافة كأنها حقيقة واقعة، فيأست من إقناعهم بعكس ما يعتقدونه واستسلمت لتوابع ذلك الاعتقاد، إذ إن أهل القرية قرروا الاحتفال بي كبطل مغوار انتصر على الفجم، وهي مناسبة تستحق

الاحتفال، واحتفالات قريتنا كثيرة وصاخبة، فهم يحتفلون بكل المناسبات الاجتماعية والسياسية والدينية: "أنا كويتلك الجلابية الجديدة لاجل ماتبقى عريس عليه القيمة"، أخبرتني أمي بذلك وهي تلقمني قطعة سمك جديدة في فمي، ثم أضافت: "والعمة خلي أبوك ولا جدك يربطهالك، حكم أنا عارفة ربطتك تفك منك وسط الناس وتبقى فضيحة"، فقلت في محاولة أخيرة أعرف فشلها مقدما: "والله ما أنا عارف لزومه إيه التعب ده كله، الحكاية لا فيها بطولة ولا فجم ولا.."، قاطعني جدي الوسيط: "يعني مستكتر علينا نفرح يا وله؟"، أكد أبي على كلامه بهزة من رأسه؛ لأن فمه كان مشغولا بلوك آخر قطعة سمك، قبل أن ينفض يديه ويقوم قائلا: "الحمد لله"، فقامت أمي تساعده على غسيل يديه من الإبريق والسطل رغم وجود حنفيات في البيت! عجيبة أنتِ يا بلدنا! لماذا تبقين على كل قديم؟ لماذا تحفظين ما كان ولا تعيرين اهتماما لما سيكون!

المحافظة على القديم عادة وطقسًا وتقليدًا واتباعًا وعرفًا وعقيدة عند أهل قريتنا، فنحن لا نرمي شيئًا، فتحولت القرية إلى مخزن كبير للتاريخ، على الأسطح وفوق الدواليب وأسفل السرير ووراء الباب وخلف الكنب، وفي زوايا العقل وطيات الذاكرة نحفظ كراكيبنا، ففي كثير من البيوت تجد الصنابير الحديثة النيكل، وأيضا ستجد طلمبات المياة اليدوية والبئر، ستجد الفرن والبوتاجاز العصري، ستجد الثلاجة والزير، وإذا خرجت إلى الغيطان ستجد المحراث الحديث وأيضا ستجد النورج والفأس، ستجد وابور الطحين وأيضًا الرحاية، ستجد طلمبات الري الكهربائية، وأيضا

الشادوف والطنبور والساقية، ولو صعدت إلى الصحراء التي تحيط وادينا، ستجد تماثيل أجدادي العملاقة ومعابدهم، وتجد البيوت الحديثة بالطوب الأحمر والحديد المسلح مثل قريتنا التي تشوهت وبقينا مسخًا على رأي جدي الكبير، وإذا دخلت نفوس الناس ستجد الفطرة النقية والسرائر الشفافة، كما ستجد الأفكار الاستثمارية وأخلاق المستثمرين الحقيرة، وإذا دخلت عقولهم ستجد أحدث علوم الوراثة الجينية وأيضا الحجامة والفصد وكبس الجروح بالبن أو الطين، وترى أطفالنا يشاهدون أفلام الكرتون الأمريكية والصينية لكن يستمتعون أكثر بحواديت جداتنا الطيبات عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال وأمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة والشمامة! هكذا نعيش حاملين كم من التراث ينوء به أولي العزم من الأمم، نحن لا نرمي شيئا، نعيش الماضي كما لو كان حاضرا، نأخذ بالتطور ونحافظ على التخلف، ولكي نفعل ذلك أصبحنا نتقدم إلى الأمام ونحن مولون الظهور له.

"بنمشي لقدام واحنا باصين ورانا"، هكذا قال الواد حامد فنان القرية وهو يطلعني على صورة الفجم في دارهم الذي توجهت إليه بعد أن نامت أمي وباقي أهل البيت، وقفت أتأمل الصورة الجدارية التي رسمها على حائط حجرته لوحش تنيني ذي رؤوس ثلاث، أبشع منظر ممكن أن تراه لوجه مخلوق على الأرض أو في الخيال، فالأعين الميتة مثل أعين الثعابين والفم الواسع المليء بصفوف من الأنياب والقواطع، ولسان كما الكرباج يلعق السائل اللزج المنسال على الشفاة الحمراء، وأذنان أقرب للقرون الشيطانية يتوسطهما عرف مشعر بلون الدم وصدغ بارز جاف كأنه هيكل عظمي،

ثم رقبة طويلة مغطاة بالحراشف الخشنة، يتخللها زوائد مدببة كالسلك الشائك، أدرت ظهري للصورة وخرجت إلى الفناء الترابي أستنشق نسمات الليل، وأكملنا سهرتنا في مداولة لما سيحدث في الاحتفالية التي تقرر لها يوم الجمعة القادم، صارحته بمدى الحرج الذي أشعره لاضطراري أن أكذب على أهل القرية وأدعي بصدق رواية انتصاري على الفجم، لكن كان لحامد رأي آخر إذ قال: "عشان إحنا ماشيين بضهرنا بنشوف كل حاجة مقلوبة، فلو صممت تعدلهم الصورة حتبقى أنت الغلطان.. فهمت يا بهيم؟"، تفكرت في كلامه فوجدته منطقيا، ومع اقتراب الفجر توجهت لأصلي مع جدي الكبير وقد نويت أن أكون عريس الحفل قاهر الفجم.

صلينا الفجر خلف جدي الكبير، وما إن انتهت الصلاة حتى اتخذت موقعي عند قدميه، وظللت أرمقه كقط ينتظر من صاحبه أن يلقي إليه بلقمة، فتحولت ابتسامته إلى ضحكة وقد فهم مبتغاي فبادرني: "كنت بتسأل عن إيه؟"، قلت: "الفجم"، قال: "إنت مش شفته!"، فهمت سخريته فقلت: "أعمل إيه يا جدي بس! غلبت أفهمهم إني لا شفته ولا قابلته، لكن هم مصممين"، هز رأس الحكمة، وقال: "هاودهم يا ابني هاودهم.. الناس محتاجة أمل"، تعجبت لرده وكنت أظنه سيرفض ويلغي الاحتفال المزمع إقامته يوم الجمعة، وأستطرد: "الناس من خوفها من الفجم عايزة تنتصر عليه بأي وسيلة، حتى لو بالخيال"، وجدته كلامًا موزونًا، لكن هل يجدي أن تقضي على مصدر خوفك بالخيال؟ هز رأسه إيجابا قائلًا: "لولا الخيال ماكان الواقع جدودنا القدام بنوا حضارتهم عشان كان عندهم خيال، حلم،

رؤية، ويوم مابطلوا يحلموا ظهر الفجم"، هنا طرطقت أذني وجاهدت ألا أسرح وقد بدأ يحكي عـن الفجم فقال: "أنا مش دايما أقولك بحب فيك سرحانك؟ عارف ليه يا جاد الله؟ عشـان السرحان يعني التفكير والتدبر والتأمل، يعني تشوف اللي الناس مش شايفاه وتفهم اللي مش فاهمينه عشان كده أنا مطمن عليك من الفجم"، لم أسـمع ما قاله جدي بعد ذلك؛ لأني سرحت وراء خاطر عن لي، ماذا لو جدي كان مخرفا من المخرفين اللذين يملأون البلد؟ وخجلت من خاطري واعتذرت في سري لاستخدام لفظ مخرف، فأنا أبجل جدي، فهو حافظ للقرآن وفقيه في الدين، ويؤمن بالعلم والتقدم، ويتحدث ثلاث لغات بطلاقة، النوبية والإنجليزية والتركية، غير اللغة العربية ويجيد قراءة الهيروغليفية، وهو موسوعة تاريخية، أفقت على صوت جدي يقول: "عضني العضة الأولى في ذراعي، فجريت وطهرت الجرح، وصممت أني أنتصر عليه، وعشـان ده يحصل لازم معايا جيش، كنت لسه شاب عندي تلاتين سنة فقررت أعمل جيشي من ولادي"، حين وصل جدي لهذه النقطة كان غسـق الفجر يسـلم مفاتيح النهار للشمس المسـتيقظة، وشعرت أنه قد أجهد، فأشـفقت عليه حين لمحت في وجهه وصوتـه وهنًا نادرا ما تـراه، فجدي دائما قوي، فقمـت قائلا "مش تقوم تريح شوية يا جدي"، لم يرد وكأنه لم يسمعني، فانسحبت في هدوء.

8

أخذتني قدماي إلى بيت حامد مارا بطرقات القرية وقد تشاغل الكل عنـي ولم يعيروني إلا تحيات الصباح السريعة، وبعضهم ناداني بالعريس، فقد كانت القرية كلها مشغولة بالتحضير لاحتفالية يوم الجمعة، فالنسوة يطبخن والأطفال يساعدون الشباب في كنس ورش الشوارع، والرجال يهيئون الساحة القديمة، وهي منطقة خلاء خصصت للاحتفالات، فيقام فيها الأفراح والمآتم والأعياد والمناسـبات والاجتماعات العامة، يحضرها الكبير والصغير، حين وصلت لبيت الواد حامد وجدت خالتي أم حامد تخبز، فاسـتقبلتني هاشـة باشـة: "يا صباح الخير يا عريس"، وسألت عن حامد فأخبرتني أنه في الغيط، فاتجهت إليه، وما إن وصلت وجلت بنظري أبحث عنه حتى وجدته نائمًا عـلى طرف القناية، وكان منكبًّا على وجهه، فصرخت فيه صرخة تفزع العفريت، لكن حامد لم يتحرك، سـاورني قلق

ما واقتربت منه أفحصه فلمحت سرسوب دم ينساب من مؤخرته ويلوث سرواله، فأسرعت أعدله ملهوفا صائحا "حامد".

ظللت أصرخ مناديا حامد الواهن وقد شارف الموت، واستحال لونه الأبنوسي إلى رمادي غامق وقد فارقته لمعة الحياة، وفجأة تذكرت أني طبيب، فأمسكت برسغه أقيس النبض، فوجدته بطيئا ثقيلا متباعدا، ونفسه لا يكاد يلحظ، لقد نزفت كثيرا يا صديقي، بسرعة قمت إلى جلبابه المعلق على فرع شجرة وكورته صانعا وسادة وضعتها أسفل صدغه وقد قلبته على وجهه توطئة للكشف على الشرج لولا أن جاءني صوت من خلفي متسائلا: "فيه إيه يا جاد؟"، وجدت بتول بنت عم بسطاويسي حفيدة عمي دهب تقترب على حمارها المزركش، فحملت حامد وهو خف الريشة ووضعته على ظهر الحمار مقلوبا على وجهه، وأسرعنا إلى القرية وفي لهفتي وأنا أجري أشد الحمار ليسرع وبجواري بتول، لم ألحظ أنها تمسك بيد حامد تدلكها له، لكني لحظت تلك النظرة القلقة المشفقة في عينيها، فقلت مهونا عليها: "ماتقلقيش، إن شاء الله خير"، في الحقيقة أنا أواسي نفسي وأمنيها بأنه خير لكن ما أراه بعين العلم يقول عكس ذلك تماما، وأن حامد محتاج معجزة لترد فيه الروح، وقادت هي الحمار وأنا خلفهم أجري ممسكا بحامد حتى لا يقع، تحركت بتول بقوة وعنفوان وسرعة لا يتناسبان مع حجمها الضخم، فبتول هي أضخم فتاة في القرية، وأقوى من عشرة شباب مجتمعين، والجميع يتحاشون الصدام معها نظرا لقوتها وشراستها في القتال، سواء قتال شفهي، أو قتال بالأذرع واللكمات والأظافر والأسنان، والكل يتعامل معها أنها فتاة

سـخطها الله رجلا أو رجل مسخه الله فتاة، وقد شارفنا دار عمي دهب، ولمحتنا هجلة أخت بتول، فما إن رأت حامد مسجى كالزكيبة فوق الحمار مسربلا بالدم، حتى أطلقت صويتة عاليه طويلة حادة "يا خراااااابي" مادة ذراعيها لأعلى على طولهما، وما هي إلا لحظات حتى رددت النسوة الصويتة بنفس النغمة والطول والحدة، وانتشر الصويت منتقلا من دار عمي دهب إلى باقي القرية يلفها بكاملها معلنا حالة الطوارئ، وأسرعت بتول تحمل حامد على ذراعيها إلى جدها عم دهب الذي نظر إليَّ مرحبا: "أهلا يا جاد خير؟"، قلت وأنفاسي متقطعة: "الواد حامد بيفرفر يا عمي وجايب دم من دبره"، فقال في هدوء العلماء: "ومالك مخضوض كده، لاهي أول نوبة!"، وقفت مشدوها لكني أجلت اندهاشي حتى أطمئن: "هو عنده إيه؟"، قال وهو يغسل يديه في الطست الذي أحضرته بتول وراحت هجلة تصب له الماء: "حيكون إيه.. الفجم عقره".

"يا نهار اسـود ومنيل على التخلـف"، هكذا أسررت لنفسي وعمي دهب وهجلة وبتول يؤكدون أن الفجم عقر حامد، وسرحت في سـؤال حيرني أأترك هؤلاء الجهلة يعالجون صديقي، أم أتدخل بعلمي لإنقاذه؟ لكن كيف الإنقاذ وليس تحت يدي أي مسـاعدات أو أجهزة كشـف أو معمل تحاليل؟ واكتشـفت أني عاجز، ليس فقط لنقص الإمكانات، لكن لهفتي على أخي حامد غشت تفكيري وشلت ذهني فعطلت علمي ونسيت دراستي، وأثناء سرحاني كانت الفتاتان هجلة وبتول قد أحضرتا صندوق كبير وضعتاه أمام عمي، ففتحه فإذا به مليء بالقوارير الملونة والزجاجات،

وانشغلت هجلة برص قطع القماش النظيف المقطع لشرائح، وراحت بتول تطحن عشبًا ما في هون خشبي، وانشغل عمي دهب في خلط مزيج مقطر من مواد لها رائحة نفاذة، ثم مستخدما قمع بدائي وضع من السائل في زجاجة صغيرة، وظل يرجها بقوة مقتربا من حامد مناديا بتول التي قبضت على فك حامد وفشخته، فراح يصب من المحلول في فم حامد حتى انتهى، وبيد مدربة أغلقت بتول الفك وظلت ضاغطة عليه بقوة كلابتين من حديد، وفهمت لماذا تطبق عليه تلك القبضة بعد لحظات، فما إن استقر المحلول في جوف صاحبي، حتى انتفض وحاول إخراج ما بلعه، لكن هيهات، فقوة هجلة لا يقهرها أعتى الرجال، فما بالك بالمسكين حامد! ومرت لحظات أخرى خلتها دهرا، وبدأ حامد يستقر وبدأت ألمح مادة الحياة تعود ببطء وتدريج إلى الوجه المغمض العينين، ثم بربش وتحركت مقلتاه تحت الجفون، فساورني أمل واقتربت، وببطء فتح عينيه، فابتسمت، لكن عمي دهب أمره أن يظل راقدا ولا يتحرك لمدة ساعة على الأقل ولم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال: "هو إيه اللي حصله يا عمي؟"، نظر لي وهو يعيد القوارير إلى الصندوق وبلهجة تهكمية قال: "بلهارسيا.. خدتوها في الكلية دي؟"، تغاضيت عن سخريته؛ لأني فعلا طلعت حمار، ففي لحظة الضغط العصبي والانفعال العاطفي نسيت علمي بمبادئ التشخيص وأعراض الأمراض، وأفقت من سرحاني على صوت ضوضاء أهل القرية الذين تركوا ما في يدهم وأسرعوا إلى مصدر الصوات ليطمأنوا على حامد.. ما أجمل ناس قريتنا وما أطيبهم، فقد توافدوا إلى دار عمي دهب في جموع مثل

التي اجتمعت لدى سماع معركتي مع الفجم، وقال قائل: "الفجم عقر حامد تاني، بس ربنا سلم"، كدت أجن من جهلهم، وددت أن أصيح فيهم "فجم إيه يا بهايم! دي بلهارسيا"، بقوتها الجبارة ومساعدة أختها هجلة تصدت بتول لجموع الزائرين الملهوفين المخضوضين راغبي الاطمئنان على ابنهم حامد، في حين وقف عمي دهب خلف بناته مستندا إلى عصاه التي تشبه عصا جدي وعصا خالتي سمسمة، فالمعمرون في قريتنا فقط مسموح لهم حمل هذا النوع من العصي، وهو من نوع فاخر من الأخشاب، زاد الضغط على هجلة وبتول من قلوب مخلوعة خاصة النسوة، وكلهم يقسمون أنهم سيطلون عليه فقط والفتاتان تردان: "جدي مانع الزيارة"، فلا تيأس المرأة أو الرجل، فيقول: "يعني ماطمنش على ضنايا"، أو "دانا عمه"، أو "دا أبوه الله يرحمه موصيني عليه"، ما هذا الزخم من المشاعر الصادقة! لم يأتِ واحد منهم لتأدية واجب أو إثبات حضور أو تملق، فالاطمئنان على بعضنا البعض ليس واجبًا يُقضى، بل هو جزء من تركيبتنا الجينية لا تجدها إلا في قريتنا.

حين اشتد الضغط على البنات وبدأت النسوة تنتحب، والرجال يضربون كفًّا بكف "لاحول ولا قوة إلا بالله"، تتبعها نهنهة خفيفة، نعم رجال قريتنا يبكون لكن في وقار، وهي دموع حقيقية ليست تمثيلًا أو استعطافًا، مما يزيد نحيب النسوة فيتحول إلى عويل، ثم إلى ندب، وإذا تطور يصير إهالة التراب على أم الرأس مصحوب بصوات الحرقة، وصوات الحرقة غير صوات الفرقة غير صوات الألم غير صوات العراك، فكما أنَّ للزغاريد

أنواعًا واستخدامات كذلك الصوات، لكن قبل أن يصل الحال إلى درجة الانهيار وصلت أم حامد، فسمحت لها البنات بالدخول، وتحرك عمي دهب مستقبلًا أم حامد مطمئنها: "ماتتخضيش هو بخير"، والتفت عمي دهب إلى الجموع المنتحبة ورفع عصاه، وكعصا موسى التقفت كل الأحزان والأوجاع والدموع، وعم صمت جليل توقيرا للشيخ المعمر عمنا دهب، وتوقيرا للعصا التي إذا رفعها أي معمر تصمت الأفواه وتطرق الآذان، وبصوت جهوري كأنه من بئر عمقه ألف سنة قال: "من الحب ما قتل"، فرأيت السحر بعيني وهم يطرقون الوجوه ويهزون الرؤوس، وفي هدوء يستديرون منصرفين! ما هذه القوة؟ ما هذه السيطرة؟ ثم ما هذه الحكمة؟ تبعت عمي دهب والبنات داخلون إلى حيث وجدنا حامد في حضن أمه المبتسمة، وقامت لدى دخول عمي دهب شاكرة حامدة، فأجلسها نافيا الفضل عن نفسه ومرجعه إلى صاحب الفضل.. الرب ذي البركة، ثم إلى سرعة تحركي ورعاية الرب التي أوجدت بتول بحمارها في ذلك التوقيت، ونفى كل منا الفضل عن نفسه وأرجعناه إلى صاحب الفضل، الله سبحانه وتعالى أو الرب، واقترح عمي دهب أن نصلي صلاة شكر للرب على إنقاذ ابننا حامد من الفجم، فقمت وتوضأت وسجدت ركعتين شكر لله وقد صلى ورائي حامد وأمه، أما عمي دهب فقد أخرج الصليب العتيق من صوانه وركع وخلفه البنات ضامين الأكف أسفل الذقن في خشوع يصلون للرب أن يحمينا من الفجم.

عدت إلى جدي بعد صلاة الفجر، فقد سهرنا أنا وبتول وأم حامد بجواره

نتناوب تغيير كمادات الخل والماء على جبينه لخفض درجة الحرارة، وتولت هجلة سأسأة المحلول ودهن المراهم وكل أعمال التمريض ووجدتني أرقبها بإعجاب، كيف تتعامل مع شرائح القماش فردا وتطبيقا ولفًّا وربطًا، كيف تنظف بدقة وعناية الشرج، وتسحب الفتيل الملوث، وتضع غيره نظيف، ثم كيف تعفقه من خلف كتفه وترفعه لتسقيه الدواء، ومع الخيوط الأولى من الفجر استقرت حالته ونام، فقمت مستأذنا وأسرعت إلى بيتنا لعلي ألحق بجدي على السطح، وصلت مع انتهاء اجتماع الصباح وطمأنتهم على حامد، واتخذت مجلسي تحت قدمي جدي، فبادرني: "انت ناوي تشتغل فين بعد ما تتخرج؟"، وضعني أمام السؤال الذي أؤجله من يوم ليوم ومن سنة لسنة، فقلت متهربا: "إحنا فين والتخرج فين يا جدي، لسه الماجستير والدكتوراه عشان أقدر.."، قاطعني من جديد: "وهي الشهادات دي لازمة لجل ما تتعلم زيادة؟"، هززت كتفي وقلت: "ضرورية عشان أمارس"، فأعاد صياغة السؤال: "يعني من غيرها ماتقدرش تعالج؟"، هززت رأسي نفيا، هز رأسه يأسا وغمغم: "اللي حط القانون ده معقور من الفجم هو راخر"، ثم غير مجرى الحديث، ورحنا نتباحث في برنامج يوم الجمعة: "يا نهار أسود ده بكره"، صحت وقد سرقتني الأحداث فنسيت، وقال جدي: "حتعمل إيه؟"، قلت: "ولا حاجة حبقى عريس"، قال: "مش حيسيبوك إلا لو حكيتلهم بالتفصيل ع اللي حصل"، قلت ضاحكا: "ما انت عارف إنه ما حصلش حاجة"، قال وهو يقوم معلنا انتهاء الجلسة: "لأ حصل.. فكر كده الفجم هاجمك منين وإزاي وإمتى وفين، حتلاقي إنه حصل".

9

هبطت إلى شقتنا وأنا أفكر في كلمة جدي، فهي لا تعني إلا أنه يريدني أن أصدق بوجود الفجم عن طريق ترديد الكذبة لنفسي، ثم أحكيها لأناس عطشى لأي أسطورة، ودخلت سريري في محاولة للنوم بعد تطبيقة يومين، وبـدأت أراجع كل معتقداتي وتراثي وتاريخي بل تاريخ قريتنا، أليس من المحتمل، بل هو الأرجح أن كل هذا التاريخ والموروث الشعبي والتراث العتيد، ما هو إلا مجموعة أساطير؟ مجموعة أكاذيب احتاجها الناس فحكوها ونشروها وآمنوا بها؟ والناس في قريتنا حين يتناقلون شيئا يبدأ بخبر ويكبر إلى موضوع ثم حكاية فحدوتـة، ويخرجون منها بحكمة أو مثل، وأنا في سرحاني هذا سمعت صوت خشخشة خلف الشيش المغلق، فتصنت برهة لكن الصوت اختفى، ثم تكرر من جديد، فرفعت رأسي مستطلعا ومرهفا السمع، فتكرر الصوت بوضوح، فقمت جالسا على ركبتي، ومددت يدي

إلى شـنكل الشـيش الملاصق لسريري وفتحته مسـتطلعا، وما إن فتحت فرجة صغيرة من الشـيش، حتـى هبت ريح متربة حـارة ملهبة مفاجئة، مصحوبة برائحة كريهة نفاذة، فأسرعت لغلق الشـيش مشـمئزًا، نصف مغمض العينين اتقاء للغبار والسخونة الشديدة، لكنَّ شيئا صلبا حال دون إغلاق الشيش، وحين حاولت أن أتبين كُنْهَ هذا الجسم الصلب، وجدته مخلبًا أسـود في حجم مخلب الـرخ، ففزعت ما هذا! وقبـل أن يتم فزعي تحرك المخلب الحاد وفتح الشيش بقوة حتى خلعه وهجم عليَّ من الشباك جسم ضخم لم أتبين ملامحه بدقة، لكن حجمه كان أكبر من الشباك، لذلك اسـتغرق ثواني ليدلف إلى الحجرة، كانت كافية لأقفز بعيدا صوب الباب صارخا في فزع، لكنه فرد جناحه الخفاشي وسد عليَّ الباب، وراح يتخبط بحجمه الضخم في ضربات عشوائية حولي، وكرد فعل تلقائي انكمشت في ركـن الغرفة، وهدأت حركة الوحش المرعب وضم جناحية، وفتحت ركن صغـير من عيني؛ كي أرى ما يحدث، فرأيته أمامي وجها لوجه، إنه الفجم أبشـع من التنين وأكبر من الجاموسـة، وله جناحان مثل الخفاش، ويقوم على سـاقين قويتين يغطيهما ريش خشن وجلد مجعد، وفي كل قدم مخلبان في حدة السكين، وحين تجرأت ورفعت بصري لأعلى قليلا، رأيت الجسم المدهن يتفرع إلى ثلاث رقاب ثعبانية، تغطيها حراشف تشبه صدف السمك لها نهايات مدببة، وأعلى كل رقبة رأس هي رؤوس الشياطين بل ألعـن، فبَشْرَتُه أقرب ما تكون إلى المجزومين، جلد سـميك تنافرت كتله وكثـرت نتوءاته كأنهـا مجموعة دمامل كبيرة، وفم والعياذ بالله أشـبه بفم

التمساح وصفان من الأنياب البارزة، ولسان مشقوق مدبب يتلوى باحثا عني حتى وجدني.. فبدأ يزحـف ناحيتي، لكنه توقف حين انفتح الباب فجأة عن أمي التي صرخت لرؤيته وألقت بنفسها فوقي لتحميني فعقرها في كتفهـا، فصرخت تحثني: "اهرب يا جـاد.. قوم يا جاد.. قوم يا جاد"، ففتحت عيني لأجد أمي توقظني من كابوسي باسمة، وناولتني كوب لبن باردًا جرعته في عطش، فقالت: "مالك يا وله جالك كابوس ولا إيه؟".

رغم استيقاظي وإفاقتي تماما بعد الحمام البارد الذي أخذته، إلا أن أثر الكابوس المرعب الذي رأيته ما زال عالقا بروحي، وتوجهت إلى الجامع لأصلي الجمعة مع باقي القرية، وما إن انتهت الصلاة حتى قام الإمام ناظرا ومشيرا ناحيتي: "النهاردة بعد صلاة المغرب بمشيئة الله حنحتفل بالبطل بتاعنـا العريس جاد الله بـن آدم، وجدنا الكبير أمـر إن الصلاة جماعة في الساحة القديمة موقع الاحتفال عشان كل البلد تصلي سوا ستات ورجالة وعيـال، والحاضر يعلم الغايب"، ما إن أنهى الإمام إعلانه، حتى انهالت الأكف على أكتافي وظهري وقفاي مهنئين بالمنصب واللقب، "مش فاهم إيه علاقـة الضرب بالتهنئة"، هكذا أسررت لنفـسي وأنا أتلقى صفعات الرجـال، فهربت إلى سرحاني في حالهم، هـؤلاء المخدوعون في بطولات زائفة، أهذا تراثنا؟ أهذا تاريخنا؟ أهذا عيشنا؟ أكاذيب تلد أكاذيب وأساطير تلد أساطير؟ وانتابتني نوبة غضب، أنا رجل علم فلن أسلم عقلي لجموع الجهال بما فيهم جدي الكبير، يجب أن أثبت للجميع أن الفجم ما هو إلا خرافة، ابتدعوها ليعلقوا عليها كسلهم وتراخيهم واستسلامهم، يعلقوا

عليها فقرهم وجهلهم ومرضهم، وسألت نفسي السؤال المهم، ما الخطوة التالية؟ فلم يبقَ على الاحتفال سوى ساعات العصر، فقررت الاستعانة بصديقي المريض حامد، فتوجهت من فوري إلى دار عمي دهب متجنبا الطرقات حتى لا ينالني مزيد من التهاني على قفاي، وحتى أهدأ وأرتب أفكاري وخطة هجومي درت حول القرية مخترقا المزارع، لكن ما إن أصبحت في الخلاء وحيدا، حتى سمعت فحيحًا وصوت خشخشة وشيء يتحرك بين عيدان القصب! ورائحة نتنة كتلك التي شممتها في الكابوس، فجمد الدم في عروقي.

رغم خوفي، ظل جزء من عقلي واعيًا ومركزًا، ورحت أردد بصوت مسموع "أنا مش نايم" وعبارات تشدني من ظلام الخوف إلى نور الثقة بالنفس، لم أنكمش وقررت المواجهة مهما كانت النتائج، والغريب أن خوفي تراجع حين تفاءلت بهذا اللقاء الغير مدبر المفاجئ المقتحم المهاجم المحاصر تفاءلت لأني حسمت السؤال، إنه موجود، ويبدو أن الراحة التي انتابتني لمعرفة الحقيقة تغلبت وسبقت وجبت شلل الخوف، فبدأ عقلي العلمي يعمل بوضوح، واستخدمت كمية الأدرينالين التي أفرزها جسمي في التحرك السريع والتفكير الفوري، فطالما هو يتخفى ويتحرك دائما من خلف حاجز قبل أن يهجم فيصيب ضحيته بشلل الخوف، فالأرجح أنه سيهدأ حتى أطمئن فينقض عليَّ ويفترسني، وتفتق ذهني عن مغامرة تفسد عليه خطوته، قررت أن أهاجمه وبسرعة التقطت وتد الحديد الذي يحدد حد القيد فصار لي سيفا، وظللت أتحرك بمحاذاة غيط القصب بسرعة عالية،

وهـو يسرع أيضا ليسـبقني، إذنْ هو ينوي أن يفاجئنـي قبل نهاية الغيط، فزدت من سرعتـي وعدوت عدو العدّائين المحترفـين، وفجأة انحرفت داخلا الغيط أمامه وهو يقترب ناحيتي فوقفت أنتظره في بقعة مكشـوفة، فُوجـئ بي في انتظاره، وقبل أن يتدارك نفسـه ويفيق من المفاجأة هجمت عليه صارخا رافعا سـيفي وضربته ضربة جندلته، فتضافرت قوة الضربة مع هول المفاجأة فسقط متكعبلا في نفسه، وساعدت ضخامة جسمه على قوة سـقوطه، فانقضضت من جديد وعالجته بثانيـة وثالثة حتى فصلت الـرأس، وكما ظهـر فجأة اختفى فجـأة.. لاذ بالفـرار، فالتقطت الرأس المقطوعة وبدأت أكمل سيري تجاه دار عمي دهب، سرت خفيفا متقافزا في رشـاقة لا تتناسب مع حالتي المقندلة التي صرت إليها، لكني كنت في منتهى السـعادة والنشـاط، إنها طاقة النصر، طاقة إيجابية سربلت كياني، وفرحـة عارمة ليس فقط لانتصاري على الفجم بـل لأني لدي ما أحكيه لأهل قريتنا دون كذب.

لاقتنـي هجلة: "يا لهوي يا جاد! إيه اللي جرالك؟"، لم أعرها اهتماما، ودخلت في خيلاء وألقيت السيف والرأس المقطوع تحت قدمي حامد، تلفتوا حائرين بيني وبين ما ألقيت، فتوجهت إلى أقرب مقعد وجلست منجعصا جعصة الفاتحين المنتصرين ووجهت كلامي إلى حامد: "خدتلك تارك"، لم يفهم ولم يستوعبوا وظلوا ينقلون البصر بيني وبين السيف والرأس، فقلت: "راس الفجم.. طلعلي من القصب"، ورحت أحكي لهم تفاصيل الموقعة بيني وبين الوحش، وحين انتهيت ظلوا مسهمين فأصابوني بالارتباك، ولمست

في نظراتهم شَـكًّا فأشرت إلى الرأس المقطوع والسـيف الملوث: "الدليل أهـو قدامكم"، كانت بتول أول المتحركين، إذ أمسـكت الرأس ونظرت إليَّ سـاخرة: "ودي بقى عايزني أسـلقهالك ولا أشفيهالك م العضم؟"، لم أفهم ونقلت بصري بينهم، أشـاح حامد ببصره وخفرت هجلة عينيها كمن يهربان من نظراتي الحائرة، فازداد إبهامي لردة فعلهم! وتحولت حيرتي إلى غضب فصحت مقطبا: "مالكو!"، صاحت بتول: "إنت جايبلنا راس خروف وبتقول انه الفجم؟"، "راس خروف!" صحت متعجبا، وقبل أن تـرد قام عمي دهب خارجا آمرا: "تعالى يا جاد أنا عايزك"، فقمت خلفه وأنـا في قمة الحـيرة والاضطراب خرجنا إلى السـاحة الخلفية للدار وبدأ يشـعل الكانون الصغير ليصنع الشاي، ظللت صامتا حتى نطق: "شوف يا جاد، الفجم يتشاف بالبصيرة مش بالبصر، ويتحس بالرؤيا مش بالنظر، ويتحارب بالعقل والحكمة مش بالسيف". رغم وضوح كلامه إلا أنه أُغلق عليَّ فهمه، فقلت: "يعني إيه؟"، قال: "اللي انت شفته واتعاركت معاه ده كان في راسـك انت"، تعجبـت لقوله، فهتفت مدافعـا: "والدم والراس والسيف وهدومي المتقطعة والجروح ال..."، قاطعني في رفق: "تهيؤات.. كلها تهيؤات"، كدت أجن، فقمت منفعلا على غير عادتي: "كلام إيه ده يا عمي؟ تهيؤات إزاي وأنا شايفه ولامسه و.."، راح يصب الشاي آمرا في حزم: "اقعد واشرب الشاي"، فانصعت للأمر، وبعد الرشفة الثالثة بدأت أهدأ فاستطرد قائلا: "اللي حصل ده خير.. ما دام شفته ولمسته يبقى عرفته.. الفجم يا بني عاقر كل سكان البلد بما فيهم إحنا، جدك الكبير وسمسمة

وانا وكل البلد حتى انت، لكن اللي شـافوه ولمسـوه زيك قليلين"، رحنا نرشـف الشاي الذي زاد من روقان دمي وهو يقص عليَّ لقاءه مع الفجم الذي شابه لقائي إلا في بعض التفاصيل، وكيف قطع له رأسًا وألقاه أمام الجميع، لكن اتضح أنها رأس جاموسة فيما بعد، وقد رأى الحقيقة بعد أن عالجه جده بنوع من العطارة خلطها بالشاي مثل تلك التي أجرعها الآن وأسرعت بوضع الكوب كأنه مسـموم وأنا بـين اليقظة والمنام، فضحك هاتفا: "ماتتخضش، ده مهدئ يجلي النفس، ماتسمعوش عنه انتو يا بتوع الطب الحديث"، ثم قام ساحبا إياي من يدي عائدين إلى الحجرة، فوجدت الرأس والسيف مكانهما، لكن لعجبي كانت رأس خروف.

10

في الساحة القديمة وقف الشيخ منصور يرفع آذان المغرب، فاصطف المسـلمون خلف جدي الكبير إماما، كما اصطف المسـيحيون وراء عمي دهب، وصلينا كل صلاته، وبعد السلام راح جدي يدعو بصوته الجهوري، كذلك فعل عمي دهب، قال جدي: "يا رب يا خالق الكون سـبحانك يا علي يا قدير"، وقال عمي دهب: "أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك"، قال جدي: "يا قادر يا مدبر الملكوت"، وقال عمي: "ليأتي ملكوتك، لتكن مشـيئتك كما في السـماء كذلك في الأرض"، "يا حنان يا منان يا عاطي يا وهاب"، "أعطنا اليوم خبزنا كفافنا"، "يا رزاق ارزقنا"، "واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا"، "ربنا لا تؤاخذنا إن نسـينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كـما حملته على اللذين من قبلنا، ربنا ولاتحملنا مالا طاقـة لنا به"، "ولاتدخلنا في التجربة"، "واعـفُ عنا واغفر لنا وارحمنا"،

"لكن نجنا من الشرير"، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"، "لك الملـك والقوة والمجد إلى الأبد". وفي صوت واحد وقلب واحد ولسـان واحد وإيقاع واحد هتف الجميع آآآآمين، وبانتهاء الصلاة تفرقت الصفوف واختلط الناس وتحلقوا في حلقات، ودارت صواني الشاي والجنزبيل يحملها الغلمان والفتيات، ودعاني جدي لأجالسـه في مجلس الكبار، وهي مكانة عالية وشرف لا يناله إلا ذو حظوة، وكانت تضم جدي وعمي دهب وباقي المعمريـن من أهل القرية، كلهم يحملون العصي المصقولة إلا أنا، وبدأت صواني الطعام تفد على دفعات، وهي مباراة في الطهي والطبخ والتسبيك والقلي والتحمير والتتبيل والشوي، قامت بها نسوة القرية على مدار الأيام الثلاثة الماضية، ومع كل صينية تُوضع يعلن الغلام أو الفتاة عن مصدرها كأن يقول: "دي فتة خالتي فلانة أو دي ويكا عمتي علانة"، واكتشفت أني كنت جوعان لدرجة الهفتان، فلم أكتفِ بملعقة واحدة، بل اسـتخدمت ملعقتين في آن واحد، وحانت مني التفاتة فلمحت الواد حامد زانق البت بتول الجبارة، أو بالأصح هي التي زنقته في عامود السـقيفة وقد اغرورقا في الضحك، فشـممت رائحة جديدة سـوف أسـأله عنها حين أنفرد به، وقد استغرقت عملية العشاء حوالي الساعة ذقت فيها ما لذ وطاب حتى مرحلة التخمة، وجاء دور الشـاي والقهـوة لزوم الهضم، وما إن فرغت مـن كوبي الثاني، حتى مال عليَّ جدي وقال: "يالا"، رغم علمي بمقصده إلا أني اسـتهبلت وقلت: "يالا إيه؟"، قـال دافعا إياي لأقف: "قوم فز يا وله ماتستهبلش". لقد حان وقت الامتحان، والرهبة التي انتابتني لم تكن

من مواجهة الجماهير فكلهم أهلي وعائلتي، لكني وجدت نفسي في موقف هاملتي، أكون أو لا أكون، أكون صادقا وأقص الحقيقة أم أكذب وأقص الخرافة؟ كان الجميع ينتظرون تلك اللحظة، فعم صمت ثقيل لف المكان، اختفت الهمهمات والضحكات وأصوات شفط الشاي، حتى أصوات نقيق الضفادع وصرصور الليل توقفت، كذلك جمدت أوراق الشجر عن الحفيف، كأن الطبيعة تتحالف معهم لإحراجي، فتوجهت إلى وسط الساحة والأعين ترقبني بابتسامات مشجعة وأعين آملة وأذان مشحوذة لسماع مغامراتي مع الفجم.

مرت اللحظات الأولى طويلة، أبحث فيها عن أفضل نقطة لأستهل الحكي.. دائما البدايات صعبة، ونظرت إلى جدي أستنجد به أن يسعفني، لكنه كان مبتسمًا في فخر، فبحثت عن حامد عله يأخذ بيدي، لكنه زاد الطين بلة حين صاح: "ما تسيبش فتفوتة إلا تحكيها"، "آه ياواطي"، هكذا أبلغته بنظراتي، فقهقه عاليا ضاربا كفًّا مع بتول الجبارة، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وقلت بصوت متقطع هفتان صدمان عدمان: "الحكاية مش مستاهلة، الفجم موجود"، هكذا استهللت كلامي كأني أؤكد لنفسي أولا، "شفته أنا وحامد أول نوبة من كام يوم.. طلعلنا من غيطان الدرة ورا القهوة"، فأمن الأطفال السبعة على كلامي: "أيوة إحنا شفناكو"، فأعطاني ذلك شحنة دافعة، فأكملت وقد صار صوتي أوضح: "حجمه أكبر من الجمل، وشكله ولا الشيطان"، دارت بسملات واستعاذات بين الحضور اللذين أسلموا لي أعينهم وعقولهم: "صوته شبه شخار الحمار وهو بيطلع

في الروح، هجم علينا فجأة"، وبدأت الأعناق تشرئب: "قام حامد صرخ إجـري يا جاد الفجم ورانا"، هنا زاد شـوقهم فصاحـوا: "ها"، "بصيت ورايا لقيت بسـم الله الحفيظ راسـه عند كتفي"، "ها"، "حامد شـدني من دراعـي يبعدني عنه"، "ها"، ودون أن أدري خلقـت إيقاعًا بيني وبينهم، أنا أقول جملة وهم يقولون ها، وكلما سـخن الحكـي، كلما ارتفعت نغمة الها، ورحت أحكي عن تفاصيل لم تحدث عن شجاعة حامد التي ألهمتني القوة، فوقفت أواجه الوحش بفرع شـجرة، وحامد يدفع عني رؤوسـه الأخرى حتى فر هاربا، كان الشـغف والمتعـة والإثارة قد أكلت عقولهم البسـيطة وملأت قلوبهم الطيبة وبلغت بهم النشـوة كل مبلغ، وأنا أختم الحكاية الكاذبة بانتصارنا على الفجم، فضج الحضور بالتصفيق وانهالت عليَّ الدعوات بالفتح والنصر، ونظرت إلى جدي استطلع رأيه، فهز لي رأسه مباركا، وهممت أن أنصرف وقد أنهيت المهمة الثقيلة بنجاح ساحق، لكنهم تصايحوا مطالبين بحكاية اليوم التي سمعوا عنها، وصاح حامد: "إحكيلنا موقعة القصب، أظن دي بقى كنت فيها بطولك"، "آه ياواطي"، أمام إلحاح الجماهير وتصفيقهم ورجاء الصغار وشغف الكبار، ولا أخفيكم سرا إذا قلت أني اسـتمتعت بالحكي والسرد وقيادة العقول والأعين، استمتعت بشـهقات الفزع عند المواقف الصعبة، وزفرات الراحة عند النجاة منها، وبحلقة الأعين وبلع الريق في الأزمات، استمتعت بالاستحواذ والسيطرة، فرحت أحكي موقعة القصب وأضيف إليها وأنقحها، واندمجت لدرجة أني صدقت نفسي فصدقوني، فكنت أميل فيميلوا، وألتفت فيلتفتوا، لقد صاروا

ملك يدي وطوع إشـارتي فإذا زعقت ينكمشون، وإذا همست يشرئبون، حتى أنهيت الحكاية وأنا في قمة السعادة وأنا أراهم يهجمون عليَّ يقبلونني ويربتون عليَّ ويتمسحون تمسح المتباركين بملامستي، ووسط هذا الخضم من النشوة انفجر صوت من أول الساحة: "إنتو بلد عايزة الحرق"، التفت الجميع إلى مصدر الصوت، فإذا هي خالتي سمسـمة، وقد وقفت ممسكة بعصاها المصقولة، ثم تقدمت مخترقة الصفوف التي أوسعت لها سكة، وحين توسـطت الساحة وجهت كلامها إلى جدي: "إنت بتعلم الواد الكدب يا آدم؟ مش بقولك كبرت وخرفت".

تتجلى الحكمة في المواقف الصعبة، ولا أصعب من ذلك الموقف الذي وجد فيه جدي نفسه، فقد ألقت خالتي سمسمة قنبلتها العنقودية متعددة الانفجـارات، فلم تقف عند حد السـباب والتعدي عـلى كبير البلد، بل اندارت إلى الناس تشملهم بسبابها ولعناتها بدءا من يا شوية بهايم يا قطيع مـواشي، وانتهاءً بانتو بني آدمين انتـو؟! وأفقت من سرحاني على خالتي نجيـة تهجم عليَّ صارخة: "انت اللي قتلت كبشي؟"، يا ليلة سـوخة! لقد فضحتني خالتي سمسـمة، وثار الناس عليها لتطاولها على جدي الكبير، كنت مركزًا مع جدي الذي ظل صامتا وسط الحابل الذي اختلط بالنابل، فخالتي سمسمة تزعق وتسب، والناس بين ثائر ضدها يزعق بأعلى صوته ليكفها عن تطاولها، وبين متسائل عن الحقيقة، وآخرون تولوا مهمة تهدئة الجميـع عن طريق الصريخ فيهم ليهدأوا! وخالتي نجية تزعق فيَّ مولولة على كبشـها اللي اندبح، وقد أدى هذا الموقف المشـتعل المتشابك إلى توتر

أعصاب الفتيات الرقيقات فانفجرن باكيات، فانضمت مجاميع الشباب لتهدئتهن بمزيد من الجعير، ووجدها الأطفال فرصة لا تعوض، فراحوا يجرون وسط الأجسام الكبيرة المتناحرة المتقلبة المتدافعة يقلدون الكبار في صريخهم بأصواتهم المسرسعة يصرخون بدورهم، حتى الكلاب راحت تنبح مشاركة البشر في جنونهم، ووسط هذا الزخم من الفوضى واللامعقول وجدت بتول الجبارة توليني ظهرها وتقف أمامي كحائط صد في مواجهة خالتي نجية، ثم وجدت يدًا تسحبني، فانسحبت مع اليد المعروقة كعود حطب ينتشل قطعة لحم سقطت في أتون النار، وما إن ابتعدنا بمسافة آمنة، حتى وجدت حامد يضحك قائلا: "مش حنعرف نتفرج من هنا"، وسحبني إلى كوم زبالة مرتفع من الأكوام التي تحيط بالساحة وفوق نصف تمثال أثري تسلقناه أنا وحامد، ومن تلك البقعة المرتفعة رصدنا المشهد، كانت الساحة أشبه ببقعة مشتعلة ضوءا وصريخا وتشويحا وسط عتمة الليل المحيط، وحانت مني التفاتة لوجه حامد فوجدته مبتسما في سعادة بالغة، ثم تركني فجأة وقفز مخرجا من جيبه صباع فحم ووجد ضالته في جدار حائط منزل عمي حجاج، وفي خلال دقائق تحول الحائط المدهون حديثا إلى لوحة جدارية تصور ما يحدث في الساحة كما لوكانت فوتوغرافيا لحظية.

قد تعتقد أن الليلة قد عدت على خير، لكن ما بدأناه بصلاة المغرب والدعاء الموحد لم ينتهِ حتى صلاة الفجر، فقد انقسمت القرية الهادئة على نفسها، وتشيعت إلى فرق، فصارت هناك جبهة بزعامة جدي، وجبهة خالتي سمسمة المعارضة بزعامة الخالة المجنونة، ثم جبهة عمي دهب،

وجبهة الشباب بزعامة هجلة، وجبهة الحق والنور بزعامة الشيخ منصور، وجبهة الناس بقيادة خالتي نجية، كل جبهة لها توجهاتها وأولوياتها وأسبابها ومبرراتها ومطالبها، فالانفجار الذي سببته خالتي المجنونة سمسمة لم ينحصر مداه في طولة لسانها، لكن ما باحت به من حقائق واتهامات لكبار القرية وناسها، وضع كل أمام نفسه، كأنها أمسكت لهم مرايا كبيرة لينظروا إلى أنفسهم على حقيقتها، وحامد يسجل ويرسم، ووجدتني وسط هذا الموج المتلاطم أبحث عن البت سمر، لم أرها منذ بداية الليلة، وتعجبت كيف لم تحضر ليلة عرسي، أو بالأصح ليلة جرسي، فقد اعتبرت نفسي أنا المفضوح الأول في تلك الليلة، أين أنتِ يا سمر؟ وكان ذهني قد احترق من كثرة وسرعة وتزاحم الأفكار والاحتمالات والافتراضات، فقررت أن أتجه إلى بيتنا وأنام "وإن شا الله تولع"، وحتى وصلت إلى بيتنا وصعدت إلى حجرتي كان صوت المعركة ما زال دائرا، ولم ينقطع إلا بصوت الشيخ منصور "الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله".

لأول مرة منذ سنوات لم أقم أصلي الفجر، كنت خجلًا من ربي، خجلًا من نفسي ومن الناس، وظللت في سريري يجافيني النوم حتى سمعت باب الشقة يفتح، وصوت عودة أبي وأمي، ومن لكنة أبي عرفت أنها خناقة، فأمي انضمت إلى جبهة خالتي سمسمة ضد جدي الكبير، وأبي يلومها لهذا الانحياز فمن الأولى أن تنصر جبهة جدي، لكن أمي ترى أنها نصرت جبهة الحق بغض النظر عن درجة القرابة.. ألهذه الدرجة كان أثر فعلتي! أن ينقسم البيت الواحد على نفسه! يا لي من شقي أين أنتِ يا سمر؟ ورغم

حرارة الجو التي بدأت تشتد مع شروق الشمس، إلا أني تغطيت بالملاءة واضعا المخدة فوق رأسي؛ لعلي أنعزل عن الدنيا وأنام، لكن هيهات.. أين أنتِ ياسمر؟ وقررت أن أنتظر ساعة بعد الشروق وأنزل إلى بيت عمي فراج لأسأل عن سمر، وشعرت بثقل في جفوني فاستسلمت له، لكني مجهد متعب مهدود.. آاااه، وفجأة قفزت من سريري مفزوعًا، هل أنا أحلم؟ وأطرقت أذناي مرهفا السمع، فقد تناهى إلى مسامعي صوت رفيع حاد شارخ الفضاء والسكون كنصل سكين حاد يشق جسم الصمت ويوقظ الموتى من قبورهم.. إنه صوات لا شك فيه، ومن طول موجة الصويتة تعرف المأساة التي خلفها فهذه صويتة فجيعة، ولا تستخدم إلا في حالة الموت.. من مات؟

قفزت من السرير إلى جلبابي ولم أهتم بالصندل، فخرجت حافيا لأجد أبي وأمي على نفس حالي، ثم أرهفت السمع قليلا، فصك آذاننا الموجة الثانية الناقلة للموجة الأولى، صاحت أمي وهي تسرع إلى الباب: "دي صويتة نجية"، فاندفعنا في أثرها بلا وعي وبلا صنادل، وقد بدأت موجات الصوات تتوالى وتتواتر وتتقارب ناشرة الخبر الحزين، مَن؟ وانفتحت أبواب شقق أعمامي ونسوانهم كنسخ مكررة لحالنا، فهبطنا جميعا مهرولين، قال أبي: "قلبي بيقولي إن الولية نجية عاملة مناحة ع الفاضي زي عوايدها"، لكن أمي أكدت: "الصويتة الأولانية مش نجية"، اقتربت منها وقد وصلنا إلى نهاية الشارع نتبع مصدر الصويت الذي انتشر وعم وجاب الفضاء "تفتكري مين يوماي؟"، قالت: "الغرب فيه عيلة أعمامك المراغنة وبيوت

الحجايجة الصغير! يا رب استر يارب"، كنا قد وصلنا إلى منتصف الطريق وقد سبقنا ناس ولحق بنا ناس، كنا قد أشرفنا على برج المراغنة وقد بدأ الزحام يتكاثف فيعيق الحركة والرؤية الواضحة، لمحت وسط الزحام الواد حامد فناديته، وحين اقترب مني سألته وسألني في نفس واحد "عرفت مين؟"، فرددنا في نفس واحد: "لأ"، ثم أضاف حامد: "شكله كده حد من المراغنة، الزحمة السودة كتيرة عندهم"، فتقافزت لأعلى لعلي أستوضح الحقيقة من فوق رؤوس الناس الذين تكتلوا فسدوا الطريق فتعذر التقدم، قلت: "دار عمي فراج ورا برج المراغنة، نروحله ونطلع فوق السطح نعرف إيه الحكاية"، قال هامسا: "نعرف إيه الحكاية، ولا تطل على حبيبة القلب"، أمسكت بذراعه المسلوعة دافعا إياه ليسلك لنا طريق بين الجثث الملتاعة، كما سلكني بالأمس من وسط الجماهير المتناحرة.. عجيبة قريتنا.. فمنذ ساعات كانوا يتناحرون ويتشاجرون ويصرخون ولا يطيقون بعضهم البعض، والآن يتجمعون ويتكتلون وينضمون في قلب واحد ولهفة واحدة وهدف واحد وسؤال واحد "من مات؟"، ونجح حامد كعادته ووصلنا لدار عمي فراج، فإذا بالزحام بزيد، والصوات يتحدد مصدره ويتركز في بيت عمي فراج، فخفق قلبي وقلت: "الله يرحمك يا عمي"، قال حامد: "ما يمكن أم سمر مش أبوها"، وبصعوبة دخلنا فوجدت عمي فراج وأم سمر التي ما إن رأتني حتى ألقت بنفسها في حضني ناحبة مولولة: "عروستك ماتت يا جاد".

11

أن تصدمك طوبة، فهذا بالتأكيد أمر مؤلم، لكن أن يصدمك كوكب في حجم الأرض فبالتأكيد لن تشعر بشيء؛ لأنك ستنجذب إليه كحبة رمل بفعل الجاذبية وتدور في فلكه وتصبح جزءًا منه، هكذا هو الأمر إذنْ، كلما كبر المصاب كلما قل رد الفعل وتضاءل، لهذا لم أنفجع بل لم أشعر بأي ألم، كأن الحديث لغيري ولا يخصني، كأن الفجيعة هي الكوكب الذي جذبني وامتصني فصرت جزءًا منه، لهذا لم أبكِ، لقد صرت ذرة رمل عالقة بالمصيبة المهولة، فدرت في فلكها وتوحدت معها فلم أشعر بأثرها كما لا نشعر نحن بدوران الأرض رغم تأكدنا منه.. أين أنتِ ياسمر؟ توجهت من فوري إلى باب حجرتها، فهم حامد أن يمنعني، لكن عمي فراج أمره: "سيبه يا حامد" فتركني، وتحركت أمها ترافقني لكن صوت عمي فراج جاء ثانيا "سيبوه لوحده"، وفتحت باب الحجرة ودلفت، أغلقت الباب

خلفـي برفق لأنها كانت نائمة، مسـجاة على سريرهـا النظيف، مثل كل شيء في حياة سـمر.. نظيف، ومددت يدي أرفع الملاءة عن وجهها، لأن الدنيا حر، وظللت أنظر إليها مبتسـما في دعـة وسربلتني رحمة إلهية لفت كياني، وخرج صوتي طفولي سـاذج عفوي: "مش حتقومي نسـتحمى في الجندول؟"، قالت بصوتها الطفولي: "مش جاية معاك عشان انت بتعايرني بلوني الفاتح"، قلت: "حقك عليَّ يا سمر! أنا بس كنت بغيظك"، قالت: "واللي يحب حد يغيظه"، قلت: "آخر نوبة ومش حعملها تاني"، قالت: "يعني مش حتقولي يا ملونة؟"، قلت: "ينقطع لساني إن قلتها تاني". فقامت وجدلت ضفائرها الصغيرة، ثم عقدتهما فوق رأسها التي ربطته بمنديل، وتوجهت لدولابها وفتحته، فوجدت علبة الزلط، كما وجدت قصاصات ورق ملون كنا نلعب به، وبقايا عروسة قماشية كنت أهديتها إياها عندما تمت العاشرة، وفي الرف الثاني وجدت زجاجات الأسانس العطري، وقد لصق عليها ورقة تحمل أرقام جاد 1، جاد 15، جاد 23 عشرات الزجاجات تحمل اسمي "كانت تحلم بفتح محلات عطور جاد، وسلسلة ملابس جاد، تبيـع الجلاليب المطرزة ماركة جاد، كانت حياتها كلها تدور حولي، أما أنا فكنت مشـغولًا عنها بالدراسـة والكلية، لم تعترض أو تتذمر أو تشعرني لحظـة أني مقصر، حتى في إجازاتي القصيرة التي أقضيها في القرية، كانت تترك لي مطلق الحرية لأجالس عائلتي وأصدقائي، وحين كنت أعتذر لها كانـت تقول: "بكرة نتجوز وأزهق منك"، أو "بكرة تتخرج وتفتح عيادة ولا مسـتوصف هنا في البلد"، كان هذا حلمها، كانت تحلم لي ولها، لكن بكرة لم يأتِ يا سمر فهل أستطيع العيش من دونك بكرة؟

خرجت من دار عمي فراج كالمنوم مغناطيسيًّا وخلفي سار حامد، لم أره بعيني لكني رأيته بروحي، رأيت حبه وإخلاصه يحيطان بي كظل وفي مستعد أن يمد يديه المعروقتين في أي لحظة ليسندك إذا ترنحت أو يلقفك إذا وقعت، واخترقت جموع المعزين المكتظين في الطرقات من دار عمي فراج حتى منزلنا، لم أرَ وجوهًا، لكني رأيت نفوسًا طيبة تفرش لخطواتي وسادة من الحب والتعاطف، لم أسمع إلا لمًا مثل "ربنا يصبر قلبك يا ضنايا"، أو "شد حيلك يا جاد"، والعجيب أنه لم يلمسني أحد، لم يطبطب عليَّ أحد لكني أحسست بأعينهم تحتضني، يربتون على ظهري برموشهم المبتلة، يهدهدوني في تجويف جفونهم المتورمة من أثر البكاء، توقفت وقلت لحامد "سيبني لوحدي يا حامد"، لم ينبث ببنت شفة وظل واقفا بعيدا، واتجهت أنا إلى شاطئ النيل حيث الجندول الصغير، في نفس الموقع الذي كنا نلعب فيه، وخلعت ملابسي فصرت عاريا كما ولدتني أمي، وهبطت إلى الماء حتى غمرني.. لماذا تبكون؟ فسمر لم تمت، وهل مات من قبلها؟ هل مات جدي الأكبر الجبتي الأول؟ هل مات مينا ورمسيس وأحمس وحتشبسوت ونفرتيتي؟ الجبتية لا يموتون، سمر لم تمت فستظل حية فينا، سيتحلل الجسد الفاني ويصير ترابا لزرعة مستقبلية نأكلها فتستمر حياتها فينا، وتظللت بشجرة توت عتيقة كان يحلو لسمر أن تجمع دود القز وتفرش له صندوق من ورق التوت، وبعد أيام تفتح الصندوق فتجد الدودة المثمرة تفرز حريرا من ثغرها، ثم تلف نفسها وتتشرنق، وبعد أيام تنفتح الشرنقة وتخرج منها فراشة، تتزاوج وتضع البيض فيصير دودًا وتكتمل الدائرة،

هكـذا الحياة والمـوت، نحيا كالدودة، ثم نتشرنـق في القبر، ثم نبعث فيما لا نعلم، فالدودة لا يخطر على بالها أنه سـيكون لها جناحان وتطير في يوم من الأيام، والفراشـة لن تصدق أنها كانـت تزحف على بطنها منذ أيام.. سـبحان الله ولا حـول ولا قـوة إلا بالله.. ما أروع حكمتـك وما ألطف شأنك، تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، اللهم ارحمها وثبتني وصبرني حتى أصير فراشة أحلق معها في جنات الخلد، وشعرت بماء النهر البارد يسخن على وجنتي، إنها الدموع، لأول مرة أبكي منذ تلقيت الخبر الحزين، وانسـابت دموعي غزيرة تختلط بماء النهر المنسـاب إلى الشـمال، سـيشرب منه آلاف البشر فيبكون، إنهـا دموع إيزيس التي تجمعت فكان النيل، ظللت أبكي لسـاعات طوال، وحامد الذي لم يتركني لوحدي كما طلبت، بل تبعني من بعيد حتى لا يضايقني ظل جالسا القرفصاء كتمثال أثري على التبة المشرفة على الجندول تحت أشعة شمس بأونة.

مرت أيام الحداد الثلاثة وأنا في حالة اللا وعي، تلقيت العزاء في الفقيدة بصفتي الاعتبارية وليس بصفتي الرسمية، وقد أصر عمي فراج أن أسبقه في ترتيب الوقوف لتلقي العزاء، ثلاثة أيام مروا من دون سمر، ثلاثة أيام كانت كافية أن أنضج عشرات السنين، الموت أكبر درس ينضج الأرواح الحية، فإن لم تتعظ منه فأنت جثة تسـير على قدمين، وما أكثر الجثث التي التقيت بها في حياتي الشـابة والتي أعلـن نهايتها منذ ثلاثة أيام لأبدأ حياة الرجولة، وأكبر دليل على ذلك ما حدث في اليوم الرابع، إذ استدعاني جدي الكبير، فجلست تحت قدميه على السطح فبادرني: "الحي أبقى من الميت يا

جاد الله"، كان يتحدث بلهجة ناصحة لكن حازمة، أفهمني جدي بما أني كنت على رأس العزاء، فصار واجبا على أهل القرية أن يستأذنونني ليكملوا حياتهم المتوقفة منذ ثلاثة أيام، فقلت: "الأصول برضه يستأذنوا أبوها"، قال: "يا بهيم يا تور، الراجل بدَّاك على روحه في العزا، فبقيت انت ولي الأمر، اللي مالحقش يعمله وهي عايشة عمله بعد وفاتها"، فقررت عمل ليلة على روحها تكون نهاية الحزن.

الساحة من جديد، والعشاء من جديد والكلوبات واللمة والهيصة، مع بعض الفوارق النوعية، ففي الليلة الأولى كنا شيعًا متناحرة، أما اليوم فالألفة والمودة والمواساة، في الليلة الأولى كنت شابا غرًّا، أما الليلة فأنا رجل ناضج، لي مكانتي المرموقة بين الناس ترى تقديرهم لك في لفتات صغيرة لاتراها إلا عين عاشرت القوم وحفظت لغة الأعين ولغة الأيدي ولغة الجسد، الإيماءات والانحناءات وكل ماهو غير منطوق، فمثلا كنت أتجول مرحبا بالناس، وفي التجوال وسط الزحام تلتقي برجل يريد أن يمر من نفس النقطة التي ستمر منها أنت، فيقف ينتظرك، ويقسم أيمانات المسلمين ألا يتتعتع حتى تمر أنت أولًا، قاموس كامل يضم بين ضفتيه تراث أمة راقية متحضرة سامية شامخة، أمة صنعت مفرداتها بنفسها ولنفسها، وعجبت كل العجب، كيف نلقي بثقافتنا الفريدة المتكاملة ونرتدي عباءة ثقافة أخرى؟ كيف طاوعنا قلبنا أن ننسى ماضينا ونسترجع ماضيًا ليس لنا؟ متى تم هذا التحول، متى تغيرنا؟ قال جدي الكبير: "من يوم ما ظهر الفجم"، كنت قد نسيت المدعوق المسمى بالفجم، وفجأة ظهرت خالتي

سمسمة، ران على الحضور توجس لحضورها، ووجدتني أنقل بصري بسرعة تجاه جدي، فوجدته معلقًا بصره بالمحبوبة، لكنه سرعان ما تدارك متذكرا الإهانة التي لحقت به فاكفهر وجهه، استغلت خالتي سمسمة لحظة الصمت وصاحت محادثة جدي الكبير: "غضبان مني؟"، لم يرد وأشاح بوجهه بعيدا، فاستطردت بصوتها الجهوري الذي يشبه صوت الرجال "إيهي! لا كده تبقى غضبان بجد وانا ما يخلصنيش زعلك"، وتقدمت تجاهه تدب بنبوتها دبات ثابتة، ووقفت أمام جدي الذي لم يولها وجهه، وفجأة انقضت عليه تريد تقبيل رأسه: "وادي راسك أبوسها"، تراجع جدي جافلا من الهجمة، فأمسكت خالتي سمسمة الهواء، فاختل توازنها فسقطت فوق جدي، وراحت تمطره بالقبلات رغما عنه، وهو يتصايح ويفرفر تحت ثقل جسمها الضخم، وبدا المشهد هزليًّا، وكأن الناس كانوا في انتظار تلك الإشارة، فضجوا ضاحكين وتحولت الساحة إلى مباراة في الضحك بما في ذلك عمي فراج وخالتي أم سمر، لقد صدر الإذنُ إذنْ، فلتعد الحياة وليضج الناس بالسعادة، والتف الناس حول جدي الذي يرفس بقدميه وقد اغرورقت عيناه بالدموع ضحكا، وراح يصرخ: "خلاص سامحتك.. الحقوني يا خلق من الولية المجنونة دي"، وهي لم تتوقف عن التقبيل، أنا الوحيد الذي أعرف خلفية تلك القبل إنها تعوض سنوات الحرمان من حبيبها، أما هو فكان في قمة سعادته، وما فرفرته وترفيسه إلا مراء ظاهرا، لكن الود وده لو تستمر تقبله، وفجأة وقفت خالتي سمسمة وقالت: "سيدي آدم.. عايزة أسورق".

ضحكت القرية كما لم تضحك من قبل، أو منذ سنوات طوال، ولكن ضحكتنا الأخيرة على طلب خالتي سمسمة أن تسورق لم يكن ضحكا خالصا، بل مشوبًا بالتعجب والتساؤل أتمزح أم تتكلم جَدًّا! نعم هم يعرفون خالتي سمسمة أنها جريئة ومقتحمة ولا تهاب ولا تستحي، لكن أن تصل جرأتها لأن تقف وتعلن حبها لجدي آدم على الملأ، فهذا والله شيء عجيب! لم يستطع جدي أن يدفن حبه أكثر من ذلك، فقام ممسكا يدها زاعقا مسمعا الجميع: "سماسيب يا بنت أور بن واوا بن زمران بن الجبتي الكبير تقبلي تتجوزيني؟" قالت وهي تتقافز مكانها كصبية وتهز يديها في طفولة: "أقبل بس بشرط"، طرطقت آذان واشرأبت أعناق فقالت: "تعوضني عن المية وعشرين سنة اللي فاتوا"، حار جدي سائلا: "عايزاني أعمل إيه"، "قالت في حزم لا راد له: "أسورق وتنزلني من ع السطح العالي".

على السطح العالي وقف جدي على مسافة مترين من الحافة، وخالتي سمسمة تتقدم ناحية السور تتبختر في دلع خجول وبعض النسوة يغششنها "ما تنسيش تشهقي"، وأخرى تهمس بصوت يسمعه الجميع: "تقعي على جنبك الشمال"، وصوت الدفوف يرج المكان وتقترب خالتي من السور، الخطوة تبدو رشيقة رغم الوزن المهول، حتى صارت على بعد متر من السور، فصمتت الدفوف وحبست الأنفاس، وترددت خالتي قليلا ملقية نظرة على جدي تحمل تساؤل: "حتقدر تشيلني"، فهز لها رأسه مؤكدا قدرته، وببطء دنت سمسمة من حافة السور ونظرت، فإذا بها تصرخ: "يا لهوي ده عالي بجد" وقفزت مبتعدة همست امرأة منبهة: "اشهقي اشهقي قبل الخضة

ما تروح"، فشهقت وسقطت على جنبها اليمين، لكن النسوة أسرعن بعدلها على الشـمال، وبدأ جدي يقترب منها متخليا عـن عصاه، ووفقا للطقس قال: "سلامتك يا سماسـيب"، وشمر عن ساعديه وثنى ركبتية كوضعية لاعبـي حمل الأثقال، ومد جدي ذراعيه خلـف الرقبة والعجيزتين، وزم شفتيه مستعينا بقوة لا إله إلا الله، وفي نطرة جبارة رفعها إلى صدره، ثم بدأ يفرد ركبه ليقوم بها ثم بدأت المرحلة الثانية، أن يسير بها حتى السلم، وبدأ جدي يتقدم في ثبات وقوة وعزم يبدو أنه اختزنهم سنوات عمره المديد لتلك اللحظة، وخالتي سمسمة عايشة الدور ومسورقة، وبدت خطوات جدي الونش ثقيلة طبعا، ووقف جدي وقفة استراحة المحارب، يستجمع فيها نفسه ويجدد عزمه، وقد نجحت الخطة فكانت الخطوات التالية أكثر ثباتا وأقل اهتزازا، حتى وصل إلى باب السلم وهي المرحلة الأخيرة والخطيرة، فهبوط السـلم أصعب من السـير على أرض منبسطة، كانت الحشود على السلم قد انتفشت وملأت الفراغ بينها وبين الونش وحمله، فجعلوه كتلة واحدة متلاصقة صمدية لا انشقاق ولا ثغرات بينها فلا مجال للسقوط، مما ساعد جدي الذي بدأ يتحرك، لكن حركته هذه المرة كانت أسرع وأخف بسـبب ذلك التلاحم، وحمل معه الناس الجـزء الأكبر من الحمل الثقيل، فكانت أقدام جدي لا تكاد تلمس الأرض، واختفى الاحتقان والازدراد من وجهه فعادت الابتسـامة إليه، لقد حمل الناس عنه فلم يشعر بمعاناة، وظللنا نهبط حتى وصلنا الدور الأرضي، وأخيرا وضع جدي المسكين حمله ساندا رأسها على فخذه، ففتحت خالتي سمسمة عينيها متمادية في التمثيلية،

وقالت في وهن هو أقرب للدلع: "الله يسلمك يا آدم"، من جديد لعلعت الزغاريد، والتف الناس حول العصفورين الجالسين على الأرض، وهذا ليس من الطقس، لكن لاجدي ولا خالتي كان فيهم حيل يقفوا، فظلوا على جلستهم، وأسرع البعض بأكواب اللبن وقلل المياه وبصوت لاهث صاح جدي: "فين الشيخ منصور؟"، تردد النداء عبر مئات الأصوات، حتى ظهر الشيخ المطلوب فنظر إليه جدي آمرا: "اجري هات دفترك لجل ما تكتب علينا دلوقتي"، صاح الجميع مذهولين: "دلوقتي!"، قال جدي: "أنا ما ضمنش أعيش لبكره"، فأسرع الشيخ منصور إلى الجامع القريب، وانطلقت موجة جديدة من الزغاريد، ودقت الدفوف وهاص الناس، وبحثت بنظري أبحث عن حامد، فلمحته يقفز من فوق التمثال يجري إلى جدارياته يسجل الحدث، فانسحبت في هدوء وسط الزحام واتجهت إليه، فوجدت الجداريات تعكس تفاصيل الحدث من أوله حتى لحظة عقد القران، وفي الخلفية البعيدة ظهر وحش ذو ثلاثة رؤوس ينتظر أن ينقض على القرية الباحثة عن السعادة في أي فرصة، فقلت: "لزومه إيه الفجم في اللوحة؟"، دون أن يتوقف عن الرسم قال: "عشان موجود، بس لا بد في الضلمة"، وأشار بيده فوق رؤوس الناس عبر أنوار الكلوبات والساحة والنخيل والزروع، فنظرت مدققا حيث أشار، فرأيت شبحًا أسود يتحرك في الظلام.. إنه الفجم.

12

ظـل الفرح مقاما والدفوف تدق والأكـف تصفق والغناء والزغاريد حتـى صلاة الفجر، فقام جدي العريـس بالكاد وصلى بالناس، ثم انتقل بعروسـته إلى مقعديهما في الساحة، وقد ألقت خالتي سمسمة رأسها على كتف جدي الذي أحاطها بذراعه، ورحنا نشهد جميعا عملية إيلاج الليل في النهـار، ومـا إن تمت وكأنها صلاة أخرى، حتى انفـض الناس لينام‌وا نهارهـم حتى الظهيرة، لكني لا أريد أن أنام، وبحثت عن حامد فوجدته متجهـا إلى بيت عمـي دهب، فقلت: "رايح فين؟"، قـال: "حتغدى عند عمي دهب ما تيجي معايا"، قلت: "إشمعنى"، قال: "بتول عاملالي أكلة كوارع"، فضحكت متذكرا فقلت: "إيه الحكاية؟ من إمتى بتخبي عليَّ؟"، قال: "الظروف حكمت، أديك شايف". وأخذ يسترسل في تفاصيل كيف أحبهـا من يوم أنقاذها له من البلهارسـيا اللعينة التي تنهش في أحشـائه،

"واليومين اللي قضيتهم في بيتهم قربونا من بعض أكتر" وسرحت في تلك الحالة، فبتول ليست بالفتاة الجميلة على الإطلاق، بل هي أقرب للدمامة، فماذا رأى حامد فيها ليحبها؟ وهو ليس بالشاب الوسيم القوي فماذا رأت فيه؟ عجيب أنـت أيها الحب!! وأفقت من سرحاني على تنهيدة حارة منه فقلت: "ومالك شايل طاجن ستك ليه؟ ما الحكاية ماشية زي الفل"، قال كمن يشكو هم ثقيل:"بتول عايزة تسورق"، يا قوة الله! "يا عيني يا ابني"، هكذا صحت بعفوية فنظر إليَّ ضاحكا: "شفت الهم التقيل اللي مضايقني.. مش بقولك عملالي كوارع".

"وهو جدي آدم أجدع منك؟"، هكذا ردت بتول الجبارة بفم محشو بالطعام حين حاول المسـكين حامد أن يثنيها عن طلب المسـورقة، فمنذ أن حمل جدي خالتي سمسمة حتى ذاعت موضة مسورقة السمان، وكان قبل ذلك يستحون من سمنتهم؛ فعود المرأة في قريتنا فارع كما عود القصب، لين كما الخيرزان، رشيق دقيق إلا من بعض الاستثناءات مثل بتول الجبارة وبعض الفتيات اللاتي عفتهم الطبيعة من الجسم الريان، راحت بتول تطعم حامد في فمه وهو يزلط، فملت على عمي دهب هامسـا: "عندك مهضم أو ملين؟"، قال: "عندي، ليه؟"، قلت: "صاحبنا حيقع من عسر الهضم"، ضحك عمي وصاح منبها بتول: "بالراحة يا بتول مش كده، ده مش لاحق يمضـغ"، لكن الجبارة لم تتوقف عن تزغيطه جائرة: "خليه يتقوى بدل ما هو مسفرت كده.. أمال حيشيلني إزاي؟".

بعـد الغداء خرجنا إلى فناء الـدار، وقد بدأ العصر يتلطف بنا، وشرع عمي دهب في صنع القهوة ودار الحديث حول الفجم قال عمي: "هو اتولد قبل جدنا كاموس بسنين، أيام البيزنطيين، والبيزنطيين سلمونا للرومان، والرومان سلمونا للعرب، والعرب سلمونا للترك، والترك سلمونا للمماليك، اللي سلمونا للفرنساوية، وبعديهم الإنجليز، واللي يفرسك يا أخي إن كل واحـد يحتلك يقولك إنه جاي يخلصك من ظلم اللي قبله.. أنا مش فاهم كرم الأخلاق اللي نزل على دماغنا ده!"، قلت: "والفجم كان موجود طول الفترة دي؟"، قالت هجلة وهي ترشف الشاي: "الفجم لازم لوجودهم، لما تتسرق علومك وتتقفل مدارسـك وتتذل وتبقى عامل سـخرة، لازمًا حتفتقر وتبقى جاهل فتمرض وتموت"، قلت: "بس إحنا مامتناش"، قالت: "إحنا مين؟"، قلت: "إحنا المصريين"، قالت: "ماتبصش لقريتنا ولا للنوبة كلها دول الحبة اللي عايشين، بص لباقي البلد، لا ده إحنا ولا دي عاداتنا ولا تقاليدنا ولا حتى لغتنا".

سرحت منبهرا بتلك الفتاة التي لم تتجاوز التاسعة عشر، وتتحدث بهذا العلم الغزير! فتمتمت: "بسـم الله ما شاء الله عليكي"، فانتفخت أوداج عمي دهب زهوًا بابنته، لكن قطع سلاسة الجلسة صوت شخير بتول التي غفت جالسـة واضعة رأس حامد في حجرها وقد راحا في سـبات عميق يعزفان دويتو شخير من مقام خا كبير، أكملت هجلة وعمي دهب سلسال تاريخ الفجم من مولده حتى كبر وترعرع في ظل احتلال طويل تسبب في

فقـر وجهل ومرض مصر، لم ينجو منه إلا مَن هاجروا بعلمهم وتاريخهم إلى الجنوب.. أقصى الجنوب، وسرحتُ منهم قليلًا متأملًا علاقة الأصول بالجنوب؟ أي جنوب في أي بلد تجده هو الأصول والعراقة والموروث الشعبي ومخزن التاريخ غير المكتوب "لحد ما جاه العرب"، عدت من سرحاني على هذه الجملة قلت كأني متابع: "أيوة الفتح الإسلامي"، شخر حامد شخرة استيقاظ، وقام معتدلا داخلا في الحديث ويصب لنفسه كوب شاي: "انت برضك بتسـميه فتح إسـلامي؟"، قلت: "خدناها كده في المدرسة عمرو بـن العاص فتح مصر و..."، قاطعني حامـد: "وهو اللي جاي ينشر دين ييجي بجيش مسلح ولا بدعاة؟"، لأول مرة أنتبه لهذه المعلومة، فقد درسنا أن عمـرو جاء بجيش قوامه أربعة آلاف مقاتـل، لكن من باب المقاوحة قلت: "بس الإسلام مانتشرش بحد السيف"، قال عمي دهب مؤكدا: "ده حقيقي، الإسلام مانتشرش بحد السيف، وناس مصر فضلوا على دينهم بحريـة أكتر من أيام الرومان، لكن المصيبـة الكبيرة إن عمرو بن العاص خلى اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلد، فالناس اتعلمت العربي عشان تعـرف تعيش وتتعامل مع نظام الحكم والحكومة، ويا ريتها رسـيت على كده وبس، الناس حبت عمرو وجيشـه لأنـه جاه يخلصهم من الرومان، وحبوا الدين الإسـلامي فابتدوا يؤمنوا بيه لإنه شبه دينهم، كان في مصر وقتها حوالي عشر تلاف يهودي، والمسيحيين كنا حوالي 10 % من السكان والأكترية كانـو على الديانة الجبتية القديمة، ديانـة التوحيد، لكن الناس

بطيبتهم أخدوا الدين ومعاه العادات والتقاليد البدوية وفاكرينها إنها من الدين، هي دي الضربة اللي ضربها لنا الفجم في مقتل"، قلت مستوضحا: "عادات وتقاليد إيه؟"، قالت هجلة: "التار مثلا"، فتفكرت في ردها فوجدته معقولا، فالأخذ بالثأر منتشر في الصعيد، لكنه غير موجود عندنا، ولأول مـرة أنتبه لحقيقة أعرفها منذ الصغر كما يعرفها كل أهل القرية، أننا لسـنا صعايدة ولا علاقة لنا بالصعيد وناسه، ولا نحب أن نتشبه بهم، فهم ليسوا جبتية، بل خليط من أمشاج مختلفة يغلب عليهم العرق العربي، فنحن ليس لدينا تلك الخشونة الصحراوية ولسنا غلاظا، ولسنا منغلقين، ولا توجد لدينا تلـك النزعة القبلية المنتشرة في الصعيـد، فالجبتي انتماؤه الوحيد لله والوطـن الكبير مصر، وليس لدينا تفرقة بين الرجل والمرأة ولا نحتقرها ولا نسجنها ولا نوئدها، بل نجلها ونقدسها..

أفقـت من خواطري على صوت بتول تنتفـض مفنجلة صائحة: "فيه مصيبـة حصلت"، التفتنا إليها كلنا جزعين، فقامت مرهفة السـمع، قال حامد: "في إيه يا.."، أسكتته بإشارة من يدها وقد راحت تتشمم الهواء، وقد استنفرت كل قرون استشعارها، ثم قالت: "سامعين؟"، أطرقنا السمع فلم نسمع شيئا في البداية، لكن مع التركيز الشديد بدأ صوت صويت متقطع يصل آذاننا، بدأ ضعيفا وراح يقوى مع اتساع موجته وكثرة ناقليه، لم يكن صويت فجيعة ولا مصاب، بـل صوات تحذيري، والصوات التحذيري متقطع سريع يخرج من اللغد وليس من الصدر؛ "ييي ييي ييي"، وكان عمي

دهب أول الواقفين مـرددا طاردا خوفه وخوفنا: "إن سرت في الوادي.. وادي ظلال الموت، فلا أخاف أبدا..أنت معي بدوت".

13

خرجنا مندفعين نحو مركز الصويت، ونحن نأمل أن يكون مجرد تحذير مبالغ فيه أو بلاغ كاذب، لكن خروج باقي الدور في اتجاه وسط القرية ألغى ذلك الأمل، وما إن انعطفنا وأصبحت منازل وسـط القرية واضحة على مرمى البصر، حتى جمدنا من هول ما رأينا، فقد رأينا برج الجبتية أعلى برج في القرية وقد مال حوالي 40 درجة على جانبه الأيسر، ولولا أنه استند على برج المراغنة القريب منه لأكمل ميله وسقط كلوح العجين، صاحت بتول: "انتو حتدنكو مبحلقين كده؟ ماتهمو"، أفقنا من ذهولنا، وبدأنا نعدو نحو البرج المائل، وقد وضح صريخ واستغاثة الناس، اخترقت الزحام الشديد وقلبي يسـبقني أريد الاطمئنان على أبي وأمي وبقية العائلة خاصة جدي القاطن بالدور الأخير، وحين وصلت لمركز الحدث كان الناس يخرجون أعمامي وزوجاتهم وأولادهم من النوافذ والبلكونات التي صارت مواجهة

للأرض، مستخدمين السلالم الخشبية والحبال وكل ما يصلح لحمل ونقل السكان عبر أي فتحة، وصرخت سائلا: "أبويا وأمي فين؟"، جاءني صوتها من خلفي مناديا باكيا: "جاد"، التفت فوجدت أمي وأبي يجلسان على الأرض بجوار حائط، فارتميت عليهما أحتضنهما معا وأبللهما بدموع فرحة النجاة: "إيه اللي حصل؟"، وقبل أن تجيب سمعنا صوت قرقعة تصك الآذان، وزعق زاعق: "ابعدو العمارة بتقع"، لم يحتج الأمر لترديد المعلومة؛ إذ وجدتني أحمل أمي على كتفي وأمسك بذراع أبي وهرعنا مبتعدين إلى أقصى مسافة ممكنة، وصوت القرقعة يتكرر أضخم من سابقه، وعلى مسافة أكثر من مائتي متر وضعت حملي، والتفت فرأيت الرجال والشبان يحملون من طالتهم أيديهم مبتعدين بهم ليلقوهم في الأمان ويعودون فعدت مع العائدين، ورحت أحمل أطفالًا وعجائز وشيوخًا في رحلات مكوكية اشترك فيها كل قادر، ووسط الزحام المجنون رأيت حامد بساقيه المعروقتين يحمل أربعة أطفال باكين وخلفه بتول تحمل عجوزًا مشلولة وزوجها وأربعة أطفال وتعدو بهم كما الجمل، ألقيت ما معي وعدوت إلى حامد صارخا: "جدي يا حامد"، دون تردد انطلق داخلًا العمارة التي زاد ميلها فكسرت قوائم برج المراغنة وهو يصيح: "خليك انت أنا أخف منك"، واختفى داخل المبنى، وما إن اختفى، حتى تحولت القرقعة إلى فرقعة حديد أساس ينخلع من مكانه، فصرخت: "حامد"، لكن صرختي ضاعت في صوت السقوط المدوي للعمارة بكاملها آخذة معها جزءًا كبيرًا من برج المراغنة، زلزلت الأرض تحت أقدامنا وسحابة غبار إسمنتي تنفجر في وجوهنا رغم المسافة البعيدة

فتعمي الأبصار، وكتمنا الأنفاس غير مصدقين هول الفاجعة.. "حامد.. جدي.. خالتي"، وكتمت هجلة صرخة صغيرة بيدها على فمها مرددة اسم أختها: "بتول"، هممت أن أتحرك مخترقا الغيمة البيضاء لكن يد عمي دهب أوقفتني بقوة فولاذية: "أربعة راحوا مش لازم يبقوا خمسة".

مرت الدقائق والثواني ثقيلة ونحن نرقب سحابة الغبار التي ظلت تتصاعد وتكبر، وأصوات انهيارات فرعية تأتي من داخلها، وقد حط علينا سهم الله بما يتناسب مع حجم المصاب جدي وخالتي سمسمة وحامد وبتول، ما أعجب اختيارات القدر، اللهم لا راد لقضائك ولا اعتراض، وسقطت جالسا واضعا رأسي بين كفي متمنيا أن يغمى عليَّ أو أموت، ما هذا الألم؟ ولماذا هؤلاء الأربعة في ضربة واحدة؟ ما الدرس؟ ما الحكمة؟ ألأنهم أحبوا؟ ألأنهم مخلصون أنقياء ففضلتهم بجوارك قبل أن يلوثوا؟ أنا أعلم أنه لا عشوائية في تصاريفك، لكني لا أفهم "ليه دول بالذات؟"، خرج السؤال غصبا عني، فسمعه عمي دهب فقال: "الفجم أكلهم.. ملعون"، ونظرت إلى الرجل الذي خسر ابنته توًّا، فرأيت وجهًا أقوى من الزمن، أقوى من الصخر الصوان، أي إيمان يعمر قلبه! أي روح تملكته ليصبر ويحتسب؟ كنا جميعا جلوسًا إلا هو وهجلة، ظلا واقفين شاخصين إلى السحابة التي بدأت تهبط، واختفت أصوات القرقعات، وبدا أن الأمر استقر داخل السحابة، لكن لم يقوَ أحد أن يقترب ليستطلع الأمر، خاصة أن برج المراغنة صار مهددا بالسقوط في أي لحظة، فرحنا نرقب السحابة وهي تهبط حتى صارت على ارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار فقط، وإذا بخيال شبح ظل شيء

يتحرك وسط السحابة، فقمت واقفا مدققا، ولم أكن بمفردي الذي رأى، فقد قام معي بعض الرجال، وتبادلنا نظرات سريعة نؤكد لبعضنا البعض أن ما رأيناه حقيقة، ومرت ثوان ثقيلة حتى رأينا بتول الجبارة تحمل حامد المسلوع على ذراعيها خارجة به من وسط السحابة القاتلة وقد غطاهما الغبار الإسمنتي، فصارا في بياض حائط مدهون حديثا، أسرعت هجلة وخلفها الرجال يحملون عنها حامد الذي نظر إليَّ من تحت رموشه البيضاء: "جدك مش في البيت"، ضحكت وضحكت وبكيت واحتضنته واحتضنت بتول وهجلة وعمي دهب الذي انهارت قوته وبكى بدموع حارة وسقط جالسا لأول مرة منذ بداية الأزمة وهو يتمتم ترانيم الشكر راسما الصليب، لكن جدي الوسيط قال "دورت عليهم كويس يا حامد؟"، قال حامد بعد أن جرع كوز الماء الذي في يده: "وصلت شقته بالعافية، دخلت من خرم في حيطة، قعدت أنادي عليه وعلى خالتي سمسمة، لكن ماحدش رد، قلت يمكن منصابين، قعدت افتش تحت الحجارة لكن البيت اتطربق فوق دماغي، عامود مال فوقي كان حيفطسني، شوية ولقيت بتول رفعته بإيد وشدتني بالتانية، قعدنا ندور، لكن الغبار كان تقيل ومش شايفين حاجة، بعديها جاه الوقوع التاني فبقينا لا عارفين ندور ولا نخرج، لولا بتول ضربت الحيطة بكتفها جابتها أرض وشالتني وخرجنا"، صاح أبي: "يعني مش متأكدين إن كان جدي جوه ولا لأ"، كلام معقول طبعا، فما حكاه حامد لا يقطع بعدم وجود جدي وخالتي سمسمة، فكان القرار بأن يبدأ البحث من جديد، وتطوع الجميع للمساهمة في البحث.

انطلقت الفرقة الأولى والثانية تتكون كل منهما من خمسة صبية، كانت مهمتهم جمع صغار الحجر وفتات الإسمنت وتكويمه بعيدا عن الحطام، يتلوهم الفرقتان الثالثة والرابعة يكملون المهمة، تكون الفرق الأولى قد استراحت فتعود لتكمل العمل، وفي خلال ساعتين كان الطريق ممهدًا لسلاح المهندسين، وهم فرقتان من الشباب الماهرين، أقامو الأوناش والروافع الهرمية بعروق الخشب على خط مستقيم من الحطام الكبير إلى مكان التشوين، وما إن انتهوا، حتى بدأت قوات العضلات من الشباب بتحميل الكتل الإسمنتية الكبيرة تعلقها في الروافع بالحبال، وبدأت الكتل تنتقل معلقة من رافعة إلى الأخرى كتلفريك صغير حتى تصل إلى مكان التشوين، وهكذا دواليك حتى نقلنا أنقاض العمارة بالكامل، وقد شارفت الشمس على المغيب، وقد تولت بتول وهجلة قيادة سلاح التمريض وتطبيب الجروح، كما قادت خالتي نجية وأمي سلاح التموين والغذاء، فكلفت كل امرأة بنصيبها في الطهي للجنود، وتوزعت البنات الصبايا بين السقاية وإطعام الفرق العاملة، ومع مقدم الليل بدأت فرق الإنارة من حاملي الكلوبات والمشاعل تضيء الطريق أمام فرق البحث والتنقيب، لم نترك حجرًا أو طوبة أو دبشة أو صخرة إلا وقلبناها لكن لا أثر لجدي وخالتي سمسمة! ومع انتصاف الليل كنا قد تأكدنا من خلو المكان من أي أثر لهما، فأصابنا ارتياح.

كان ارتياحنا مصحوبًا بقلق وتساؤل، أين هما؟ هنا تدخل حكماء وكبار القرية بقيادة عمي دهب بإنهاء عملية البحث، وتأجيل التساؤل حتى الغد،

وكان هـذا هو القرار الأمثل خاصة أن الإنهـاك والنصب قد نالا منا كل منال، فحططنا في أماكنا، نامت القرية كلها في العراء حتى أصحاب الدور السليمة، ليس فقط تعبا وإرهقا، بل أيضا مشاركة منهم لسكان برج الجبتية وبـرج المراغنة.. أين أنت يا جدي؟ ظل هذا السـؤال يراود عقلي المنهك وجهازي العصبي المحطم وأنا مستلقٍ على ظهري عاقدا يديَّ خلف رأسي مواجها صفحة السـماء السـوداء تتحلى بجواهرها النجمية، وبحثت عن نجمة الجنوب، نجمـة جدي، كانت تقف في مكانها الأبدي يحيطها فراغ خاص بها فبدت أكبر وأميز، أتراكِ تعرفين مستقره؟ أتراكِ ترينه فتخبريه عـن قلوب هلعت وأرواح ضنيت قلقا عليه، وسرحت عيناي الكليلتان في تلألؤ النجمة العتيدة، كانت تخبرني عن مكان جدي، لكني كنت منهكا لدرجة لم أسمع حديثها، فأسلمت نفسي لسلطان النوم.

استيقظت القرية على صوت ديوك الفجر، فأسرع الشيخ منصور برفع الأذان وصليت بنصف عقلي، ووقف الشيخ منصور خاطبا في الناس حامدا الله على عدم وجود خسـائر في الأرواح، وفـسر ماحدث بأنه غضب من الله؛ لأننا بعدنا عن الصراط المستقيم، لكنه لم يقل بعدنا إلى أين؟ واكتفي بأن يذكرنا بأن أي مصيبة تحل علينا فهي غضب من الله! ما علاقة غضب الله بسـقوط عمارة بنيت بلا أساسـات؟ وتذكرت كلمة عمي دهب حين ادعى أن الفجم أكلهم الملعون! أي هراء يلجأ إليه الكبار ليجدوا تفسيرا لمـا يحدث! ومتى اختلطت الخرافة بالدين؟ وإذا كان المسـتعمر هو الذي خلق الفجم ليقضي علينا، فها هو المستعمر قد رحل، فمَن يرعى الفجم؟

وأفقت من تساؤلاتي البيزنطية على بتول الجبارة التي كانت تسير تدب الأرض بقدمين مفلطحتين لا يفوقهما كبر إلا قلبها العامر بالخير وحب الناس خاصة حامد، ولمحته يسير بجوارها محزونا مهموما، فدنوت منه سائلا: "مالك يا وله؟"، تأخر قليلا حتى لا تسمعه وهمس: "بتول متضايقة، زعلانة إكمن البرج وقع فمش حتسورق".

اجتمع أهل القرية يتباحثون فيما يفعلون في حياتهم، ولأول مرة، أكتشف أن قريتنا جسم وجدي الكبير رأسه، لأول مرة ألمس مكانة جدي الفعلية وليس المعنوية، فقد كان من برجه العالي يصرف أمور القرية بهدوء ودون أن يشعر أحد، كان يضع المبدأ وعلى الناس تفسيره واتباعه بما يتناسب مع ظروفهم، فمن يريد الزواج ولا يملك المال كان جدي يتكفل به، ومن يريد سكنا أو أرض يزرعها أو ماشية يربيها، كان جدي يسد ويمد ولا يعد، ولا عجب فجدي هو صاحب الأرض، والقرية كلها أولاده وأحفاده، فما له هو مالهم وإرثهم، ولا يقتصر الأمر على المال والأرض، بل الحكمة والتعاليم والتعليمات والتوجيهات اليومية التي كان يمررها لأولاده اللذين ينقلونها إلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد كان هو المنبع والمصدر.. أين أنت يا جدي؟ لم يكن هذا سؤالي، بل سؤال الناس جميعًا، ولفنا شعور واحد باليتم، ومر اليوم حزينا، فأهملت الحقول، وتوقفت الأعمال وجمدت الأحوال، فصمتت الأفواه وحارت الأعين وكثرت الصلوات والدعوات بعودة الغائبين.

14

مر أسبوع قبل أن ينبري الشيخ منصور مخاطبا الناس: "أيها الناس، إن كانت إرادة الله أن يخفي عنا سر جدنا الكبير، فإن إرادته تأمرنا أن تستمر الحياة، فإن عاد الغائب فما خسرنا شيئًا، ولكن حتى يعود علينا أن نعمل". قال قائل: "حنعمل إزاي من غير راس يا شـيخنا؟"، قال في ثقة: "العمل عمل ربنـا، والرزق رزق ربنا، ارجعوا الغيطان ازرعوا واقلعوا، الورش والمحلات والأفران تشـتغل". صاح صاحـب محل: "أجيب بضاعة إيه؟ جـدي الكبير هو اللي كان عارف البلد محتاجـة إيه فيقولي أجيبها"، وقال زارع: "وأنـا أزرع إيه؟ جـدي الكبير هو اللي كان عارف البلد محتاجة إيه فازرعه". نظر إليهم مبتسما في سخرية: "بالزمة مش مكسوفين من روحكو؟ ما حدش عارف يعمل إيه! هو اللي خلق جدنا الكبير ما خلقش غيره؟". أي جـرأة وأي تطاول؟ هب جدي الوسـيط زاعقا: "حافظ على كلامك

يا سـيدنا". في دبلوماسـية ودهاء تراجع الرجل بسرعـة، واختفت لكنة السخرية من كلامه، وحل محلها لهجة الوعظ: "أنا قصدي لغاية ما يرجع جدنا الكبير نصرف أمورنا بنفسـنا"، قالت خالتي نجية: "دبرنا إزاي؟"، قال: "نحط لنا راس"، ثم مستدركا: "ولو موقت". تبادل الناس النظرات، وبدأ الانقسام بين مؤيد ومتشكك وحائر ورافض، ومن مكانه في الركن القصي للسـاحة خرج عمي دهب عن صمته سـائلا: "وتفتكر مين ينفع يا شـيخ منصور؟"، شـعرت أن وراء السـؤال فخًّا، فأنا لا أتوه عن ذكاء عمي دهب، فقد استشـعر كما استشـعرت أنا أن وراء خطبة الرجل غاية وهدفًا، والشيخ منصور ليس جبتيا لكنه وفد إلينا من سوهاج بتكليف من وزارة الأوقاف كحارس للجامع منذ سنوات طوال عاش معنا فصار مننا وعلينا وتطور به الأمر بعد وفاة الشـيخ عثمان إمام الجامع النوبي، أصبح هو إمام القرية وشـيخها والقلة المتعلمة منا تأخذ عليه هفواته وسـقطاته وغلطاته وخرافاته التي ينشرها بين بسطاء الناس في خطب الجمعة، لكننا تعودنا أن نحترم ونبجل رجال الدين كما كان أجدادنا يبجلون كهنة آمون.. وأفقت من سرحاني على صوت الشيخ منصور يقول: "خلاص يبقى نعمل انتخابات"، ورأيت الفجم يطل من علٍ، يفرد جناحيه الخفاشـين ليظلل الشـيخ منصور من أشعة شمس الضحى كأنه يرعاه.. أم ترى الشيخ هو الذي يرعى الفجم؟

تقدم الشيخ منصور مرشحا نفسه! مؤكدا أنه لا يسعى إليها إلا لصالح الناس ولوجه الله تعالى ومن دون مقابل، فغمغم البسطاء كلمات من نوع

الله يفتـح عليك، والله يجازيك عنا خير، وربنا يخليك لينا يا شـيخنا، كان هذا مؤشرًا واضحًا لنوايا الشيخ منصور، وكانت الحركة مفاجأة، فالتف المعمرون والجبتية حول عمي دهب يدفعون به كمرشـح منافس، والحق يقـال إن الرجل ترفَّع وأبى في البدايـة، لكن تحت إلحاحنا وإصرارنا: "ما هـو مش معقول نسـيب راجل جاهل مخـرف زي ده يحكم البلد"، هكذا صغنا حجتنا حتى وافق، وتم الاتفاق على مهلة أسـبوع لكل مرشـح أن يضع برنامجه الانتخابي ليتم مناقشـته فيه، ثم التصويت عليه في مؤتمر عام لكل سكان القرية.

جندت نفسي لخدمة حزب الجبتية، وعقدنا أول اجتماع لنا في دار عمي دهب، كان اجتماعًا موسعًا تم فيه انتخاب اللجنة المركزية للحزب وتكونت من ممثلين للأطياف الموجودة، وهم عمي دهب رئيسـا وممثلا للمعمرين وكبار السـن، ثم جدي الوسيط نائبا للرئيس وممثلا عن الجبتية، ثم عمي ميرغنـي ممثلا عن المراغنة، وعمي حجاج ممثـلا عن الحجايجة، وأنا ممثلا عن الشباب.

في الصباح الباكر اجتمعنا مجددا بعد الإفطار، وكان السؤال الأول الذي طرحه عمي دهب: "إحنا عددنا كام؟"، انبرى أبي مجيبا: "كنت سـمعت جدي الكبير بيقول إن إحنا داخلين على ربع مليون تقريبا"، قال عمي دهب: "مش عايز تقريبا، عايز أعرف العدد بالظبط"، صاح عمي حجاج: "بسيطة، نقسم البلد مربعات، والشباب ينزلوا يعدوا الناس"، سألت خالتي نجية:

"وحيفيد بإيه؟"، قال عمي دهب: "لجل ما نعرف إحنا محتاجين نزرع إيه ونجيب إيه"، ثم ملتفتا إلى الشباب سائلا: "مين فيكو عنده كمبيوتر؟"، أجبنا جميعا بالإيجاب، فقال: "اعملوا نظام يبين العدد، كام راجل وكام ست وكام عيل، مين قادر على العمل، مين بيعول ومتزوج ومين عازب.. كل ماعرفنا عن روحنا، كل ما البرنامج كان أوضح"، وكجندي قمت أنفذ المهمة، وكلفت مجموعات الشباب بمهام محددة، كلًّا في منطقة، فانطلقوا ملبين، واستمر الاجتماع حتى صلاة الظهر، تطرقنا إلى سبل جذب مؤيدين لنا، وما المنافع التي نستطيع الوفاء بها للناس، ورفض عمي دهب اقتراحًا بضرب الخصم وكشف عيوبه، وقبيل الانتهاء من الاجتماع ظهر حامد صائحا: "جبتلكم الخبر اليقين"، وقبل أن يتكلم وضعت بتول نايبه من الطعام الذي حاشته له سائلة في رقة: "كنت مخفي فين؟"، فحكى كيف اندس وسط صفوف الدهماء من أنصار الشيخ منصور، وكيف لبد وراء عامود الجامع الذي اتخذه الشيخ مقرا لاجتماعاته، قاطعه جدي الصغير: "وهو ينفع بيوت الله تشتغل في السياسة؟"، أسكته عمي دهب بإشارة تمهل من يده فأكمل حامد: "الراجل داخل عليهم بالحنجل والمنجل ومصورلهم الحكاية حرب إسلامية، حرب بين العلمانيين الكفرة وربنا أستغفر الله العظيم، وفهمهم إن اللي حينضم لنا يبقى كافر زينا، واللي ينضم له يبقى بتاع ربنا والحق"، لاحظت أن حامد يتحاشى النظر لعمي دهب "ماعملش لجنة لحزبه؟"، سأله عمي ميرغني، فأشاح بيده وفمه مملوء: "لجنة مين يا عمي هو اللجنة وهو الحزب وهو الكل كليلة"، قال ابي: "ما تكلموش

عن البرنامج الانتخابي؟"، بلع حامد ما في فمه بجرعة ماء، وقال: "يا عم آدم الله يـرضى عليـك، هو ده بتاع برنامج وكلام مـن ده، هو عمال يقول الخير حيعم لو التزمنا بحبل الله، وإن ربنا لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. حرب مش برنامج". هززنا رؤوسنا وقد تكشف لنا أسلوب الخصم الوضيع، فاجأه عمي دهب سائلا: "ماجابش سيرتي؟"، ارتج على حامد لكنه تماسك: "لا.. لا ما يقدرش"، وكان حامد يكذب.

لم أسـتطع الانفراد بحامد إلا بعـد منتصف الليل ونحن نتوجه لننام، وقد انقضى اليوم وجزء من الليل في مداولات ومناقشـات وجمع بيانات وإحصاءات وطرح أفكار، وما إن انفردت بالواد حامد، حتى أقر بحقيقة كذبه المفضوح فقال: "يعني عايزني أجرح الراجل! لا أنا قلبي ماجابنيش فكدبت"، قلت هامسا: "قال إيه؟"، خفض صوته لتحت الهمس ملقيا عبئا ثقيلا يخلص منه: "قال إننا ولّينا أمورنا لكافر"، وسكت، قلت: "والناس عملـوا إيـه؟"، قال: "الصراحة النـاس اتخضت من كلامه، شـوية منهم قاموا مشـيوا بيبرطموا: الفتنة نائمة لعن الله مـن أيقظها، قام ابن اللئيمة قال إنه بيحب عمـي دهب، لكن فيه أمور مش حيعرف يتعامل معاها"، قلت: "أمور إيه؟"، قـال: "الزكاة والصدقات وصندوق النذور والجواز والطـلاق والمواريث لازم اللي يتولى البلد مسـلم"، أسـندت ظهري على جـزع النخلة مجاورا لحامد ولفنا صمت ثقيل، فسرحنا في السـماء باحثين عن نجمة الجنوب، لكن سـحابة سوداء مرت راسمة شكل الفجم يطل علينا برأس الجهل مخفيا النجمة.

بعد صلاة الفجر والإفطار اجتمع بنا عمي دهب نكمل برنامجنا، وفقا لما توفر لدينا من معلومات ناقصة حتى الآن، وقضيت النهار أفرغ البيانات على اللاب توب وأصنفها وأبوبها، كنت أجلس في قاعة الفرن القديم، وقد سرحت في هذا التناقض المضحك لمنظر الكمبيوتر قمة التكنولوجيا بجوار قمة البدائية من حطب وفحم، ما أبعد المسافة بينهما! وقطع الاجتماع عودة الشباب من عملية جرد السكان مبكرين، وقد تملكهم فزع وحيرة، إذ إن الشيخ منصور وأعوانه أقنعوا الناس أن عمي دهب بيعمل لهم عملًا سفليًّا، من أجل هذا هو يجمع بياناتهم، ويريد أن يعرف كم فرد في كل بيت وكم طفل وطفلة، وصرخ الشيخ منصور متألما باكيا: "خافوا على عيالكو"، فخاف الناس من الحسد والعين وشر المستخبي، وأغلقوا الأبواب في وجه الشباب، بل وتطاول البعض عليهم بالسباب، ووصل ببعضهم إلى محاولة الاعتداء.

تلقى عمي دهب التقارير وقرر المواجهة، فأرسل جدي الصغير بطلب عقد مناظرة الليلة السابقة للانتخابات أي بعد يومين، قضيناهما في مقابلات واجتماعات مع الناس، وجولات لقاء مباشر وسماع الآراء، وقد نجح عمي دهب في اجتذاب عدد لا بأس به من هؤلاء المترددين الحائرين بين الكفتين، وعلى الجانب الآخر صعد الشيخ منصور نبرة الكلام، واعدا بالجنة الموعودة للمجاهدين المعدمين والغلابة والمساكين اللذين من أجلهم خلق الله الأرض والسماوات، لقد فتح الرجل بابا من أبواب جهنم حين أدخل في عقولهم أن الأرض أرض الله وليست أرض جدي الكبير، والمال مال الله

وليس مال الجبتية ولا المراغنة ولا الحجايجة، وأنه حين يقود البلد سيعيد توزيع الأرزاق بشرع الله وحقه، فنام الناس في حضنه وأسلموا له زمامهم وبايعوه قائدا وزعيما ومخلصا من الظلم، وبات كل رجل يحلم بالأرض التي سيمتلكها يزرع نصفها ويبني لنفسه برجًا، وباتت النسوة تحلم بالراحة والبغددة، والبنات يحلمن بالعريس الثري والشباب بحور العين ومن تحلو لهم من بنات البلد مثنى وثلاثًا ورباعًا، وفي خضم الأحلام والنوايا السيئة والانشغال بالانتخابات أُهملت الحقول وغلقت المحال والورش والأفران، وبدأت مؤن القرية تعاني من نقص في الدقيق والسكر والأرز والخضروات والسمن والزيت، فلم تحصد المحاصيل فأكلتها الغربان التي تكاثرت بشكل غير مسبوق في الغيطان التي لم تُرْوَ منذ أكثر من أسبوعين فجفت وماتت وتعفن ما نضج منها، وحين لجأوا إلى الشيخ منصور لينجدهم، كسر صندوق النذور بالجامع وأخرج من تحت البلاطة ما كان يدخره، ولم ينسَ إشهاد الشهود على تضحيته، وأرسل وفدًا إلى القرى المجاورة لشراء ما يلزم أنصاره من طعام، وفي اليوم التالي وقف بنفسه يوزع زجاجات الزيت وكراتين البيض وأكياس الأرز والسكر على الناس الداعين له بطولة العمر والنصر على الكفرة، ومع كل دعوة قبلة على يده الكريمة التي كان يسحبها مستغفرا، لكن ليست سحبة كاملة بحيث يعطي لشاكره الفرصة للتعبير عن امتنانه.

توجهنا بعد منتصف الليل إلى دار عمي دهب بعد جولة انتخابية ناجحة، كنا أنا وحامد وهجلة وبتول وبعض الشباب نسير يملؤنا الأمل، وإذا

بـالأرض تهتز تحت أقدامنا، فتلفتنا مذعوريـن.. أزلزال؟ لكنْ ظل ثقيل غطـى نور القمر وصحبـت مروره ريح عاتية، هبـت أطفأت الكلوبات في أيدينا فبتنـا في ظلام دامس، وفي الظلام يكمن الخطر، وصوت فحيح سمعناه ورائحة نفاذة منفرة أعرفها من قبل تزكم أنوفنا، وصاحت هجلة: "أف إيه ده؟"، في صوت واحد قلت أنا وحامد: "الفجم".

لم يكن خيالا ولا حلما ولا تهيؤات، لقد صار ملموسا جليا، بدليل أني لا أراه وأشعره بمفردي، صرخت زاعقا: "اعملو دايرة"، فصنع الشباب دائرة مغلقة، ووجوههم للخارج وفي القلب كانت بتول وهجلة، لم نكن مسلحين ولا نحمل في أيدينا إلا أجهزة اللاب توب وأقلامًا جافةً، هجم علينـا هجمة يقيس بها قوتنا، فهي المـرة الأولى له يهاجم مجموعة، صرخ شاب زاعقا: "حطوا اللي في إيديكو واستخدمو الأقلام خناجر"، وفي لمح البصر أخرج كل منا ما معه من أقلامًا ووزعناها على بعضنا البعض، وتأهبنا لهجمته التالية، فاجأنا اللعين بهجوم ثلاثي برؤوسه الثلاثة دفعة واحدة، فعملت أقلامنا طعنا وغزا في رؤوسه وأعينه وآذانه ورقبته، طعنات صغيرة لكـن متوالية متتابعة سريعة متلاحقـة، ولم نتخيل أن تلك الطعنات تؤثر هذا التأثير في هذا الوحش، فراح يئن متوجعا، فزادنا ذلك حماسـا وقوة، فتسـارعت ضرباتنا كمدافع رشاشة ترشق الرؤوس والأعناق بوابل من الطعنات حتى غطى الدم أعينه وسال من رقبته فانسحب مهزوما مدحورا، ظللنا على وضع الدائرة بضع دقائق حتى نتأكد أنه غار وحين اطمأننا وعاد القمر يضيء الظلام، أشـعلنا الكلوبات وأكملنا سـيرنا حذرين حتى دار عمي دهب.

ما إن دخلنا، حتى توقفنا مشدوهين، إذ إن البيت كان حطامًا، الأبواب مخلعة والشبابيك مكسرة والكلوبات محطمة والمفروشات مبعثرة وقد التف النـاس حول عمي دهب يواسـونه في مصابه الكبير.. المعمل الذي تحول إلى حطام وتبعثرت الزجاجات والقوارير والسحاحات محطمة، وتمزقت أوراق قضى فيها سـنين عمـره، وما إن رآنا، حتى هـب محتضنا حفيدتيه سـعيدا بسـلامتنا، ولم يحتج الأمر إلى ذكاء لنعـرف أن الفجم هاجمهم كما هاجمنا، ومـن دون أوامر أو توجيهات بدأنا نعيد ترتيب وإصلاح وإزالة آثار العدوان، وفي إيمانه المعهود قال عمي دهب بوجه بشـوش: "طول ما احنـا طيبين، كل شيء يتعوض". ومع آذان الفجر كنا قد أعدنا البيت إلى ما كان عليه تقريبا.

15

توجهنـا مبكرين لنشـهد عملية إيلاج النهار في الليـل، كم أفتقدك يا جدي.. وصلينا المغرب في الساحة، وما إن انتهى الشيخ منصور من الصلاة في الجامع حتى حضر في لفيف غفير من الأتباع، يكادون يكنسون الطريق أمامه بألسنتهم، اتخذ عمي دهب جانب المنصة، واتخذ الشيخ منصور الجانب الآخـر مبادرا بالكلام: "يعلـم الله أني لا أريد مصلحـة، وليس لي منفعة وراء هذا الترشـح، فهي مسـؤولية لو تعلمون عظيمـة، عايز أقف قدام ربنا وأقوله إني أقمت العدل وأفشيت السلام ونشرت السلام والخير بين الناس، وعشـان.."، قاطعه عمي دهب: "إحنا جايين نعمل مناظرة مش خطب يا مولانا"، قال سـاخرا: "والله كويـس إنك معترف إني مولاك"، لقد بدأ الوغد الهجوم، فقال عمي متجاوزا التفاهات: "تحب تبتدي تسأل ولا أسـأل أنا؟"، قال الشيخ: "عايز أسألك إنت رشحت روحك ليه؟"،

قال عمي: "أنا مارشحتش نفسي، الناس هي اللي رشحتني، بس خليني أسألك ما معنى كلمة أرشح؟"، تلجلج قليلا قبل أن يجيب: "يعني انتقي وأصفي"، قال عمي: "طب بالذمة ينفع حد يصفي نفسه؟ ينتقي روحه؟"، كانت ضربة موفقة من عمي لاقت استحسان الناس، حتى من بعض أنصار الشيخ، لكن اللعين هرب صائحا مشوحا بيده: "إحنا جايين ناخد دروس عربي! خلينا في صلب الموضوع"، قال عمي: "اللي هو إيه؟"، قال الشيخ: "الانتخابات الديموقراطية".

ابتسم عمي كأنه أوقع خصمه في فخ، فأسرع سائلا: "انت تعرف إيه عن الديموقراطية؟"، ارتج عليه القول وقال متلجلجا: "يعني اننا نختار اللي يحكمونا، اللي يراعو ربنا فينا"، قال عمي: "يعني الناس تختار اللي يقودهم؟ لفين؟"، قال: "اللي فيه الصالح"، "والصالح ده من وجهة نظر مين؟"، "اللي تشوفه الناس.. الأغلبية"، قال عمي: "يعني لو ألف شافو إننا نزرع قطن في موسم القمح، وواحد بس قال ماينفعش يبقى الألف معاهم حق؟"، الله عليك يا عمي، زنقه وكعادته خرج من المأزق بصراخه زاعقا: "ربنا ادانا عقل نميز بيه وماحدش حيقول نزرع قطن بدل القمح، وبعدين انت واخدنا في سكك مالهاش لازمة ليه، بتوهنا وراك عشان ما تواجهش الحقيقة"، قال عمي: "أنهي حقيقة؟"، في قحة صاح الشيخ: "ماينفعش نصراني يحكم مسلمين"، هنا جمدت الساحة، فقد ألقى الرجل ما كتم في الصدور وأشفق الناس على أنفسهم منه، لعن الله مَن أيقظها، لكن عمي ابتسم قائلا: "وإيه علاقة الإدارة والتخطيط بالدين؟".

كأن الرجـل لدغته عقربة، صاح صارخا رافعـا يديه مواجها الناس: "سامعين، الكفر طلع من بقه، شاهدين بيقول إيه؟"، ثم ملتفتا إلى عمي دهب: "الدين في كل حاجة يا مقدس"، قال كلمة مقدس بنبرة خاصة، ثم التفت للناس صارخا: "عايزنا نبعد عن ربنا عايزنا ننسـى ربنا"، ثم زعق حتـى انشرخ صوته مولـولا: "لأاااا وألف لا.. الله موجود في كل شيء، الله القيوم القادر المدبر"، وبدأ يبكي في حرقة: "عايزين تتحكموا بعيد عن شرع الله؟ عايزين الكفر يتفشى؟ عايزين إدارة علمانية تفصل الدولة عن الدين؟"، كان يلقي السؤال وينتظر همهمات الإجابة الصاعدة من صدور البسـطاء السـذج الجهلة، نجح اللعين في استمالتهم ناحيته وهو لا يدري أي بـاب من أبواب جهنم فتح، ولا بـأي رأس من رؤوس الفجم عقر، إنها رأس الجهل، وبعد انحسـار موجة الدروشة التي أشعلها الشيخ قال عمي في هدوء: "خلصت؟"، قال اللعين: "هات ما عندك فبإذن الله حجتك مردودة"، ضحك عمي سائلا: "ألا كلمة ديموقراطية معناها إيه؟"، فقال الشـيخ: "إحنا مـش جايين ناخد درس في الإنجليزيـة"، فضحك العامة والغوغاء وقال عمي: "طب نشـأت إمتى وفين؟"، قال الشيخ: "علم لا ينفـع وجهل لا يضر"، قال عمي: "يعني انت مؤمن بمبدأ لا انت عارف معناه ولا أصله ولا فصله؟" عاد الشيخ إلى أسلوب الدروشة لكن عمي قاطعه: "قولي يا شيخ منصور، عندكو في الإسلام حاصل ضرب اتنين في اتنين بكام؟"، قال: "أربعة"، قال عمي: "واحنا كمان عندنا في المسيحية نفس النتيجة"، صاح الشيخ: "وإيه دخل الدين في الحساب؟"، هنا ضحك عمي

عاليا: "ما هو ده اللي بقوله"، لم يتوقع الشيخ تلك الضربة، فامتصها منهيًا المناظرة: "عموما الصناديق بيننا"، وترك الساحة وخلفه الرعاع والغاغة والسوقة والدهماء من البسطاء المخدوعين.. بات من الواضح أن كفتي الميزان متعادلتان تقريبا، إذ نجحت المناظرة في اكتساب بعض الوسطيين من البسطاء المستنيرين ليقربوا الفجوة بين حزب الجبتية الأصليين وحزب التقوى والإيمان.

كان الحضور في الساحة مخيفًا، فرغم تعودنا اللمة والزحام والاجتماعات الضخمة، لكن لمة اليوم ليست لمة، بل دعوة للفرقة، جئنا لنختلف! فرقة صامتة تضعها في ورقة مطوية لتلقيها في صندوق مغلق، كأنك تخاف أن يطلع على رأيك أحد حتى لا تتهم بتحيزك مع طرف! عجيبة تلك الخدعة المدعوة بالديموقراطية! كلما تأملت فيها أجدها مليئة بالتناقضات، ونظرا لأن نسبة الأمية في قريتنا تتعدى 90 % فقد اتفق على أن لكل مرشح صندوقًا، في الحقيقة هو ليس صندوقًا بل زلعة ضخمة، وكانت زلعة عمي دهب باللون الأبيض، وزلعة الشيخ منصور باللون الأخضر مرسوم عليها سيفان وكلمة التوحيد، وما على الناخب إلا أن يلقي بورقة في أي من الزلعتين، وقد أقيمت دروة حول الزلعتين، وقام عليهما مندوبان عن المرشحين، وكنت أنا مندوب عمي دهب لمراقبة نزاهة التصويت وبدأت عملية الاقتراع، فوقف الناس طابورًا طويلًا يتلوى وفقا لما تسمح به تضاريس المكان، ومرت أول نصف ساعة وقد مالت الكفة تجاه الشيخ منصور، فابتسم مندوب الشيخ ويُدعى تاج، ثم بدأ الميزان يميل ناحية عمي دهب، فبدا القلق على

وجه تاج، فطلب استراحة خمس دقائق، فتوقفت العملية الانتخابية حتى يعود، ولمحته يتجه نحو الشيخ ويسري إليه بشيء انعكس على وجهه الذي اكفهر، ثم همس في أذن الشاب شيئا فعاد حاملا كوبين شاي "لا مؤاخذة يا جاد حكم الوقفة حتطول اشرب"، رحنا نرشف صامتين وأنا أجاهد نفسي حتى لا أسرح فيتم أي تلاعب، لكن عند نصف الكوب وجدتني مثقل الرأس مضبب الرؤية، فجلست على حجر "مالك؟"، سألني تاج، بنصف وعي قلت: "لا ولا حاجة بريح رجلي"، ظل يرقبني حتى غبت عن الوعي، وحين أفقت كانت الانتخابات قد انتهت، وحكى لي الناس ماحدث، إذ يبدو أن الحر الشديد داخل الدروة ضربني في رأسي فأغمى عليَّ، فخرج تاج وطلب مَن يحملك ووضعنا مندوب آخر بدلًا منك، لم أكن أحتاج إلى السؤال عن النتيجة، فقد وضحت في وجوه أجدادي وأعمامي وأبي وأمي وبتول وهجلة وحامد، اللذين تشاغلوا بهمي هربًا من الهم الأكبر الذي ركبهم، وأصوات الزغاريد الملعلعة والاحتفالات التي يقيمها أعوان الشيخ منصور.. كيف حدث هذا؟! لقد كانت زلعتنا مليئة حتى المنتصف قبل الإغماءة، وبقياس من تبقى من الناخبين لا يمكن أن تكون هذه النتيجة، وبدأ الفأر يلعب في عبي، فأسرعت خارجا.

وجدت تاج اللعين يرقص طربا، هجمت عليه مبادرا: "عملتها يا تاج"، كان رد فعله أكبر دليل على جرمه، إذ صاح مبتعدا عني خائفا محتميا بالشيخ منصور: "ما عملتش حاجة، إنت اللي وقعت لوحدك"، أمسكت بتلابيبه "تخدرني يا جبان يا.." لم أكمل جملتي، إذ انهالت عليَّ الأكف والأرجل

والنبابيـت، فتكورت على نفسي أحمي رأسي، ولولا بقايا عقل في بعضهم لكنـت قضيت نحبي، وأفلـت عائدا نازفا من الوجه والجسـم والقلب، وحكيت ما كان.

وسرحنا كلنا في خضم واحد من الإحباط، ووجدتني أتسـاءل: لماذا العدالـة عمياء؟ مَن وضع تلك العصابة فوق عينيها وأمسـكها ميزانًا في يدها؟ ولماذا كفتا الميزان متعادلتان؟ هل العدل أن يتساوى الظلم مع الحق؟ هـل العدل هو القانـون؟ ماذا لو فتحت العدالة عينيها؟ ثم هل يسـتوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ هذا ليس سـؤالي بل سؤاله عز وجل، وهو سـؤال اسـتنكاري، وقطع حبل أفكاري صوت عمي دهب ينادينا لنصلي، فصلينا خلف جدي الوسيط وصلى عمي بأهله وذويه، ثم التفت إلينـا قائلا: "اللي حصل حصل، ما قدمناش غير إننا نزرع أرضنا بإيدينا، حنربي مواشـينا ونعمر الغيطان، حنصد رمل الصحرا بخضرة الوادي"، تفكر الشـباب في كلامه فوجدوه معقولًا وممكنًا، فقلت: "أنا من النجمة في الغيط"، فتبعني كل الشـباب والرجال مؤمنين، لكن عمي دهب قال: "إنت يا جاد من بكرة، ترجع جامعتك"، حاولت أن أعترض، لكنه قال: "جـدك الكبير لو هنا كان قـال نفس الكلام"، فأمن الكبار على كلامه، ووجدتنـي مضطـرًّا أن أرحل عن بلدي في وقت الشـدة، أأنصت لهم أم أصمم وأبقى؟

الحقيقـة أن قرار عـودتي للجامعة أصابني بنوع من الراحة المسـترة،

مستترة حتى عن نفسي، لا أريد أن أعترف أني مرتاح للبعد عن تلك المشاكل والصراعات المتخلفة، أريد أن أخرج منها بأي ثمن، حتى لو كان الثمن تأنيب ضميري لتركي البلد وناسها في تلك المحنة، حاولت أن أسوق الحجج لأقنع نفسي أنها ليست نذالة أو هروب من المسئولية، فأولا كان القرار قرارهم وليس قراري، ثانيا أنا ملتزم بمواعيد دراسة خصوصا أني طالب امتياز وعليَّ أن أعبر البوابة الأخيرة في التعليم لأخرج إلى الحياة العملية، ورحت أبرر لنفسي هروبي وتركي لقريتي في شدتها، وأفقت على صوت حامد يقول: "يالا يا جاد القطر حيتحرك"، فسلمت عليه في حضن طويل صاحبته الدموع دموع المعتذر، وكأنه قرأ أفكاري ولمس ما في قلبي قال: "ما تقلقش، إحنا مقدرين ظروفك، شد حيلك انت وارجع لنا بالشهادة كفاياك علام بقى"، وركبت القطار الذي تحرك بي مبتعدا عن عالم متكامل قديم متهالك متداع مصاب مفتت مهدد بالانقراض، أتراني أجد قريتي حين أعود العام المقبلً؟ بالطبع سأجد مباني وأرضًا وناسًا، لكن هل هي نفس المباني ونفس الأرض ونفس الناس؟ وبعد نصف ساعة أفقت من تفكيري في القرية وشجونها، وبدأت أتأهب روحي للعودة إلى العالم الآخر، عالم الجامعة الذي نسيته، ويبدو أن للقرية نطاق جاذبية معينًا إذا تخطيته تحررت من استحوازها عليك، وفعلًا بدت لي أحداث الأمس القريب كأنها ذكرى بعيدة.. عجيب هذا الإنسان، تتساقط عنك أوراق الذكريات والأحداث كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف لتهيئ نفسك لربيع قادم تزهر فيه وتثمر.

16

المدينة من جديد.. الزحام ورائحة عادم السيارات.. الوجوه المكفهرة والنفوس المتلهية عن بعضها، المباني الشاهقة والشقق الضيقة والأسقف الواطئة، تطورت مدينة أسـيوط كثيرا في الفترة الأخيرة، أم هي تخلفت؟ فبعد أن كانت بلدة صغيرة تحيطها المزارع والغيطان من كل جانب، توسعت وجرفت الأرض الزراعية وبنيت مساكن أشبه بالقبور الرأسية، لم يكن في أسيوط ملمح من ملامح المدنية سوى اسمها على الخريطة ومعمل التكرير الذي أنشأة جمال عبد الناصر على أطراف الجبل، وقصور الباشوات المتناثرة من العصر البائد كما علمونا في المدارس.

كنت أخترق مدينة أسيوط بالتاكسي من المحطة إلى بيت الطلبة بجوار المستشـفى الجامعـي، كان أول من لاقاني هو ضرغام حـارس أمن بوابة بيت الطلبة وهو من أبناء أسـيوط، لم يتلـقَّ أي نوع من التعليم في حياته،

يعمـل في شركة أمن تمتلكها حرم مدير أمـن المدينة، طوله متران وبعض السـنتيمترات، حجم كفه كما خف الجمل عريض الفك والرقبة وتضيق جمجمته إلى أعلى، شاربه الضخم رمز رجولته لم يخف ضخامة شفتيه ويتمتع بغباء منقطع النظير وذاكرة سمكة، فبادرته حاملا متاعي: "سلام عليكم يا ضرغام"، نظر إلي بعينيه الضيقتين قائلا: "عايز إيه؟"، قلت مازحا وقد بـدأ ثقـل متاعي يؤلمني: "يا عم رد السـلام لول"، قـال غاضبا بلا مبرر: "سـلا.. رح.. تالله وبركا"، هكذا ينطق رد السلام مردفا: "عايز إيه؟"، وضعت حقيبتي وبدأت المسرحية السـنوية التي تتكرر مع كل عودة من إجـازة قلت: "أنا جاد الجبتي سـاكن في بيت الطلبة"، قـال: "حو خلجا ع نـه لج ما تـس البا"، يقصد حـط خلجاتك على جنب لجل ماتسـدش الباب، فانصعـت للأمر وأخرجت له الكارنيه، فنظـر فيه وأنا متأكد أنه لا يقـرأ بـل يتفقد الصورة، وأعـاده لي: "جديم مايـح..."، قلت له: "أنا لسـه راجع من الإجازة وحسـتلم الكارنيه الجديد من.." قاطعني: "جل مايصوحش"، وطالما قال مايصوحش بتلك النبرة، فمن الأسلم أن تنصاع للأمر وتركن على جنب ولا تحاول تذكيره بأنك نفس الشخص الذي يراه منذ سـبع سنوات أحد عشر شهرا في السنة، فركنت في عز الشمس حتى يظهر صديق أو دكتور ينتشـلني من محنتي الضرغامية، واضعا كتابًا فوق رأسي جلست على الحقيبة، ورحت أراهن نفسي مَن سيكون منقذي؟ أهو دكتور سعيد مشرف البيت، أم دكتور عصام نائب مدير الجامعة في إحدى دوراته التفتيشـية، أم أحد الزملاء المغتربين المقيمين في البيت، حتى ظهر

تامر عبد النعيم داخلا بسيارته الفارهة، فانتفض ضرغام فاتحا له البوابة، فلقطني ضاحكا: "برضه عملها معاك الحيوان ده؟"، قفزت بجواره ملقيا متاعي في الخلف: "كويس انك جيت دلوقتي، الشمس كلت نافوخي"، وكنت محظوظا إذ كان تامر هو منقذي، فتامر هذا حدوتة تانية.

تامر عبد النعيم هو ابن الدكتور حسين عبد النعيم، وحفيد الدكتور عبد النعيم شورا، واحد من أساطين الطب في مصر والعالم في جراحة المخ والأعصاب، وتامر هو الحفيد والوريث الوحيد لثروة الجد، وهو شاب أوربي الملامح والتصرفات، لا يعتل للدنيا همًّا، فقد ولد في فمه ملعقة ذهب وما زالت الملعقة في فمه حتى اليوم، فتامر طفل في السابعة والعشرين، نقي السريرة ولا يضمر شرًّا لأحد، لم يرد أن يكون طبيبا مثل أبيه وأمه وجده، مجموعه أدخله طب أسيوط بناء على أمر العائلة، ولأنه لا يحب الصراعات والمشاكل فقد نزل على رغبتهم لكنه لا يعيش في أسيوط، هو يأتي زائرا كلما تطلبت الظروف لذلك سألته: "قاعد قد إيه؟"، قال: "يومين تلاتة أخلص شوية ورق وارجع"، قلت: "يا جدع انت الواحد ما بيلحقش يشبع منك"، قال: "عندي ارتباطات في مصر، وبعدين طالع لندن، ما تيجي معايا"، لم تكن عزومة مراكبية، فمعرفتي بكرم تامر تؤكد أنه يعنيها لكني قلت: "أجي معاك مصر ولا لندن"، قال: "انت بتقول فيها! تيجي معايا لندن أشهيصك وأوريك اللي عمرك ما شفته"، قلت: "والجامعة؟ والامتياز؟"، قال: "يا أخي أنا بحب فيك كل حاجة إلا تقفيلتك الصعيدي دي؟"، قلت: "أنا نوبي مش صعيدي.. صعيدي دي عندنا سبه"،

قال في طفولة: "بجد! سوري جاد"، ثم أردف شارحا: "قصدي انك واخد الحكاية جد قوي ولازم تحضر كل المحاضرات والسكاشن، الدنيا مش جد قوي كده، فيها حاجات تانية نتعلمها غير الطب والدم والقرف". أشفقت على نفسي من مجادلته وقمت إلى متاعي أعلق ملابسي في الدولاب فوجدت فطيرة مربى لفتها أمي بعناية حتى لا تنشع على الهدوم، ما إن تذوقها تامر، حتى صاح: "هو أبـوك عايش؟"، أجبت متعجبا: "آه"، قال: "خسـارة، كان نفـسي أتجوز أمك عشـان تعملي جام باي مـن دي كل يوم"، فناولته إياها: "خدها بحالها كلها في أوضتك، أنا تعبان وعايز أنام". خرج يلتهم الفطيرة مؤكدا أنه سيتركني أنام ثلاث ساعات، نلتقي بعدها لنسهر سويا. فأغلقت الباب وألقيت نفسي على السرير متخذا وضع السرحان والتأمل، لكن ثقل جفوني وهددان جسمي ووش رأسي غلبوني فنمت، نمت بعمق لم أنمه في قريتي مسقط رأسي وملعب طفولتي، وفي منامي لعبت مع سمر عرايا في النيل وجريت أسابق حامد في الزروع، ولهونا فوق كوم الدريس وقال حامد: "خد شهادتك وكفاياك علام"، وقال عمي دهب: "حنزرع أرضنا بإيدينا"، وقال الشـيخ منصور: "و إسـلاماه"، وقال تامر: "جاد.. جـاد اصحى يا جاد"، فتحت عيني فوجدته فوق رأسي يوقظني: "يخرب عقلك ده انت كنت نايم جوه قوي"، فدعكت وجهي سائلا عن الساعة فقال: "تسـعة"، ياه!! نمت ثلاث سـاعات! فقمت وتحممت وارتديت قميصًا وبنطلونًا لم أرتدهما طوال شـهر الإجازة وخرجنا، ركبت بجواره لا أدري إلى أين، وخرج بالسـيارة مـن البوابة، ولم ينس أن ينفح ضرغام

خمسة جنيهات ويذكره بضرورة غسل السيارة في الصباح الباكر وانطلقنا إلى كورنيش المدينة، وقال تامر: "نفسي أشوف توم وجيري"، قلت: "اشمعنى"، قال: "المرة اللي فاتت عزموني، وماجاتش فرصة أردلهم العزومة"، وراح يثرثر في كلام فاضي وصوت كاسيت السيارة يلعلع في جو المدينة الصاخب المزدحم بالأضواء والكهارب واللافتات والإعلانات والكلاكسات.. تبًّا لليل المدينة، قلت "أف.. اطلع يا عم على توم وجيري".

مدحت وبهجت الورداني توأمان متطابقان في الشكل، لكن متنافران في كل شيء، وقد أسماهم تامر توم وجيري، فمدحت أهلاوي وبهجت زملكاوي، مدحت سكري وبهجت حشاش، مدحت بخيل وبهجت كريم، مدحت ليسانس حقوق لثالث مرة وبهجت بكالريوس هندسة لثالث مرة أيضا، وهما كقطبي المغناطيس، سالب وموجب، لذلك تجدهما متلاصقين ببعضهما بشكل مرضي، حتى إن سقوط مدحت في الحقوق أجبر بهجت أن يسقط في الهندسة ليظل مع توأمه، هما من المنصورة ولا يعيشان في بيت الطلبة، بل يستأجران شقة في أحد أبراج المدينة، وشقة توم وجيري ملتقى السهرات والمذاكرة الجماعية أيام الامتحانات، أما باقي أيام السنة فهي ماخور وبار وغرزة وملجأ للمشردين والمشردات من الطلبة.. ركن تامر سيارته، وصعدنا إلى الشقة في الدور الأول، وما إن اقتربنا من الباب حتى انفتح عن رجل ملتحٍ قصير الجلباب وزبيبة صلاة شبه الوحمة في جبينه يخرج، والتوأمان يودعانه لدى الباب، فرحبوا بنا وأدخلونا بسرعة والرجل يقول رافعا سبابة التحذير: "دي آخر مرة حتكلم معاكو، بعد

كده فيه تصرف تاني، سلام عليكم"، انغلق الباب والتفت إلينا الأخوان بادين الهم فصاح تامر: "إيه المقابلة اللي زي وشكو دي؟"، قال بهجت محتضنا إيانا: "لامؤاخذة يا جماعة، الراجل الضلم ده عكنن علينا"، أكمل مدحت: "ده جارنا في التاسع مش عاجبه السهر والمزيكا كل ليلة"، صاح تامر: "وهو مال أمه"، قال مدحت: "أخو مراته يبقى صاحب العمارة"، أكمل بهجت: "واحنا مأجرين مفروش"، أكمل مدحت: "يعني نلاقي روحنا في الشارع"، قلت: "مش لازم مزيكة عالية يا جماعة بدام بتضايق الجيران"، أوضح لي توم وجيري باقي الصورة، ففي السنوات الأخيرة ظهرت في البلد موجة تدين مفاجئ، ونشطت الجوامع والزوايا نشاطا غير مسبوق، وطفا على السطح لون غامق من الرجال والنساء الذين آلوا على أنفسهم نشر الإسلام في ربوع البلد، فكثرت دروس العلم وتحفيظ وتفسير القرآن والسنة والشرع والحلال والحرام بين النساء، أما الرجال فقصروا الجلباب الصعيدي وأطلقوا اللحى وعفوا الشارب، وتفننوا في رسم الزبيبة وتكبيرها، وتواجدوا في الجوامع والزوايا بدلًا من المقاهي، وانصرف الشباب عن القراءة والرياضة إلى تحصيل العلم من مشايخ البلد، وطالت أوقات الصلاة، فبعد أن كانت لا تتعدى العشر دقائق وصلت إلى ساعة، والصلوات الخمس في الجامع، وانتشرت كاسيتات وأسطوانات المقرئين العرب والوعاظ السلفيين، وعرف الناس ابن تيمية وابن ماجه وابن عبد الوهاب، فقلت في سذاجة: "طب ودي فيها إيه؟ الناس رجعت لربها عقبالكو"، قال توم: "ما هو اللي ما يعرفش يقول عدس"، أضاف

جـيري: "وانـت حتعرف منين ما انـت يا في بلدكم يا مدفـون في المعمل والكليـة والمحاضرات"، أمن تامر على كلامة: "لسـه كنـت بقوله، بقاله سبع سنين لا بيخرج ولا بيشوف الدنيا، البلد اتغيرت قوي يا جاد، حتى مصر اتغيرت وحصل فيها نفس اللي حصل في أسيوط"، لماذا نقول مصر ونحن نقصد القاهرة؟ عنَّ لي السؤال فسقطت منهم، لماذا تسمع شخص يقول أنا نازل مصر، يعني رايح القاهرة! ولماذا لا تسمع أمريكيًّا يقول أنا رايح أمريكا، وهو يقصد واشنطن العاصمة؟ ولا إنجليزيًّا يقول أنا رايح إنجلترا قاصدًا لندن؟ كيف اختصرنا واختزلنا مصر الدولة في مدينة واحدة، وحين تأملت وجدت أن تاريخ مصر كله هو تاريخ العاصمة، سواء كانت منف أو طيبة أو الفسطاط أو القاهرة، التاريخ لا يذكر إلا أخبار العاصمة وأحداث العاصمة وناس العاصمة، حتـى المحتلون الذين توالوا علينا، احتلوا مصر كلها باحتلالهم العاصمة، ما هذه المركزية! وأفقت على صوت تامر يقول: "قوم يا ابني نشوف لنا حتة نروحها".

17

انطلقت سيارة تامر تقلنا نحن الأربعة، ومد يده أسفل كرسيه، وأخرج زجاجة ويسكي بلاك ليبل لترًا ونصفًا، فصفق مدحت مهللا وصاح بهجت: "بدام كده يبقى نعدي على البت هبة نجيبها معانا"، فقلت: "هي لسة عايشة؟"، قال بهجت: "هي اللي معاها البولوبيف" يقصد الحشيش، فهبة تشرب وتدخن وتبلبع وتشم وتتعاطى أي شيء في أي وقت، إنسانة مثال الضياع، هي طالبة في معهد دار المعلمات بأسيوط، وهي أصلا قاهرية وتقيم في شقة مع مجموعة من الطالبات، ويبدو أن أهلها يأسوا منها بعد هروبها المتكرر من مراكز علاج المدمنين، فتخلصوا منها بإرسالها أسيوط، وهي تعيد سنة ثانية للمرة الثالثة والأخيرة، ولم ينقذها من الرفد سوى ثراء ونفوذ أبيها يونس القاضي عضو مجلس الشعب وصاحب مصانع القاضي للمفروشات، تزوج فتاة تصغره بثلاثين عاما بعد أن طلق أمها،

التـي تزوجت شـابًّا يصغرها بعشريـن عاما، فكانت هبـة هي الضحية، أم تراهـا مذنبة؟ لماذا أُحيط نفسي بهؤلاء الفشـلة؟ لمـاذا أنجذب إلى قاع الشـباب؟ رغم أني لا أشرب ولا أدخـن ولا أرتكب المعاصي، بل أصلي بانتظام وأصوم وأتزكى، لعله انجذاب الأضداد! لعله شغف الاضطلاع على الجانب الآخر من الحياة، لكن بالتأكيد حبهم لي هو السبب الرئيس، وأنا لا أسـتطيع أن أقابل حبهم بكره أو نفـور، فقد علمني جدي الكبير أن أبـادل الحب بالحب رغم الاختلاف، وأفقت على صوت هبة: "إزيك يا.." نسيت اسمي كالعادة، فهبة لا تكمل جملة أو سؤالًا أبدا، وقد تعودنا منها ذلك فقلت: "الحمد لله يا هبة انتي عاملة إيه؟" فهزت رأسها وكانت تلك آخر كلمات لها في السهرة، البعض يرونها حالة ميؤوسًا منها، والبعض يرونها إنسـانة مسكينة، أما أنا فلا أراها مطلقا فهي أولا رفيعة كما الفتلة، جافة كما الحطب، لعلها الوحيدة الأرفع من الواد حامد! محنية الظهر تتحرك بصعوبة ورعشة مسـتمرة في كل مفاصلها وأطرافها، يعرفها كل صيادلة البلد ويمدوها بالأقراص والبلابيع في أيام القحط، وهي أيضا مشـهورة في المستشـفى الجامعي لتكرار نقلها بين الحياة والموت، لدرجة أننا أطلقنا اسمها على الحالة فنقول: "حالة هبهبة" أي تعاطي جرعة زائدة "أوفر دوز"، وقد أجمع وأجزم الأطباء بأن نهايتها ستكون في واحدة من تلك النوبات.. توجهنا إلى أحد مراسي المراكب السياحية المنتشرة على ضفاف النيل، وقد تعودنا أن نسـتأجر منه مركب نقضي فيه سـهرتنا، إلا أن صاحب المرسى ويُدعى المعلم بُرعي رفض وتقريبا طردنا، وقد لاحظت تغير هيأته بعد أن

أطلق لحيته وقصر جلبابه وظهرت له الزبيبة رمز التقوى، وهو الذي كان يمدنا في الأمس القريب بزجاجات البيرة والمعسل ومستلزمات السهرة، والعجيب أن الموقف تكـرر معنا عند أول ثلاث مراسٍ، حتى عثرنا على صيـاد يمتلك فلوكة كبيرة بـشراع صغير يُدعى أبا أدهـم، وقد وافق أن يؤجرنا المركب مقابل عشرين جنيها للسـاعة، وهو رقم فلكي إذا عرفت أننا كنا نستأجرها بثلاثة جنيهات للساعة، ماذا حدث؟ متى تغيرت أحوال الناس؟ فقصروا الجلاليب وأطلقوا اللحى وضربوا الزبيبة؟ لماذا نقول زبيبة وليس بلحة أو زيتونة، وبعضها يشبه الدوم، وقد عبر بهجت عن تساؤلنا: "هو إيه اللي حصل؟"، فخرجت إجابات متنوعة من أفواهنا مثل تخلف وموجة ووهابية وسـلفية، لكن هبة قالت كلمـة خرمت أذني فأفزعتني، وهبة لا تقول بل تغمغم وأكاد أجزم أنها غمغمت: "الفجم".

كأنها لسعتني بكلمتها، فانتفضت موليها كل اهتمامي، حتى إن المركب اهتزت، فتصايح مدحت: "بالراحة يا عم جاد، مالك بتتفظظ ليه؟"، فرد تامر: "بلاش تطلع فوقانك دلوقتي"، وتسـاءل بهجت: "مش فاهم إحنا إيـه اللي جابرنـا نصاحب واحد فايق كده"، لم أعرهم اهتماما، ولم أسـمع ضحكاتهم وقفشـاتهم حول فوقاني، فقـد كان كل كياني منصبًا على هبة: "إنتي قلتي إيه؟!"، فحتى هذه اللحظة لم أتصور أن موضوع الفجم له وجود خارج نطاق قريتنا، فإذا بهذه الهبة القاهرية التي تعيش في أسـيوط تعرف الفجم، أو على الأقل تعرف الاسـم! أعدت سـؤالي: "قلتي إيه يا هبة؟"، لكنها ظلت على تنيحتها ولم يأتني منها ردا أو إيماءة أو إشـارة أو

خلجة، وجه جامد مستسلم لعالم ليس عالمنا، عالم موازٍ لنا، فهي موجودة وغير موجودة، حاضرة غائبة، ولم أستسلم بل كررت السؤال محاولا أن أحصل على رد، لكن بهجت قطع محاولاتي باديا السطل: "ما تحاولش.. هي كده خلاص". صرخ مدحت مفزوعا رافعا زجاجة الويسكي أمام عينيه: "يخرب بيت عقلك يا هبة، ضربتي نص القزازة! بتشربي كازوزة؟"، لا رد من هبة راحت تنفث دخان الجوزة من فمها وأنفها في كثافة رهيبة، فغلفتها سحابة ثقيلة كأنها تخرج من كل رأسها وشعرها وأذنيها، فصاح تامر ضاحكا: "البت هبة شاطت"، ضجينا جميعا ضاحكين، فمنظرها فعلا كأنها خارجة من الفرن حالا، وكلما نظرنا إليها وهي كالتمثال المدخن زاد ضحكنا، وقال مدحت: "طب حد يطفيها"، زاد الضحك وقلب إلى كريزة، أمسكنا لها البطون وسالت الدموع، فقلت بدوري: "هبه إلهة السطل"، فكانت القاضية التي ألقت بهم يتمرغون في أرضية المركب التي زاد اهتزازها بشدة، فسقطت الأكواب والزجاجات وأحجار المعسل، وانقلب منقد الفحم وتطاير شرره فأصابنا جميعا فاختلط الضحك بالصوات وتقافزنا ننفض النار عنا، وصرخ تامر "البت بتولع بجد"، فالتفتنا بسرعة لنجد بعض قطع الفحم المتطاير استقرت في شعر وطيات ملابس هبة، أسرع بهجت وقد كان أقربنا لصفيحة في ركن المركب بها ماء وألقاها عليها، فإذا بالنار تزداد اشتعالا وتمسك فيها كلها، صرخ تامر: "يخرب مخك ده جاز مش مية"، فجأة قفز مدحت ودفع بهبة من فوق حافة المركب فسقطت في النيل وانطفأت النار، لكن هبة اختفت. يا ليلة سودة! أسرعنا إلى الحافة

كلنا دفعة واحدة، فمالت المركب ميلة شديدة ونحن نطبش بأيدينا باحثين عـن هبة، وفجأة انقلبت المركب وسـقطنا جميعا في الماء، كانت الثواني تمر كأنها دهور، ولأني الفايق الوحيد فقد اسـتدعيت خبرتي السابقة من أيام الطفولة وغطست في اتجاه التيار أتحسس طريقي في ظلام ماء النيل الثقيل، وأنا أعتبر من الغطاسـين المهرة في قريتنا، حتى لامسـت يدي شـيئًا يشبه القماش، فأمسـكت به وجذبته وكان نفسي على وشك النفاذ، فقببت على السطح، ونظرت إلى ما أمسكت فكانت هبة، مثل فأر احترق وتبلل، مفتحة العينين مستسلمة استسلام الخساية، فقاومت التيار جاذبا إياها حتى عدنا إلى المركب المقلوب، وقد تشبث به الرفاق ناهجين لاهثين مفزوعين، وما إن رأونا حتى تصايحوا حامدين شـاكرين، ومرت دقيقة اسـتجمعنا فيها قوانا وعقولنا، فاكتشفنا أننا نبعد عن الشاطئ مسافة لا تقل عن ثلثمائة متر، وتساءل بهجت: "والعمل؟"، قال مدحت: "العمل عمل ربنا"، قال تامر: "ربنا مش حينزل ينقذنا، ما فيش غير إننا نعوم"، صاح مدحت البخيل: "والمركب! أنا مش حدفع حاجة..."، قاطعه تامر: "وده وقته يا مدحت! أنا حشيل الليلة"، وتناوبنا حمل جثة هبة التي ظلت على تتنيحتها، كأن ما جرى كان لشـخص آخر غيرها، وما إن اقتربنا من الشاطئ حتى جذبني شيء بقوة لأغطس فرأيته.. الفجم.

لف اللعين ذيله حول ساقي وراح يجذبني لأسفل، وأنا أقاوم بكل قوتي فتأخرت عن باقي الرفاق اللذين وصلوا الشـاطئ، التفت تامر فوجدني أقب وأغطس، فقفز في الماء وسـبح بمهارة وسرعـة نحوي، جذبني من

ذراعـي الممـدودة تبحث عن قشـة أتعلق بها، وسـحبني تامـر بقوة تجاه الشاطئ وهو يصرخ في: "ما تغرقنيش معاك"، وهو لا يدري أنه لست أنا الذي أجذبه لأسـفل، ألقى بهجت عوامة فلين مربوطة بحبل كانت على المرسـى، فتعلق بها تامر، جذبنا بهجت حتى لامست قدمي طمي القاع، لكني ظللت متشـبثا بـذراع تامر القوية حتى خرجنا إلى اليابسـة، فألقينا جسـدينا ناهجين ومن بين أنفاسـه المبهورة، قال تامر: "آخر مرة حنقذك يـا ابن الكلب، كنت حتغرقنا"، لم يكن فيَّ نفس ولا صحة أرد، وحتى لو رديت، هل سيصدق أنه الفجم الذي يجذبنا؟ بالتأكيد سيقول إني مجنون، وتذكرت هبة فرفعت رأسي أسـتطلع حالتها، فوجدتها جالسة على سلم المرسى الحجري بنفس التتنيحة تتفرج علينا من عالمها الموازي، وقطع حالة الاسـترخاء التي تصيبنا بعد شـد عصبي وعضلي شديد صوت أبو أدهم المراكبي يقول: "فين المركب؟"، أشاح له بهجت: "إحنا كنا حنغرق، وانت الـلي همك المركب"، جأر الرجل جـأرة تنم عن بداية غباوة: "انتوا تولعو بجاز، فين المركب ياض انت وهو"، في قرف أشاح تامر بيده: "ششش بس يا حمار انت، بـكام المركب دي"، وجدها الوغد فرصة للاصطياد في الماء العكر فهرش في قفاه وقال: "بـ.. خمسـين ألف جنيه"، أصدر تامر شخرة إسكندرانية وقام واقفا: "خمسين ألف عفريت لما يركبوك"، فجأة تحول ابن الزوات إلى عربجي، وتامر حين يقف وينفش عضلات صدره وينفخ الباي والترابيس يبدو أضخم من حجمه مرتين خصوصا في التيشيرت الضيق الذي يرتديه والذي زاده البلل التصاقا بجسمه، فتراجع أبو أدهم نصف

خطوة، فاستطرد تامر بصوت لا شك في جده: "هم خمستلاف جنيه، ولا تحب نروح القسم؟"، حين سمع كلمة القسم اهتز، مما شجع مدحت: "انت مأجرلنا مركب مضروبة ومش مرخصة، وكنت حتموتنا يعني إهمال كاد يودي لوفاة، ومزاولة نشاط من دون ترخيص"، تقافز الرجل وكاد يبكي: "يعني يرضي مين ده؟" حاصره تامر: "حتاخد الخمسة، ولا نلبسك قضية تعويـض؟"، جلس الرجل مقرفصا يهيل تراب الرصيف على رأسـه: "يا خراب بيتك يا أبو أدهم"، صاح مدحت: "الولولة مش حتجيب نتيجة، قلت إيه؟"، ضرب كفًّا بكف وقال متمسـكنا باكيا: "طب هزهم شوية"، وتركتهم ينهون صفقة المركـب وسرحت في المصيبة التي كنت فيها، هل جـاء ورائي يطاردني، أم أن لكل بلد فجمهـا؟ ولماذا أنا بالذات دونًا عن باقي الرفاق؟ وانحصر تفكيري في هبة، شيء ما يدفعني للبحث في أغوار تلـك الفتاة الضائعة التي تعيش في العـالم الموازي، علها تطلعني على سر الفجـم، فاقتربت منها مطمئنا: "عاملة إيه يا هبـة؟"، ويبدو أن حمام الماء البارد الذي كانت فيه أفاقها بعض الشيء، فهزت رأسها إيجابا وغمغمت: "حم لله"، فتشجعت وسألتها: "إنتي شفتي الفجم؟"، هزت رأسها إيجابا فسـألتها: "فين احكيلي أصل أنا شـفته"، لكنها ظلت تهز رأسها في تزايد مطرد، ثم راحت تهـز جزعها للأمام والخلف عاقدة ذراعيها على بطنها، وهي تغمغم: "فجم فجم فجم فجم"، وبحاستي الطبية استشعرت بوادر أزمة، فصحت مناديا: "يا جماعة هبة تعبانة، لازم ننقلها المستشفى".

18

وصلنا المستشفى الجامعي، ونحن في حالة يُرثى لها، وتوجهت من فوري أستدعي فريق الاستقبال: "يا ربيع يا هاشم" الذين أسرعوا إليها، وما إن لمسها الممرض ربيع، حتى صرخت وجريت منه مذعورة صارخة، لكنهم حاصروها عند شباك الكوريدور، فاستدارت متخذة وضعًا دفاعيًّا ناصبة ذراعيها أمامها مشهرة أظافرها كحيوان مفترس، وقد اتسعت حدقتا عينيها في جنون لا شك فيه، ولأن ربيع وهاشم مدربان فقد نجحا في الانقضاض عليها وتكبيلها وهي تصرخ محاولة التخلص من الكلابات الحديدية التي تقيدها وبسرعة أقبل دكتور منير وأعطاها حقنة مهدئ قوي فوري المفعول، فهدأت واسترخت عضلاتها المتشنجة، فوضعوها على الترولي وأسرعوا بها إلى غرفة الكشف فدخلت معهم، بادرني دكتور منير: "الحالة الدور ده غير كل مرة، هي واخدة إيه؟"، قلت: "خمرة وحشيش"، ثم أضفت: "متهيألي

كانـت مبلبعة حاجة قبلهـم"، زفر زفرة طويلة مسـتغفرا، وراح يفحص قاع العين طالبا عينة دم من ربيع، فأسرع يجهز الحقنة، لكنه توقف مشيرا إلى سـاقي: "إيه الـدم ده يا دكتور جاد"، نظرت إلى سـاقي التي كان ذيل الفجم ممسـكا بها، فوجدت دماء غزيرة تنزف وقد تمزق البنطلون طوليا، كأنها شـقت بمخالب، فاتجهت إلى دولاب الأدوات وأخرجت مطهرًا، لكن الممرض هاشـم قال: "اقعد انت يا دكتور"، وكشف عن ساقي وبدأ ينظف الجروح كالخرابيش بطول الساق فقال: "هي خربشتك؟"، قلت: "هه.. لا أنا يظهر حكيت في سلك ولا حاجة"، وتركته يضمد الجرح، ونظرت إلى هبة المستلقية في استسلام وقد سحبوا منها عينة الدم، وأسرع بها ربيع إلى المعمل

كم أنتِ مسكينة يا صديقتي.. هل نحن فعلا أصدقاء؟ عَنَّ لي السؤال وكـبر، هل تامر وتوم وجيري أصدقائي؟ وما المعيار؟ زمالة الجامعة؟ ما الشيء المشترك بيننا يجمعنا؟ يقول جدي الكبير: "صديقك من صدقك"، وهل أنا أصدقهم؟ لو كنت أصدقهم لصدقتهم النصيحة، أو ابتعدت عنهم، لكني أنجذب إلى فسـادهم لأوازن مثاليتي، وهل أنا مثالي؟ وما المثالية؟ وراحت الأسئلة تتوالد من بعضها البعض، أقف عند كل كلمة وأحللها، وأفقت وأنا في سرير استراحة الأطباء، ودكتور عويس عميد الكلية يجلس عـلى طرف سريري، كرد فعل تلقائي اعتدلت جالسـا، فقام وجلس على السرير المجاور: "حمد الله ع السلامة"، شكرته متسائلا عن سر تلك الزيارة،

فدكتور عويس لا يخرج من مكتبه إلا ليمر على الأقسام: "ده شرف كبير يا دكت..."، قاطعني معدلا من وضع نظارته: "أنا عايز أفهم واحد زيك إيه اللي يلمه على شـوية الفشلة دول.. دول ولا واحد فيهم حيفلح، حتى لو أخدو شهاداتهم" لم أجد إجابة أغبى من: "صاحبك من بختك"، قال: "لا لا سيبك من الكلام اللي يودي في داهية ده. إنت راجل متعلم، ما تاخدش بالخرافات، بخت إيه وكلام هجص إيه..". وراح يعظني شارحا أن اختيار الأصدقاء يكون بإرادة وعقل مستنير، وليس بختًا وصدفة وحظًّا، لكني لم أسـمع بالضبط ما قاله، لأني تخيلت لو عرف موضوع الفجم! بالتأكيد سيتهمني بالجنون، وأفقت على جملة: "أول يوم ليك في الامتياز مايبشرش بالخـير يا جاد"، ثم مال إلى الأمام ناصحا: "يا ابني إنت قدامك مسـتقبل كبير، لو ضيعته ماحدش من المقاطيع دول حينفعك"، قام واقفا، فحاولت النهوض، لكنه وضع يده على كتفي أبقاني في السرير: "شـد حيلك وركز في الامتياز، أنا مراهـن عليك"، قبل أن ينصرف قلت: "ممكن أتابع حالة هبة بنفسي؟"، قال: "لو شغل ممكن، لكن لو صداقة لأ".

قسـم الصحة النفسية هو أقل الأقسام حظًّا، وهو يقبع في مبنى صغير متهالـك في أحد أركان الكلية، تحيطه خرابة كانت حديقة، فهو قسـم لا يقبل عليه أحد دارسًـا أو معلمًا أو ممارسًـا، وهو القسم الذي أودعت فيه هبـة حتى ينظر في أمرها، وقد أرسـلت إدارة المستشـفى إلى ذويها لتخلي مسئوليتها عنها، وهو إجراء نصحت به الشئون القانونية لتجنب أي عواقب

لتدهور حالتها، وقد أرفقت الإدارة المالية مطالبة بمصروفات العلاج مع الإخطار، وقد أكدت إدارة العلاقات العامة وشئون المرضى على ضرورة إرسال الإخطار بالبريد الحكومي بعلم الوصول، ورغم وجود تليفونات أهلها في استمارتها، إلا أن الشئون القانونية لا تعترف بالتليفونات، وبين الإدارة والشئون القانونية والمالية وشئون المرضى، نسوا الشئون الإنسانية، وتغاضوا عن الشئون الأخلاقية وقدسية مهنة الطب، نسوا قَسَم أبيقراط، نسوا أن مهمتنا الأساسية رفع المعاناة عن الإنسان.

من خلف الزجاج الحاجز وقفتُ أرقب هبة في الغرفة المبطنة، وهي غرفة حجز بطنت حوائطها بألحفة سميكة ناعمة للحالات التي يُخشى أن تأذي نفسها، فتقلم أظافرها وتوضع تحت الإشراف المباشر على مدار الساعة، لكني حين حضرت لم أجد أي إشراف أو مشرف، وكانت هبة تقف في ركن الحجرة تدفع عن نفسها شيئا يهاجمها فتخفي وجهها تارة وتظهره تارة، وانعكست صورتها على الزجاج، فإذا بي أرى الفجم يستفرد بها في سجنها المبطن، أسرعت أحاول فتح الباب لكنه كان موصدًا بالمفتاح، فأسرعت خارجا مناديا المشرف الذي استيقظ لتوه قائلا في قرف: "في إيه؟"، قلت في لهفة: "في حيوان بيهاجم هبة"، قفز مفزوعا وجرينا نحو الغرفة وهو يقول: "يانهار اسود حيوان! وده دخل إزاي؟"، وما إن وصلنا، حتى نظر من خلال الزجاج، فرآها تصارع الهواء صارخة: "ابعدوه عني.. كفاية"، فالتفت إليَّ سائلا في حنق: "حيوان إيه اللي بتقول عليه؟"، قلت وأنا أشير

للفجم: "مانتش شـايف!"، قال: "دي بتصـارع حاجة في مخها يا دكتور، وبعديـن انت إيه اللي جابك هنا؟"، قلـت: "أنا واخد تصريح من دكتور عويس أتابع حالتها"، قال: "إنت امتياز؟"، قلت وقد بدأ صبري ينفذ: "مش مهم أنا إيه، افتح الباب"، في عناد الموظفين اتجه إلى كرسي وجلس واضعا سـاق فوق سـاق: "هاتلي الكلام ده مكتوب ومختوم من دكتور عويس"، لم أتحمل بروده، فانقضضت عليه أوسعه ضربا، ونجحت في استخلاص المفاتيح منه، وأفلت مني هاربا وقد فاجأه هجومي: "وديني لأبلغ عنك، أنا تضربني! طب حوريك"، خرج فأغلقت باب القسم الخارجي بالمفتاح، وفتحت باب هبة ودخلت، ما إن رأتني المسكينة، حتى ارتمت في حضني باكية: "حوشه عني، بيعضني.. كفاية"، أمسكت بالقلم وطعنته كما طعنته من قبل ففر هاربا، وما إن اختفى حتى هدأت هبة واسـتكانت وجلست مرتعشـة في ركن الحجرة، اقتربت منها وجلسـت بجوارها، وقلت: "ما تخافيش أنا مش حسيبك"، أشارت إلى القلم بعينيها فقلت: "ده قلم بحارب بيه الفجم"، ترددت قبل أن تمد يدها تمسـك بالقلم تتأمل ذلك السـلاح الصغير الـذي يقهر الوحش، فقلت مطبقا يدهـا لتحتفظ بالقلم: "خليه معاكي"، لأول مرة تبتسم واحتضنت القلم بكلتا يديها كأعز شيء في حياتها، لاحظت أن طعامها لم يمس، فقلت: "مش حتاكلي؟"، هزت رأسـها نفيا فقلت: "بس أنـا جعان"، زحفت على ركبتيها وأحضرت الطعام وناولته

لي، فقلـت: "مش حاكل إلا لو كلتـي معايا"، فمدت يدها وراحت تأكل قطعا صغيرة، فشـاركتها كأني آكل معها، وفجأة سمعنا خبطا على الباب الخارجي الذي نسيته مغلقا.

عادت هبة تنكمش في ركن الحجرة لدى سماع صوت الخبط، قمت متجها للباب الذي زاد الخبط عليه بأكثر من كف ثقيل، ظل يتصاعد حتى تحول إلى محاولـة اقتحام، لدرجة أني ترددت، لكني قررت المواجهة، فمن يقف في وجه الفجم لا يخاف من مواجهة بعض الرعاع، وكما توقعت وجدت المـشرف الغبي ومعه ثلاثة من أمـن الكلية لا يقلون حجما ولا غباوة عن ضرغام ، فأعدت النظـر في مقارنتهم بالفجم، وما إن انفرج الباب حتى دفعه أحدهم فكاد يوقعني أرضا، فتراجعت في رشاقة متفاديا خبطة الباب، وفي ثـوان كنت مكبلًا من يميني ويسـاري مشـلول الحركة من اثنين من الثـيران المطيعة لأوامر البيه المشرف، الذي تقدم نحوي في ثقة وابتسـامة تشفي تكسو وجهه، وقال: "بقى بتضربني"، قلت ولا أدري كيف واتتني الشـجاعة: "ماهو من غباوتك"، يبدو أن اليأس مرتبط بالشـجاعة، وقد قال جدي الكبير مـرة: "ما تحاربش حد ماعندوش حاجة يخسرها"، قال في برود لزج: "طب وريني بقى زكاوتك حتنجيك مني إزاي، بس قبل ما أفرمك بدي أسألك.. كل ده عشان البت المقفعة دي؟"، قلت: "دي مريضة وعايزة عناية"، فضحك عن أسنان مثرمة وقال: "لا ناصح يا مفتح"، ثم انقلبت سحنته مكفهرا صارخا: "إنت فاكرنا بقرون؟"، اندهشت حقيقة

من تفكيره، فابتسمت مستهزئًا من حقارة الفكرة، وقلت: "مش بقولك غبي"، ثم نظرت ناحية المسكينة المتكورة في ركن الحجرة فنظروا معي: "ده منظر واحدة تتعاشر ولا حتى يتبص لها"، ويبدو أن منطقي كان قويا لدرجة أني اكتسبت تعاطف الثيران، لكن الوغد صاح: "الكلام ده مش حينجيك من إيدي"، ثم ملتفتا إلى الثيران آمرا: "نيموه"، وبضغطة واحدة نيموني، ووقف فوق رأسي ثم رفع قدمه وبتلذذ وضع حذاءه فوق صدغي، وقال من بين أسنانه: "بقى عاملي فيها دكتور، طب إيه قولك إني بعد ما أكسرلك عضامك، حقدم فيك بلاغ بالاعتداء عليَّ أثناء تأدية وظيفتي، والشهود أهم".

قبل أن أرد جاءني صوت أعرفه بعث الأمل في دمي، وقبل أن أقف كان تامر وتوم وجيري يهجمون على الحرس هجمة رجل واحد أربكتهم، وظهرت قدرات تامر الرياضية خصوصا في الملاكمة حين عالج أقرب الحرس بقاضية خطافية أسقطته أرضا، وحاول جناح الحرس الأيمن شن هجوم مضاد، لكن قوات المشاة المترجلة المكونة من بهجت ومدحت تصدت لهم وحاصرتهم، حتى تمكن تامر باعتباره المدفعية الثقيلة أن يدك حصونهم بضرباته المستقيمة، فبدأت قوات العدو تتراجع، ومن موقعي على الأرض تدحرجت فصرت خلفهم فتكعبلوا في ووقعوا، انقضَّ عليهم تامر وبهجت ومدحت ولم يتركوهم إلا سطيحة، أما الوغد فقد انزوى في ركن مذعور، اقتربت منه في خطى النمر قبل الانقضاض فقال بصوت رعديد: "يا دكتور

أنا ماضربتكش"، فلم أرد، لكني أشرت إلى الأرض فركع، فدفعته بقدمي فاستلقى، فوضعت حذائي فوق وجهه وقلت: "أعمل فيك إيه؟"، بدأ يتشحتف باكيا وقال: "والله العظيم والله العظيم ما عملتلك حاجة"، لشدة اشمئزازي منه تركته، ورفضت أي محاولة للمساس به، لكن تامر لم يخلصه ذلك، فأوقفه ولطشه قلمًا من باب الإهانة: "ماتعملش كده تاني يا حيوان"، وما إن سمحنا لهم بالرحيل، حتى خرجوا عدوًا، والتفتنا إلى هبة.. أين هبة؟ لقد اختفت!

19

بحثنا عنها في كل مكان، وتبادلنا الآراء حول احتمالات أماكن وجودها، فاستقر الرأي أن نسأل عنها في الشقة التي تقطنها، فتوجهنا من فورنا إليها، لاقانا صاحب العمارة الجالس أمام بابها يستمع لكاسيت مزعج لواعظ بدوي يصرخ بلا مبرر، سائلا: "عايزينها في إيه؟"، أخبرناه أنها اختفت من المستشفى، وأننا قلقون عليها، فقال: "وانتو تقربولها؟"، قلنا: "زمايل"، قال مستهجنا: "نعم يا أخويا! زمايل!"، قلت وقد بدأ صبري ينفذ: "هو لازم نقربلها عشان نسأل عليها؟"، فلم يعجبه نبرة صوتي، فوقف مواجها مبديا استعداده للغباوة: "ورينا عرض كتافك، ولو حد منكو هوِّب ناحية البيت هنا، مش حيحصله طيب"، فتبادلنا النظرات نقيم الموقف فنحن أربعة، وهو وراءه عمال المحلات أسفل عمارته والشارع والحي، فقررنا الانسحاب.

ماذا حل بالناس؟ فمنذ أن حللت وأنا لا أرى سوى الكره والبغض والحقد والنفور، أين كنت من هذا كله؟ كيف نما وترعرع بين الناس؟ يبدو أني استغرقت كثيرا في دروسي ومذاكرتي ومستقبلي طوال السنوات الماضية، فلم أرَ الفجم وهو ينهش البلد ويبث سمه في أجساد وأرواح الناس، وأفقت على صوت بهجت: "تفتكرو بتوع الأمن اللي ضربناهم حيشتكو؟"، أكد مدحت: "ويفضحوا نفسهم ويطلعو انضربو من شوية عيال؟"، ارتحت لهذا التفسير، فهم صعايدة أكثر منهم رجال أمن وقانون، ولن يضحوا بسمعتهم، وقطع جلستنا صوت الواد عجينة وهو فراش بيت الطلبة يطرق الباب زاعقا: "يا داكتور جاد، الباشا داكتور عويس عايزك تروحله مكتبه"، توترت الأعصاب وتوجسنا وقمت أغتسل وأغير ملابسي وأنا كلي حيرة وقلق، فهذه أول مرة يرسل دكتور عويس في طلبي، أيكون المشرف الوغد اشتكاني؟

لم يقل كثيرا، فقط سألني "إيه اللي حصل؟"، فحكيت له كل ما جرى من ضربي للمشرف الغبي حتى جلستنا في غرفتي، الصراحة راحة، فتفكر قليلا وفي هدوء، قال: "يعني لا سألت عن جدولك ولا تكاليفك ولا دراستك من ساعة ما رجعت"، قالها تقريرية ثم أكمل: "يظهر النصيحة الشفهية مش حتجيب نتيجة معاك.. إنت حتيجي تشتغل معايا"، لم أصدق نفسي! فالدكتور عويس ليس فقط عميد الكلية، بل له عيادته الخاصة والتي تعد أكبر وأشهر عيادة في مدينة أسيوط والمحافظة كلها، بالإضافة

إلى عمله في المستشـفى الجامعي كجراح عام، وكم سمعنا عن أطباء كبار بدأوا معه في سـنة الامتياز، واليوم يمتلكون "خمسة عين"، عيادة وعربية وعقار وعروسـة وعزبة، وهو حلم أي شـاب يدرس الطب، وانتشلني من انتشـائي سـؤال الدكتور عويس: "قلت إيه؟"، قلت ما يجب أن يقال في تلك الظروف التي لا تسنح إلا لمحظوظ ابن محظوظين، لكني أردفت: "بس موضوع هبة اللي..."، قاطعني رافعا كف الاشتراط: "اللي يشتغل معايـا ما يعملش حاجة تانية أبدا شـوف يا جاد، فيه حالات ما تضيعش فيها مجهودك ووقتك؛ لإنها تعدت مرحلة العلاج، ثانيا إنت حتتخصص جراحـة عامة مالكش دعوة بالطب النفسي"، ثم قام واقفا: "مسـتنيك في العيادة الساعة سبعة"، وصرفني.

أهكذا! فجأة تبدأ حياتي العملية! دون إذن مني أو سؤال إن كنت مستعدًّا أم لا؟ كثيرون يمرون بتلك اللحظة، لكن قليلون مَن يقفون عندها، وفي غرفتي استلقيت على ظهري عاقدا يديَّ خلف رأسي في انتظار الموعد المرتقب ورحـت أتلذذ بتفصيص اللحظة، وفكرت أن أدون يومياتي كطبيب يبدأ حياته العملية، ولأسـتمر في كتابتها حتى تصير كتابا يستفيد منه الأجيال القادمة بعد أن أكون شـبت وأثقلتني وأصقلتنـي التجارب، انتبهت من سرحاني على صوت واهن يناديني، فأرهفت السمع، وفجأة سمعت نقرا على شيش الشباك فأسرعت بفتحه، فإذا هي هبة متسلقة ماسورة الصرف بجوار شباكي في الدور الرابع من المبنى: "إيه اللي جابك هنا يخرب بيتك"، قالت بوهن ينبئ عن ضعفها: "الحقني"، وأمام استغاثة مثل تلك لا تملك

إلا أن تغيثها، ففتحت الشباك عن آخره ومددت لها يدي، فأمسكت بها وقفزت فصارت داخل الحجرة، نسيت الخطر الذي يتهددني لو اكتشف أحد وجودها، وحرت ماذا أفعل بها، لكنها بادرتني وهي تسقط جالسة على السرير: "جعانة"، أسرعت بإخراج علبة المنين التي تزودني بها أمي، ورحت أبحث عن غموس، لكني لم أجد، وحين التفت إليها كانت قد التهمت عدة وحدات وانقلبت على جنبها وجفونها تثقل، صحت هامسا: "بتعملي إيه؟"، لكنها راحت في سبات عميق، نظرت في ساعتي فوجدتها السادسة والنصف، فقررت اللحاق بموعدي وليكن ما يكون، وخرجت وأغلقت الباب بالمفتاح آملا أن تظل نائمة حتى أعود.

20

قطعت المسافة من بيت الطلبة للعيادة في نصف ساعة، وهي لا تتحمل إلا عشر دقائق بالخطوة العسكرية، كنت سرحان في تلك المصيبة الموقوتة التي تركتها في غرفتي، وصل الأسانسير إلى الدور العشرين، وما إن خرجت حتى هالني ما أرى، فالعيادة تحتل الدور بالكامل، أي ما يساوي مساحة أربع شقق كبيرة "بسم الله ما شاء الله"، هكذا علمني جدي أن أقول حين أنبهـر بملك غـيري، لم يتوقف ذهني عن الفلسـفة الكدابـة وفكي مدلى وعيناي مفنجلتان لما أرى من نصاعة بياض الحوائط وأناقة مقاعد وكنب الاستقبال، ثم اللوحات المزينة لتلك الحوائط، كلها تبعث للتفاؤل والراحة بألوانها الهادئة الرقيقـة ومناظرها الطبيعية، بالتأكيد المريض الذي يدخل هذا المدخل سيشـفى من أي علة، ثم رائحة العطر الذي ينتشر شـذاه في جو المكان، وصوت الموسيقى الذي بالكاد يلامس أذنيك فتراجع نفسك

إن هممت بالكلام، فيخرج صوتك همسًـا، كل هذا في كوريدور السـلم، فماذا يوجد في الداخل؟

وبخطوات شغوفة حاولت أن تكون وأودة توجهت إلى باب زجاجي معتم يحمل لافتة "الإدارة"، وبهدوء فتحته ودلفت إلى حجرة السكرتارية، وهي صالة كبيرة تضم ثلاثة مكاتب أنيقة مزودة بشاشات كمبيوتر خلفها تجلس ثلاث حسناوات بين الأسمر والخمري والأبيض، والخمرية تسألني: "أي خدمة؟"، قلت: "الدكتور عويس من فضلك"، قالت مبتسمة: "حضرتك الدكتور جاد؟"، هززت رأسي في بلاهة فرحا لأنها عرفتني، وقامت مرحبة مشيرة لي أن أجلس لحظة ودخلت من باب جانبي لاحظت رشاقة عودها، لكني غضضت الطرف كما علمني جدي الكبير، وحين جلست أصبحت في مسـتوى الفتاتين الجالسـتين والمكاتب مفتوحة عن سـيقان مرمرية لا تتوخـى صاحباتها الحرص على إخفائهـا: "اتفضل يا دكتور جاد"، هكذا أمرتني الخمرية، فقمت داخلا، ولهول ما رأيت.

مدينة أسيوط كلها تقبع تحت قدميك، هذا أول انطباع يصدمك من المنظر البانورامي المفتوح الكاشف للمدينة كلها، ونهر النيل ينساب في رسوخ يشق الأرض الزراعية، فشهقت شهقة البنات قبل المسورقة، ويبدو أن الدكتور عويس تعود هذا الانطباع، فهتف ضاحكا: "تعالى ما تخافش مش حتقع"، اقتربـت مصافحا: "ماتآخذنيش يادكتور مش واخدع الارتفاع ده"، قال وهو يجلسني: "أمال لو رحت أمريكا وطلعت ناطحات السحاب"، قلت

بلا وعي: "حسورق".. هنا تذكرت المصيبة النائمة في غرفتي والتي لا أدري ماذا أفعل إذا استيقظت قبل أن أعود، وانتبهت على الدكتور عويس يقول: "قلت إيه؟"، قلت بابتسامة بلهاء: "آه طبعا جميل"، قال: "يبقى على بركة الله"، وضغط زرا، أقبلت على إثره الفتاة البيضاء، فقام مصافحا إياي مخاطبا الفتاة: "خدي دكتور جاد، سلميه الشغل في عنبر واحد"، فهتفت متسائلا: "هو إيه عنبر واحد ده؟"، قال: "ما أنا لسه شارحلك إنت سرحت مني برضه؟"، قلت: "هه لا بس.. عن إذنك".

تبعت الفتاة البيضاء وعيناي على ساقيها وحذائها العالي تدب به دبات منتظمة في خطوات عسكرية، وتعجبت من اجتماع تلك الليونة والمؤخرة المتأرجحة مع هذا الانضباط العسكري المستقيم!، "يا رب هبة ما تصحا"، هكذا أسررت لنفسي وأنا أدخل الأسانسير خلف الغادة البيضاء، ولا أدري لماذا أُصاب بالاضطراب كلما جمعني بأنثى مكان واحد، فرغم ادعائي التفتح وإيماني بالمساواة بين الجنسين وكل مبادئ العصر الحديث، إلا أن هناك جزءًا مني ما زال يختلج بالهلاوس الجنسية، خاصة إذا انغلق عليَّ باب مع أنثى من ذلك النوع الصارخ الأنوثة، فما بالك أنه أسانسير لا يزيد عن 4 متر مربع، ورغم أنها تقف ملتصقة بالحائط الأيمن وأنا ملتصق بالحائط الأيسر، إلا أن أنوثتها تطغى على مساحة المكان وتزحمة وتزخمه بكيان أثيري جعلني ألتصق أكثر بالحائط، هل هو عطرها، والحمد لله أننا هبطنا دورين فقط لينفرج سجني وأخرج إلى براح الدور الثامن عشر، فالعيادة تتكون من ثلاثة طوابق تحتل قمة أعلى برج في مدينة أسيوط، وقادتني الهيفاء

اللعـوب إلى باب يحمل لافتة "العناية المركزة"، واقتربت مني هامسـة في نغم أرق من القيثارة: "حعملك بريفينج لكل حالة، المطلوب منك المتابعة وتدوين ملاحظات"، قلت: "بس؟"، قالت "المبتدئين كلهم بيبتدوا هنا"، لم يعجبنـي لقب مبتدئين، لكني هـززت رأسي، فأردفت: "انت حتبتدي دلوقتي، التقارير اللي حتكتبها بتروح للدكتور عويس شخصيا، على أساسها بيتم تقييمك، الشيفت بتاعك 12 ساعة"، أنهت كلامها وخرجت، أهكذا! تبدأ حياتي العملية بتلك البساطة! بساطة الإجراءات وبساطة التكليف، فملاحظة المـرضى في العناية المركزة شيء لا يحتاج إلى طبيب، بل يقوم به ممرضون وممرضات، ثم.. "يا نهار اسـود! حعمل إيه في النايبة النايمة في أوضتـي!"، ونظرت في سـاعتي فوجدتها الثامنـة، أي أن عملي ينتهي في الثامنـة صباحا، ووجدتني أقول: "بس أنا مش عامل حسـابي"، فرددت على نفسي: "تعمل حسـابك في إيه؟"، قالت لي نفسي: "حاكل إيه وفين؟ والحمام منين؟ وشـلل أصاب تفكيري، فألقيـت بنفسي على أقرب مقعد متمثلا المثل القائل: "أخدوني من الدار للنار"، فمنذ سـاعة واحدة كنت تلميذًا، وفجأة أصبحت دكتورًا، وهؤلاء المرضى مسئولين مني.

هل استيقظت هبة؟ تسـاءلت ناظرا في ساعتي، فوجدتها التاسعة إلا ربع؛ 45 دقيقة مروا عليَّ وأنا طبيب، فلماذا أظل جالسا لا أفعل شيء؟ لماذا لا أكون طبيبا بالفعل؟ وقمت من مكاني وقد نفضت عن رأسي كل هلاوس السرحانات، واتخذت وضع الطبيب المهم عاقدا يديَّ خلف ظهري ورحت أتجول بين الأسرة، وبينما أنا أسير متقلدا زمام الأمور، سمعت هنة ضعيفة

صادرة من ركن العنبر، فدق قلبي دقة استيقاظ الطبيب، فها هو مريض يستنجد بي فماذا أنا فاعل! لكني لم أستطع تحديد مصدر الهنة بالضبط، فالأجساد المسجاة على الأسرة كلها واهنة والنظرات كلها مستعطفة راجية آملة مستسلمة، أيكون هذا الشيخ المرتعش! أم تلك السيدة مفرطة السمنة متحشرجة الأنفاس، أم هذا الشاب الزائغ البصر من أثر البنج؟ ورحت أجول بينهم بنظرات فاحصة، حتى سمعت الهنة من جديد، فالتفت بسرعة فلمحت رجل يحاول لفت انتباهي فتوجهت إليه ملبيا: "عايز حاجة؟"، خرج هواء من فمه ولم أسمع ما قال، فانحنيت ملصقا أذني في فمه حتى شعرت بحرارة أنفاسه، فجأة أطبق الملعون على شحمة أذني بأسنان كالكلابات الحديدية فصرخت، لكن الوغد لم يترك أذني، وخشيت أني لو حاولت أنتزاعها عنوة من بين فكية أن تنقطع، وراح يصيح من حنجرته وفمه مطبق على أذني، وأنا أصرخ بملء جوارحي لعل أن ينجدني أحد، لكن لا أحد في الدور كله، الله يلعن الطب والدكترة والكل كليلة! ودني بتتاكل يا ناس، وكما عقرني فجأة تركني فجأة وظل فاغرا فاه في حركة تشنجية، وقد غطى الدم فمه ولسانه، فأسرعت بإمساك أذني أطمئن على وجودها كاملة، ثم انتبهت إلى الحالة التي تعاني من تشنج شديد وصعوبة في التنفس، وصوت من سرير مجاور يقول في وهن: "هاتله دكتور"، وبلا وعي تحركت، لكني توقفت متذكرا أني دكتور، لكني لايص لا أدري كيف أتصرف! فوجدتني أسأل صاحب النصيحة: "هو عنده إيه"، قال: "صرع اجري ناديله الدكتور بسرعة"، وفي عنجهية الجهلاء وحماقة المغرورين قلت: "أنا دكتور"، لكن

يبدو أني غير مؤمن بتلك المعلومة، لأنه لم يقتنع، وقال مستعجلا: "اجري نادي حد كبير" أوصلت الوقاحة لهذا الحد! حد كبير! وكعادتنا حين نعجز عن الرد أو التصرف نتشاغل بشكليات ليس لها علاقة بلب الموضوع، والموضوع هنا أن هناك نوبة تشنج يجب علاجها بسرعة، لكني وقفت أرد على هذا المريض الذي لا يعترف بي كطبيب، رغم ارتدائي البالطو الأبيض والسماعة حول رقبتي، وحانت مني التفاتة إلى المتشنج فرأيت ما أفزعني، فهناك زبد أبيض بدأ يتكون يملأ الفم المفتوح، ونظراته تستنجد بي كأنه يقول لي: "مش وقت منظرة كدابة يا ابن الحمار"، فأفقت لواجبي المقدس وأسرعت خارجا من القسم.

كان استقبال العناية المركزة خاليًا من جنس بني آدم، فأسرعت إلى الأسانسير وضغطت الزر، فأضاء يعلمني أنه في الثالث، لم أنتظر وأسرعت صاعدا السلم، وهو الدور التاسع عشر، ولافتة تشير إلى غرفة العمليات، لحظة خروج ممرضة صاروخية الهيئة فسألتها بلهفة "هو مافيش حد هنا؟"، لم تفهم سؤالي فأردفت شارحا: "فيه حالة تشنج صرع في العناية ومش..."، قاطعتني في لا مبالاة "اطلب 12"، وتركتني وقد زادت حيرتي! أطلب 12 إيه؟ وأطلبها منين؟ وما هي هذه الـ12؟ وأسئلة كثيرة تداعت على عقلي المضطرب، فألغت بعضها البعض، فقررت تصعيد الموقف وأسرعت أقفز السلالم قفزا إلى الدور العشرين.

مـا إن فتحت باب الإدارة، حتى لاقتني سـت أعين مكحولة حوراء ناعسة متسائلة عن سبب اقتحامي الغرفة بهذه الطريقة، فبادرتهن بما لدي من معلومات قليلة عن الحالة، فقالت الخمرية: "طلبت 12؟"، وبصراحة خجلت أن أسأل عن هذه ال12 التي تحل كل المشاكل، وكذلك خجلت أن أعترف أني لم أطلبها، فهي على مايبدو نمرة الطوارئ أو الاستدعاء السريع، وهنـا أدركت خطئي، فلماذا لم أفهم هذا من أول مرة؟ يبدو أني مضطرب وعقلي غير صافٍ لعملي، وأفقت من سرحاني على صوت البيضاء: "مالك يا دكتور جاد؟"، كما دخلت فجأة اسـتدرت وخرجت فجأة، وإحساس قاتل يتملكني بأني فاشل، خايب، سقطت في أول اختبار لحياتي العملية، تبخرت كل المعلومات الطبية عن خطوات العلاج السريع لحالات التشنج العضلي والعصبي والصرع والتشنج الهيستيري، كما تبخرت معها كل أحلام الدكترة وبالتالي أحلام الخمسة عين.

21

قررت أن أهبط السلم، ومثل أي خايب وضعت يدي في جيوبي، كأن الأمر لا يعنيني وهبطت متمهلًا من الدور العشرين حتى الدور الأرضي، لم أتذكر أو أنتبه أني أهبط، أهبط، أهبط حتى سفح العمارة، وأكملت إلى الجراج، وجدتني مستسلمًا لحالة الهبوط، وتملكني إيقاعها المستمر المتكرر المنتظم مثل صوت فلنكات القطار، حتى أفقت من سرحاني وأنا أقف وسط ساحة الدور الثالث تحت الأرض من الجراج، ساحة إسمنتية خالية، فقط عواميد وممرات وعلامات تقسيم مراكن السيارات وخطوط مرورية صفراء، ولا شيء سوى فراغ عقلي وإعتام ذهني وظلام يكتنف المكان، فدق قلبي دقات أعرفها تصيبني قبيل وقوع خطر ما، فحاولت التغلب على خوفي غير المبرر وأفسره أنه لعب عيال، فهممت أن أستدير وأصعد، لكني توقفت.. بل جمدت في مكاني كما جمد الدم في عروقي، فمع رائحة

الرطوبة استخلصت أنفي رائحته.. إنه الفجم.

شـعرت به يتحرك، لكن ظلام المكان منعني من تحديد مكانه بصريا، فاسـتعنت بحدسي لكنـه خانني ولم يدلني عـلى شيء، ويبدو أن الحدس والفراسـة وكافة الحواس غير الظاهرة تتعطل في المدن، معلوم فالمدينة.. "مش وقت فلسفة دلوقتي.. ركز"، هكذا أسررت لنفسي، وكنت لابدًا بجوار عمود إسـمنتي ضخم، وأغمضت عينيَّ لأنشـط حاستي السمع والشم، وبالفعل سمعت أصواتًا تحركه تأتي من الناحية اليمنى، فهو حين يتحرك تسـمع صوت حفيف جسم ثقيل يجر نفسه جرًّا، وصوت أنفاسه هي أقرب للحشرجة، ونفشـت في أنفي رائحته تأتي مـن الناحية اليمنى أيضا، وبدأت أتحسس جيوبي فوجدت سرنجة في جيب البالطو والسماعة حول رقبتي ومشط كبريت، لا أدري لماذا هو معي، وقلم جاف في جيب القميص، ومع تفقدي لأسـلحتي زاد شعوري بالثقة، وبحذر تقرفصت ملاصقا للعمود، وبحرص ملت أستطلع بطرف عيني الاتجاه الأيمن من المكان، فلم أرَ سوى ظلام، واللعين توقف عن الحركة، لكنه لم يتوقف عن التنفس، وخطر لي خاطر يحمل بعـض المخاطرة، لكنها ضرورة تكتيكية يجب اسـتخدامها في تلك الظروف المقندلة، فأخرجت مشـط الكبريت، وأشعلت عودًا بيد مرتعشة، ألقيت به في الظلام الأيمن، وأنا أتبعه بنظري لعلي ألمح شيئًا في اللحظات التي يتوهج فيه العود الهزيل.

لهول المفاجأة بدأت ظلال هزيلة تتراقص على الأعمدة العريضة، ظلال نار بدأت شاحبة هزيلة حمراء قانية تكاد لا تفرقها عن عتمة السواد، فخمنت أن عود الثقاب الذي رميته سقط على ما يبدو في كومة قش ورفائع الخشب من بقايا عمليات التشـطيب المنتـشرة في المكان، وفي حركة مجنونة نظرت بوضوح مبرزا رأسي من خلف العمود، فوجدت النار قد أمسكت ببقايا خيش ملوث بمواد الطلاء مما سـاعد على سرعة اشتعالها وتبددت ظلمة المـكان تدريجيـا، فجلت ببصري وقـد زال عني خـوفي، ولمحت الملعون يتحرك خلف الأعمدة البعيدة مبتعدا عن النار، فقررت مهاجمته لأفسـد عليه خططه الهجومية، قررت أن أحوله من صيَّاد إلى فريسـة، ووجدتني أقفز إلى براح السـاحة ملتقطا عودا خشبيا، وأشعلت طرفه من النار التي زاد حجمهـا، وتوجهت إلى البقعة التي رأيته فيها، وكنت أسـير في دوائر حول نفسي مثل راقص التنورة، وكما توقعت بدأ برأس المرض، لكني لست مريـض، هكذا أسررت لنفسي، لكني جاوبتنـي: "الخوف مرض، الجبن مرض، الاستسلام مرض"، فاتخذت وضع رامي الحربة، وأطلقت الحربة النارية إلى عينه المفنجلة في توحش، فأصابت بؤبؤته فصرخ صرخة مدوية وتراجع، فانتهزتهـا فرصة ورحت أطارده، وأنا أصرخ كالمجنون: "أقف عندك يا جبان، عرفت يعني إيه تبقى فريسـة؟ عرفت يعني إيه الخوف"، ورحت أهذي بعبارات مماثلة عن الشـجاعة والقـوة والحق، وأنا أنحني بين الفينة والفينة ألتقط رمحًا خشـبيًّا ناريًّـا جديدًا، وأطلقه في أثر الملعون الهارب فتسـاقط الخشب المشتعل في كل مكان، وانتقلت النيران من بقعة إلى بقعة حتى حاصرتني.

هنا توقفت أعيد تقييم الموقف.. فالنار تحاصرني من كل جهة، وأدركت مدى حماقتي حين انسقت وراء نشوة النصر، فأشعلت حريقا في الدور كله المملوء ببقايا مواد البناء وصفائح زيت وجاز وسقالات خشبية، وأدركت أني هالـك لا محالة، فقد بدأ الدخان يتسـلل إلى صدري، ويغشـى عينيَّ وبـدأت الدنيا تدور بي، فلمحت من بين جفوني المثقلة قبل الإغماء طفاية حريق، فأسرعت إليها واحتضنتها احتضان الغريق بلوح خشب، ونزعت صمام الأمان ووجهتهـا أمامي وضغطت.. لكن لا شيء خرج منها رغم تكـراري المحاولة، إذنْ هو الموت.. يا للغبـاء، أنقذت نفسي من الفجم؛ لكي أموت محترقا.

فتحت عينيَّ بحذر، وكان وجه حوراء العين البيضاء، قالت وأسنانها تضوي، وابتسامتها تزغرد: "حمد الله ع السلامة، خضتنا عليك"، قلت في وهن ونبرة ارتياح "الحمد لله"، قالت وهي تطلب رقما من تليفون الحائط بجوار سريري: "الحمد لله إنهم لحقوك.. ألو.. أيوة يا دكتور.. آه فاق الحمد لله"، وعرفت فيما عرفت من حكي الناس تفاصيل ما حدث، فقد تصاعد دخـان الحريق إلى الدور الأرضي، فأسرع الناس بخراطيم الماء وطفايات الحريق يقاومون النار، ونجحوا في السيطرة على الدور الأول تحت الأرض، ثـم وصلت المطافئ ونجحت في السـيطرة وإخماد النار في الدورين الثاني والثالـث حيث وجدوني مغمى عليَّ وأنا محتضـن طفاية الحريق الفارغة، فخمنـوا أني كنت أحاول إطفاء الحريق، لكني فشـلت وغلبني الدخان، فاعتبروني بطلًا، وقد حضر الدكتور عويس بنفسه للاطمئنان عليَّ، مربتا

على يديَّ المربوطة، كما حضر لفيف من أصحاب المحلات وقاطني البرج ليشكروني على بطولتي، وحين خرجت من العناية المركزة كان صيتي يملأ مدينة أسـيوط باعتباري الرجل الشهم الذي ضحى بحياته لإنقاذ البرج من كارثة محققة، ووجدت نفسي أقارن بين سكان المدينة المتحضرة المتعلمة وأهلي في الجبتية اللذين جعلوا مني بطلا مزيفا.

وجدت صورته تتجلى أمامي.. الملعون عقر أهل المدينة بالكامل، عقرهم برأس الجهل رغم المتعلمين والجامعة والمدارس والمدرسين والدكاترة، عقرهم برأس المرض رغم المستشفيات والعيادات والأجهزة الحديثة والممرضات الصاروخيات، عقرهم برأس الفقر في النفوس قبل فقر الفلوس، ووسط الزوار والمهنئين بالسلامة والشاكرين رأيت وجه تامر وتوم وجيري وبصحبتهم هبـة! فانتظرت حتى خف الزحام، وسـألتها في شـغف: "عملتي إيه؟"، قالت في بسـاطة: "خرجت زي ما دخلـت لما صحيت مالقيتكش"، ومع انتهـاء وقت الزيارة انصرف الجميع تاركين إياي وأفكاري، أسـترجع ما حدث وأقلبه على كل الأوجـه، فمن وجهة نظرهم أنا بطل مغوار، ومن وجهة نظري أنا كذاب أشر؛ فقد كذبت من قبل كثيرا، ورحت أبحث في قراري عن سبب كذبي، فلماذا كذبت حين أرادني أهل قريتنا بطلا؟ ولماذا كذبت حين أرادني أهل المدينة بطلا؟ ولماذا دائما نبحث عن البطولة؟ وما هي البطولة؟ أن تأتي بما لا يسـتطيعه الأخرون؟ لكن الحاوي الذي يخرج الكتكوت من المنديل يأتي بما لا يستطيعه الآخرون، فهل هو بطل؟ بالتأكيد هو في أعين الأطفال بطل، وساقني تفكيري في البطولة إلى البحث في حياتي

عن موقف بطولي حقيقي، موقف واحد كنت فيه بطلًا، موقف واحد أتيت فيه ما لا يقدر عليه الآخرون.. فهالني أني لم أجد سوى موقف واحد فقط كنت فيه بطلا، موقف واحد كنت منتصرا.. إنه السباق المنوي العظيم الذي تتصارع وتتسابق الحيوانات المنوية لتفوز بالبويضة الوحيدة، نعم هذا هو الـصراع الوحيد الذي دخلته في حياتي وكنت فيه منتصرا، أي خجل، أي ضعف، والضعف مرض، لقد عقرني الملعون برأس المرض والجرح لم يتطهر كاملا، السم يزحف ليقضي عليَّ، بدليل هذا الوهن الذي أشعره وسلبني النعاس القدرة على استرسـال أفكاري، فأسلمت له نفسي مغمضا عينيَّ فرأيت وجه جدي، يبتسـم في دعة الحكماء وترحيب المحب وقال: "شـد حيلك يا جاد الله خليك جبتي بصحيح"، "ألست جبتيا!"، قال: "الجبتي ما يضعفش.. الجبتي أقوى من الزمن الجبتي اتخلق لجل ما يدوم"، قلت: "الدوام لله"، قال: "ونعم بالله، لكن مش معنى إنك خسرت معركة تبقى خسرت الحرب"، قلت: "ليس لديَّ سلاح" قال: "بل معك علمك وعلم أجدادك" قلت: "وماذا يفعل العلم مع عقول مظلمة؟"، وكلام كتير قاله جدي عن التنوير والصبر وسياسة الخطوة خطوة و... خخخخخ.

"شخيرك جابني من آخر الدنيا"، هكذا قالت الخمرية ذات السيقان المهلبية وهي تعدل لي وضع المخدة خلف رقبتي، ووقفت ترمقني بابتسامتها الجذابة، وحين طالت نظرتها أصابني اضطراب، فقد أحسست أنها تنوي اقتحامي، تبحث عن مدخل مناسب لي، ولأنها لا تعرفني فقد طال بحثها، فابتسمت لأني نجحت في قراءة أفكارها فقلت مسهلا عليها الأمر: "تعاليلي

دوغري"، بهتت وانفلتت منها ضحكة صارخة: "يخرب عقلك عرفت إزاي إني.."، قاطعتها في رقة: "أنا مكشـوف عني الحجاب"، اقتربت وجلست على طرف السرير في جرأة البنات المودرن، وبادرتني بسؤال مباشر: "إنت مين؟"، حاولت أن ألخص نفسي، وفوجئت أني لا أعرف.. يا نهار أسود! أنـا مـين! حين قرأت الحيرة في عينـيَّ قالت: "أنا قلت كـده، إنت جواك إنسـان غير اللي براك تماما فأنـت مش عارف أنت مـين فيهم"، أعجبني تحليلها فأومأت برأسي موافقا ومستزيدا، فأكملت: "اللي يشوفك يفتكرك صندوق"، تعجبت من الكلمة، فشرحت: "صندوق يعني مربع ما فيكش أي بـروز أو تميز.. مقفول"، قلت منبها: "ده مـن برة"، قالت: "من جوة بقـى دي اللي عايزة بحث، لأن الـلي انت عملته ده مايعملوش إلا مجنون أو بطل بجد".

اسـتحليت اللعبة؛ لأني اسـتحليت حديثها وصوتها وشـعرها الذي تسقط خصلته الفاحمة على وجهها فترفعها، واستمر الكلام كنهر ينساب بين ضفتينا، لم أسـمع معظمه؛ لأني كنت أسرح في شفتيها تارة، وفخذيها المكشـوفتان من الجوب الضيق القصير، وعيناي تتجولان في جسمها في محاولة لتعريتها دون أن تلحظ هي ذلك، لكن على مين؟ فما من أنثى إلا قادرة على قراءة تلك السحنة الذكورية التي تتجلى في وجه الرجال وهم يظنون إن ماحدش فاقسهم! ولولا جهاز الاستدعاء المثبت إلى خصرها لاستمر الحديث لسـاعات وسـاعات، وقبل أن تخرج التفتت إليَّ قائلة: "الدكتور كتبلك خروج النهاردة"، ما لفت نظري في كلامها ليسـت المعلومة ذاتها،

بـل طريقة إلقائها، إذ خرج صوتها معدنيًا رصاصيًّا ميكانيكيًّا كأنه يصدر مـن آلة وليس مـن بشر، كانت من تكلمني الآن غـير التي كلمتني وهي جالسـة على طـرف سريري، جمود في الوجه وبـرودة في الصوت، وجمود الوجه لا ينم عن أي مشاعر سلبية كانت أم إيجابية، وبدأت أراجع نفسي في إعجابي بها هل أعجبتني كأنثى؟ بلا شـك، لكن هل أسـتطيع معاشرة إنسانة متحولة بهذه السرعة والقدرة؟ بالتأكيد لا، ورحت أقارن بينها وبين سـمر، فكلتاهما خمرية، وكلتاهما ملفوفة العود سارحة الطول، لكن سمر إنسـانة حية، لا تتلون ولا تتبدل ولا تتحول، تنساب انفعالاتها بين حزن وضيق وغضب ولوم ويأس وملل وفرح وأمل وضحك وباقي المشـاعر التي تنتاب البشر، أما الحسـناء الخمرية..هنا توقفت مدركا أني لا أعرف لها اسـمًا، فقد التقيت بها أول مرة عند دخولي مكتب الإدارة والتقيت بها ثانيا عند لجوئي إليهن لنجدتي من خيبتي القوية، ثم تلك المرة التي كشفت لي عن جوانب كثيرة في شـخصيتها، أهمها الجرأة والاقتحام، إنها صفات ذكوريـة، فأدركت أن أنوثتها ظاهرية فقط، تتلخص في الوجه والجسـم، أمـا الروح فهي روح رجل، أو أنثى مشـوهة فنفرت منها، ورجوت ربي ألا يكون هذا حال نساء المدينة.

22

قـام دكتور عويس مرحبا فاتحـا ذراعية على غير العـادة، واحتضنني مربتـا على ظهري، مثنيا على شـجاعتي وسـلامتي في حضور الجميلات الثلاثة اللاتي لا أعرف لهن أسـماء حتى قال: "عصمت طمنتني عليك"، فابتسمت ابتسامتي البلهاء سائلا "عصمت مين؟"، جاءني صوت الخمرية "أنا عصمت"، وأكملت السمراء: "وأنا نور"، وقالت البيضاء: "أنا مجد"، ثلاثة أسماء تصلح للرجال وللحريم، مركبة على أجسام أنثوية صارخة بثلاثة أطعم مختلفة وثلاثة أرواح ذكورية، وبإشارة من يده انصرفن، وأجلسني دكتـور عويس قبالته قائلا "بص يـا جاد، اللي حصل من يومين ده حادثة تكشـف معدن الراجل، وانا حبيت قوي الـلي انت عملته، لذلك قررت اكافأك". كلام جميل من رجل جميل، "بس أنا عندي سؤال محيرني، والغريب إن ماحدش سـأله "إنت إيه اللي وداك الحتـة دي في التوقيت ده؟"، لم أقوَ

عـلى الاعتراف بالحقيقة، فليس مـن المعقول أن أرد على هذه الحفاوة بأني كنت أهرب، كنت أجبن، فلم أجد أمامي إلا ما قاله الناس عني: "لقيت دخان طالع من..."، قاطعني: "أيوة عارف بس إيه اللي نزلك تحت؟ إنت مش الشيفت بتاعك في العناية المركزة؟"، من جديد وجدتني أقف موقف هاملتي، أكون أو لا أكون، فاخترت ألا أكون، كذبت قائلا: "نزلت أجيب سـاندويتش، فالأسانسير نزل بي الجراج، فشـميت ريحة الدخان و..."، وقلـت كلامًا كثيرًا لا أدري إن كان صدقه أم جـاراني في كذبتي وبلعها، لكن ما أدهشـني حقا تلك السهولة التي كذبت بها! فالمألوف أن الكذب حرام وعيب، فكيف يكون بهذه السـهولة! ولمـاذا الصدق صعب؟ لماذا الأمانة صعبـة؟ والحق صعب والشرف صعب وكل القيم الخيرة صعبة، أما الخطأ والعيب والحرام والمكروه والمرفوض فسـهل! لماذا الخير صعب والشر سـهل؟ أليس المفروض أن يكون العكـس! أن يكون المألوف هو السـهل، والخروج عـن المألوف هو الصعب! يبـدو أن الصورة انقلبت، لكـن الأخطر من ارتكاب الذنب هو اسـتمراؤه، وقد تأكد لي أني كذاب محترف، أمارس الكذب بـلا انفعال، لم يوخذني ضميري، أمات! أم قتله سم الفجم؟

"انت سرحت تاني يا جاد؟"، هكذا أعادني دكتور عويس إلى الواقع "لا أبدا أنا بس بفكر في كلام حضرتك"، كان يحدثني عن مستقبلي، عن عقد ثلاث سنوات للعمل معه في العيادة براتب مُجْزٍ، ورسالتي الماجستير والدكتوراه اللاتي يجب البدء فيهما فورا، وأنه سيطلب أن يكون هو المشرف

عليهما لثقته الكبيرة فيَّ! ثقة! أتمنح العقود والمناصب والشهادات بناء على الثقة! "ها قلت إيه؟"، سألني: "اللي تشوفه حضرتك"، قام مصافحا: "عدي على البنات برة وامضي العقد"، فاتجهت إلى الباب خارجا، لكنه استوقفني سائلا "ألاَّ بالحق، إنت لسه ساكن في بيت الطلبة؟"، أجبت بالإيجاب، فهز رأسه وتفكر لحظة، ثم جلس منشغلا إلى أوراقه قائلا: "قول لنور" فسهمت ولم أفهم، فرفع رأسه متعجبا: "قولها تديلك شقة"، لكني ظللت جامدا حتى بعد أن فهمت، جمدت من هول المفاجأة، أهكذا يتغير الحال! أبهذه السهولة! ويبدو أني أطلت التنتيح، فرفع رأسه من جديد: "حتنك واقف كده؟".

خرجت وأنا شخص آخر غير الذي دخل، فقد دخلت طالب امتياز أسكن في بيت الطلبة وأعيش على قدي، فخرجت طبيبًا يشغل منصبًا ما في عيادة الدكتور عويس.. لماذا يطلقون عليها عيادة؟ فهي مستشفى صغير، أفاقني من سرحاني صوت البيضاء مجد: "مبروك"، ودعتني للجلوس على فوتيل فخيم في الصالون الملحق، ففعلت مسحورا وأقبلت الحسناوات الثلاث يحملن أوراقا وأقلاما، ناولتني مجد عقدًا مكتوبًا باللغة الإنجليزية مكون من عشرات الصفحات، ومالت تناولني القلم، فزاغت عيني إلى صدرها الذي يقاوم محبسه الرقيق يريد أن يقفز متحررا، وحين أمسكت القلم لأوقع العقد مالت أكثر لتقلب لي الصفحات التي يجب أن أوقع عليها كلها، وبميلتها الثانية انكشف مشبك السوتيان الأسود ذي الأطراف الدانتيل ورحت أكتب اسمي فعلقت سائلة: "إنت ماعندكش فورمة توقيع؟"، قلت:

"هه"، قالت الخمرية عصمت: "لازم يكون لك فورمة توقيع، وتكون شيك وتتمرن عليها عشان التعامل مع البنك"، "بنك إيه أنا ماليش..."، أوضحت عصمت التي يبدو أنها مسئولة عن الشق المالي: "قابلني بكرة الساعة 8 في البنك اللي في الميزانين، حفتح لك حساب". هنا تذكرت موضوع الشقة، فخاطبت السمراء نور: "كان الدكتور عويس قالي اقولك على الشقة"، استدارت إلى مكتبها، وعادت بسلسلة مفاتيح تحوي عشرات المفاتيح: "خلص العقد، وتعالى ننزل أفرجهالك"، فمضيت العقد وقد كلت يداي من تكرار كتابة اسمي، وتبعتها كالعادة متأخرا بخطوة حتى آخذ حريتي في النظر والتدقيق والبحلقة في كتلة المهلبية المتبخترة، وانغلق علينا الأسانسير، وضغطت زر الدور العاشر، كان الكوريدور مدهونًا ومضاء بنفس طريقة العيادة، مما يعني أن الدور بالكامل تبع العيادة، فسألتها متأكدا: "هو الدور كله بتاع دكتور عويس؟"، قالت: وهي تولج المفتاح في الشقة رقم 1001 التاسع والعاشر سكن الأطباء والممرضات".

دخلت، وأضاءت النور، فإذا بي في شقة من شقق الأحلام، بسيطة في ذوق راقٍ، هادئة في نعومة، مفروشة في تناسق يناسب مساحتها الصغيرة، فهي مكونة من غرفة نوم وريسبشن ومطبخ أمريكاني مفتوح وحمام والنوافذ ألومنيوم مصمت لا ينفذ منه ضجيج الشارع أو غبار الجو، والزجاج قاتم يميل للسواد فلا ترى نور النهار ولا حر الصيف أو برد الشتاء، وبعد أن أبديت إعجابي الذي حاولت أن يكون معتدلًا، متأكدا أن فكي لم يتدلَّ انبهارا بما أرى، قالت: "الشقة تبع الوظيفة يعني العقد اللي معاك بينص

إنك تخلي الشقة بمجرد تركك الوظيفة". وقالت كلامًا كثيرًا حول حقوقي وواجباتي، فقلت: "ما أنا حقرا العقد"، قالت محاولة إخفاء سخرية: "الناس تقرا قبل ما تمضي يا دكتور" خرجت منها كلمة يا دكتور كما لوكانت تقول لي يا حمار، وإن قالتها فمعها حق، وانتزعت نفسي من ذلك المطب سائلا: "هو انتو ليه بتقولوا عيادة؟ مع إني شايف مستشفى"، قالت: "عندك حق هي بالفعل مستشـفى، لكن على الورق هي مجموعة عيادات" ثم أردفت شارحة: "ترخيص عيادة أسهل وأرخص من ترخيص مستشفى، وإجراءات المراقبة والمتابعة من الوزارة أخف بكتير"، هززت رأسي فاهمًا متعلمًا أول درس في بيزنيس الطب، ثم توجهت إلى الباب قائلة: "أسيبك ترتاح وتاخد على المكان"، قلت محاولا استبقائها لعل الشيطان يكون ثالثنا: "هو أنا حقعد فيها من دلوقتي؟"، هزت رأسـها إيجابـا، فقلت: "لوحدي؟"، حدجتني بنظرة حرت في تفسيرها، فأرجأت التفكير فيها لبعدين.

توجهت من فوري إلى بيت الطلبة لأودع آخر عهد لي بحياتي الماضية، غير أسف عليها أو باك، شعرت بنشوة عارمة تجتاح صدري وتخف خطوتي وتحملنـي سريعا إلى حجرتي ببيت الطلبـة، وكان أول لقاء لي مع ضرغام الغبي الذي لم يحرك ساكنا لدى رؤيتي، ألا يعلم هذا الحيوان أني لم أعد طالبا وأني أصبحت طبيبا! ألا يظهر في وجهي هذا التطور والتحول والانتقال من حال إلى حال! ودخلت عابرا الفناء متجها إلى حجرتي، فلاقيت الواد عجينة الذي بادرني متسنكحا: "حمد الله ع السلامة يا داكتور، بقالك يومين غطسان"، وددت أن ألطشه قلمًا وأوبخه على طريقته غير اللائقة في الحديث

مـع من هو أعلى منه مقامـا وعلما ودرجة، وددت أن أقـول له إني لم أعد طالبا يشكك الشاي والقهوة، وددت أن أقول كلامًا كثيرًا، لكن قرفي منه جعلني أتعالى عليه وأكمل طريقي إلى الحجرة، إلا أن الوغد تبعني مثرثرا حول ما حدث "في اليومين اللي غبتهم"، فمددت في خطوتي لعله يفهم أني مستعجل ولا أريد رغيا فارغا، لكنه استمر في الثرثرة لدرجة جعلت الدم يغلي في عروقي وكورت يدي وهممت أن أستدير وأناوله يمينًا مستقيمة في أنفه، لكني جمدت حين سمعته يقول: "والبت هبة المسطولة اللي كانت نايمة في أوضتك روخرة اختفت"، توقفت الأرض عن الدوران.. لحظات لم أستوعب ما يقول، ووجدتني أقول: "دي كانت عندي في المستشفى امبارح"، كأنه لم يسمع شيئًا قال وهو يهرش في قفاه: "لقيتها نايمة قلت مافيش داعي أصحيها وأعملك مشكلة، انت حبيبي برضه، بس دي بت معفنة قوي"، قالها بلكنة من يتهمني في ذوقي الحريمي، ثم أردف فاركا كفيه متمحلسا: "أي خدمة يا دكترة"، هذا الوغد يبتزني، يساومني هذا الكلب فهذه آخر مرة أراه فيها وليذهب إلى الجحيم وأنساه مع كل ما يربطني بحياتي القديمة: "إنت مسافر؟"، سألني، فقلت باقتضاب: "لا أنا ماشي.. أنا بقيت دكتور".

23

خرجت من بيت الطلبة ولم أنظر ورائي، وبعد خطوتين كنت قد نسيت غباء ضرغام ولزوجة عجينة وحجرتي الضيقة التي قضيت بها سبع سنوات، حاملا أحمالي المكونة من حقيبة سفر كبيرة بها ملابسي، وأخرى صغيرة تحوي أوراقي وكتبي، ومشنة تحوي الزاد والزواد، وتوقفت عند هذا الخاطر، كيف أدخل حياتي الجديدة بمخلفات قميئة مثل ما أحمل، كيف أدخل شقتي الفخيمة بمشنة وحقيبة مهترئة، ماذا لو رأتني الغادات الفاتنات عصمت ونور ومجد؟ فحياتي الجديدة يجب أن يكون كل شيء فيها جديدًا، المأكل والملبس والأسلوب والكلام والمشية والوقفة والإيماءة، كل بحساب مدروس ولهدف محدد، كفاني حياة العباطة التي كنت أحياها وشعرت أني كبرت، نفس الإحساس الذي انتابني حين اكتشفت ذكورتي، يوم بلغت وتحولت من صبي إلى فتى.. ظللت واقفا مدة طويلة فوق أشيائي، ثم

قـررت فجأة أن أتركها بـلا وداع أو حسرة أو ندم أو وحشـة، وأكملت طريقي حاملا حقيبتي الصغيرة التي تحوي أوراقي وكتبي فقط.

ما إن وصلت البرج، حتى لاقاني السياس والعمال وأصحاب المحال التجارية بترحاب يليق بالبطل الذي أنقذ اسـتثماراتهم وأكل عيشهم من الحريق، وكانت فرحتهم بي كساكن جديد في البرج تفوق الوصف، وصعد معي إلى الشـقة سـايس الجراج حاملًا عني الحقيبة، وعامل التوصيل من مطعم البرج حاملا ما لذ وطاب من مأكولات واجب ترحيب من صاحب المطعم الحاج بدوي الأسيوطي، وعلى مدار باقي اليوم توافد مندوبون بالنيابة والأصالة عن باقي أصحاب المحلات محملين بالهدايا والهبات والنفحات تعبيرا عن امتنانهم لفضلي وتعظيما لمقامي وعرفانا بقدري، ويومها حصلت على لقب باشـا، فالكل ينادونني بالباشا، أصبحت مثل لواءات الشرطة والمحافظ وباقي الباشوات الذين يملأون البلد، إذنْ فليكن سلوكي وحياتي مناسبين لهذه المرتبة الرفيعة، ولتذهب حياة البسطاء إلى الجحيم، وليذهب الفقر والجهل والمرض إلى حيث ألقت، وتمددت على الكنبة.. أسف الصوفا الأمريكية عاقدا يديَّ خلف رأسي وابتسامة انتصار تعلو وجهي مستشعرا أن الله قد رضي عني وأعطاني من واسع باب رزقه، وظللت على جلستي تلك مدة طويلة أستلذ بإحساس الانتصار وطعم الوصول وحلاوة النعمة، وخطر في بالي أن أعلق سورة الفلق درءًا للحسد، هنا تذكرت ما أوخذني، فعـلى مدار الأيام الماضية لم أصـلِّ ركعة واحدة، وكانت جفوني قد ثقلت وغلبني النعاس ولفتني لذة الرفاهية واسترخاء المنعمين، فأسلمت نفسي

للنوم اللذيذ هامسا لنفسي إن الله غفور رحيم، وبدأت خيالات وأشباح الغادات الفاتنات السمراء والخمرية والبيضاء تداعب خيالي، وتداعت صورهن في أوضاع... طاخ طاخ طاخ.. "يا ساتر يا رب فيه إيه!"، هببت من نومي مفزوعا مسرعا إلى الباب الذي كاد أن يتحطم تحت هبدات يد غشيمة وفتحته عن تامر وبهجت ومدحت وهبة، مقتحمين المكان وتامر يزعق: "إيه يا عم بنصحي في ميت؟"، وتم الاقتحام بنجاح واضعين ما يحملونه من زجاجات ويسكي وبيرة جالسين على العفش الجديد مبدين إعجابهم ومباركتهم ونيتهم لتدشين المقر الجديد، هنا قلت "مقر مين؟"، قال بهجت: "مقرنا مقر الشلة، الدماغ..."، قاطعته بسرعة: "لا لا لا مافيش الكلام ده هنا".

وقع كلامي عليهم موقع دهشة، سرعان ما تحولت إلى خيبة أمل قبل أن تستقر على زعل، فجلست أشرح لهم عن وضعي الجديد: "يا أخوانا أنا لسه جديد في الشغلانة والعمارة، ما ينفعش من أولها أبوظ الدنيا، الأدوار كلها متراقبة بكاميرات، لما يشوفوكوا داخلين بقزايز وهيصة كده ما ينفعش"، أصر بهجت ومدحت على الانصراف قائمين مقموصين، الوحيد الذي تفهم موقفي هو تامر الذي قال: "عندك حق بس إحنا من فرحتنا قلنا نحتفل بيك"، فزغدت بهجت ولكزت مدحت مجلسهم: "اقعد ياض أنت وهو، انتو حتعملوها زعلة؟"، غمغم مدحت: "ما هو كمان مقابلتك يعني..."، زغدته من جديد: "ما قلنا خلاص بقى"، أنهت هبة الموقف بأن قامت إلى المطبخ المفتوح وأحضرت طبقًا وشرعت تكسر سجائر استعدادا للفها،

فأخرج بهجت قطعة الحشيش واستقطع منها نصيب الليلة، وفتح تامر زجاجة الويسكي متجها للثلاجة صائحا: "يا عم اللي عليَّ عليَّ، وكمان بآيس ميكر"، قمت إليه منتحيا به جانبا: "كنت عايزك في مشوار كده"، بشهامته الصادقة التفت لي مهتما فأردفت: "عايزك تنزل معايا تنقيلي كام حتة كده تليق بالوضع الجديد والشغل يعني"، وجدته يحتضنني بفرح: "تصدق إن انت ابتديت تفكر صح، بس انت مش محتاج عربيتي، المول اللي تحت البرج فيه..."، قاطعته مخفضا صوتي: "عارف وكلهم عايزين يخدموني، أنا مش عاوزك سواق أنا عايز عينك معايا وذوقك"، "ماتقلقش"، قالها وضربني على كتفي ضربة حنينة كادت أن توقعني، وحمل الثلج في طبق غويط عائدين إلى الجلسة.

بادرني مدحت: "إحكيلنا بقى حكاية الحريقة والبطولة الخارقة"، هتف تامر: "آه صحيح داحنا سمعنا بلاويع اللي انت عملته"، أصابني الشغف أن أعرف حجم وشكل الحكاية بعد أن لاكها الناس على مدار ثلاثة أيام، فكانت كالتالي: أني كنت في الشيفت بتاعي، وشيء إلهي قالي انزل أطل على البرج الجديد اللي حسكن فيه، وأول ما وصلت الجراج لقيت الدخان الاسود طالع من أول دور تحت الأرض، فجريت بسرعة وأخدت طفاية الحريق ولفيت البالطو الأبيض على وشي عشان الدخان، وابتديت أقاوم النار لغاية ما خمدتها، وكملت للدور التاني وأخدت معايا طفايتين احتياطي، والنار كانت أشد في التاني ففتحت الطفايات التلاتة دفعة واحدة، وبقيت ألف بيهم زي الطاحونة داير ما يدور، لغاية ما طفيت الدور كله، ورحت

نـازل للتالت وما معاييش غير نص طفاية، فرغتها كلها على مصدر النار لكن الدخـان كان ملا صدري، فدخت ووقعت وانـا حاضن الطفاية"، ثم باقـي المعروف من وصول المطافئ وإنقاذهـم لي! إلى هذا الحد وصل تشويه الحقيقة، إلى هذا الحد يحتاج الناس أن يعيشون قصة بطولة فنسجوها لأنفسـهم، مما دفعني أن أهز رأسي إيجابا، وقلـت: "أحكيلكو إيه ما انتوا سمعتوا كل حاجة"، واستمرت السهرة حتى الحادية عشرة، حين غمزت تامر، فقام معلنا الرحيل ومرسخا مبدأ النوم مبكرا، فقاموا مودعين تاركين آثارهم وخرجوا، ولدى البـاب مالت عليَّ هبة تهمس: "أنا مش مصدقة حكايتك، إنت الفجم عضك.. خلي بالك"، انغلق باب الأسانسير وظللت متنحا في كلام البت هبة.

استيقظت في الخامسة صباحا، يا دوب لحقت الفجر، وواجهتني مشكلة لم أحتسـبها، فليس عندي ملابس غير التي عليَّ، وصنعت لنفسي فنجان قهوة من البن الفاخر الذي وجدته في المطبخ ضمن ما وجدت من فواخر أخرى مثل أصناف الشاي أبو فتلة وسكر وزيت وسمن وكل مستلزمات البيت الأساسية، والثلاجة عامرة بالفاكهة وزجاجات مياه معدنية والسواقع من عصائر ومياه غازية.

رحت أتجول في الشقة، أقف في كل ركن كما لو كنت أذاكر مقاساتها، لا ينقصها شيء، حتى التابلوهات على الحوائط كانت منتقاه بعناية وذوق رفيع، لكن إذا قارنتها برسم الواد حامد فهي لا تساوي شيئًا، أي نعم هي

لوحات لمناظر طبيعية ومراكب الغليون متعددة الأشرعة، وغابات وحدائق نـضرة وبحيرات لكنها ميتة أو بمعنى آخر هي هندسـيا صحيحة، لكنها صـماء باردة، أما لوحات حامد فتنضح الحياة منها، كما أن هذه اللوحات تشعرك بالغربة، فهي مناظر أوربية أمريكية بحتة، أما حامد فلوحاته مصرية نوبية جبتية قحة، عموما هذه اللوحات الرشيقة تتمشى مع إستراتيجيتي الجديدة، أن أنسى الماضي والقرية والناس حتى أصدقاء أسيوط.

موعدي في العيادة في تمام الثامنة كما أكدت لي السمراء نور، لا أريد أن أخطئ خطأ واحدًا أو أبدي تقصيرًا أو تهاونًا وكسلًا، فهذه فرصة "مابتجيش غـير مرة في العمر"، كما أكدت لي البيضاء مجد، فلأغتنمها وأثبت جدارتي في عملي الجديد.. عملي الجديد! ما هو؟ يخرب بيت دماغك يا جاد، فأمام الصدور الناهدة والأفخاذ العاريـة والأنوثة الطاغية التي أحاطتني أثناء توقيع العقد، نسـيت أن أسـأل عن وظيفتي الجديدة، وقعت على شيء لا أعرفه، لم أسأل حتى عن الماهية، كل ماقيل لي "تكون على مكتبك الساعة 8 الصبح لخمسـة بعـد الضهر" مكتبـي؟ ماذا أفعل خلـف مكتب؟ وما الوظيفـة أو المنصب؟ وأسرعت إلى صورة العقد أقرأه لأول مرة، مررت على الديباجات القانونية السخيفة بسرعة حتى وصلت للبند الرابع المعنون بطبيعة العمل، فوجدتني المشرف المسئول عن حركة دخول وخروج المرضى من العيادة! ما هذا! في الحقيقة استأت جدا من الوظيفة التي لا تتعدى أن أكون موظف حركة، مثلها مثل ملاحظ أنفار أو بالكثير مسجل أرشيف، وفي فورة غضبـي ألقيت العقد مقررا الرفض وشـعرت بإهانة، وما هي

إلا لحظـات حتى أطل عليَّ شـيطاني يهدئني، أنا أعرفـه هذا اللعين الذي يحاورني ويوسـوس لي في الرائحـة والغادية، لكنه هذه المـرة يقول كلاما معقولا "اهدى ياحمار وبص حيدفعولك كام"، وبناء عليه أمسكت العقد وجريت بإصبعي حتى وصلت لرقم 7000 جنيه شـهريا، تزيد كل سـنة 20 % لمدة ثلاث سنوات غير الحوافز والبدلات والأرباح! يا للهول! يعني حخشـلي في عـشرة آلاف جنيه، والله كان عنده حق شـيطاني أن يهدئني، ولسـت أدري لمـاذا تذكرت فؤاد المهندس في مسرحيـة المدير الفني حين قال: "طرطور بستين جنيه وماله"، فلأكن طرطورا أو مرمطونا أو موظف أرشيف بعشرة آلاف جنيه.. وما له؟!

في تمام السـابعة والنصف كنـت أقف أمام بـاب الإدارة، وبعد عشر دقائق حضرت الخمرية عصمت التي ابتسـمت مصبحة "صباح الخير.. مبدر يعني"، وفتحت الباب داخلة، فتبعتها ممنيا نفسي بصباح نادٍ وكوب شاي مع تلك الأمورة، إلا أنها ما إن جلست إلى مكتبها حتى بدأت العمل فورا كأنها ماكينة ضغط زر تشغيلها، لم تأخذ تلك اللحظات التي نأخذها عادة حتى نستفيق ونشرب الشاي والقهوة، وقد يستحلي البعض الإفطار الجماعي ثم دردشة الصباح.. منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة أصدرت تقريرًا عن عدد ساعات العمل في جميع دول العالم، فوجدوا أن الياباني يعمل من 9 إلى 10 سـاعات يوميا، أما المصري 20 دقيقة في اليوم! الفارق المهول بين الرقمين هو نفس الفارق بين الخمرية وأنا.

فهي بدأت فورا بالاتصال بالأقسام تطلب تقارير العمل في الليلة الماضية وأنا أفكر في صباح نادٍ مع الأمورة، هي تتحرك بسرعة وأنا متراخٍ، هي تنظر بين الفينة والأخرى في أجندتها التي تدون فيها كل شيء، وأنا أعتمد على الذاكرة وما تيسر به الحظ أن أتذكر ما يجب عمله، هي تسبق الأحداث وأنا أتبعها، هي ناجحة وأنا فاشل.. أعادتني إلى الواقع وناولتني مجموعة دفاتر قائلة بنبرتها الآلية الساقعة: "دول دفاتر القيد حتلاقيها متقسمة خانات، كل مريض يدخل العيادة يتسجل هنا، أهم حاجة تاريخ الدخول وتاريخ المغادرة عشان مراجع الحسابات..."، لم أسمع باقي ما قالت؛ لأني سرحت في صدرها العرمرم، وأنا أقف قبالتها وهي جالسة إلى المكتب، وفاجأتني بسؤال: "أنت لسه ماجبتش هدومك من بيت الطلبة؟"، أفقت قائلا: "لا حبقى أجيبهم بعد الشغل"، النساء دقيقات الملاحظة فيما يخص الملبس، وكنت أعتقد أن لا أحد سينتبه أني بنفس ملابسي منذ الأمس، تحدثت دون أن تتوقف لحظة عن الدق على مفاتيح الكمبيوتر، أو تتصل بتليفون تسأل عن معلومة، ولا تفتأ تنظر في ساعة يدها رغم وجود منبه فخيم على مكتبها، وساعة ضخمة على الحائط.

مع اقتراب عقرب الدقائق من تمام الثامنة دخلت نور ملقية تحية الصباح بطريقة ميكانيكية، ولم تهتم أن تتلقى ردًّا، وفعلت مثل ما فعلت زميلتها.. ضغطت زر التشغيل منهمكة في استخراج أوراق من ملفات من أكثر من شانون، وفجأة رفعت رأسها تجاهي: "انت ماجبتش هدومك من بيت الطلبة؟"، وعادت إلى ما هي فيه، فابتلعت ردي وسكت، وفي تمام الثامنة

بالثانية دخلت مجد ببياضها الوضاح وتحية الصباح التي لا ترد وقالت: "انت لسه ما جبتش هدومك من بيت الطلبة؟"، وصل إحراجي إلى مداه مصحوبا برنة زهق: "لأ لسه.. ومش حجيبهم لإن هدومي كلها ماتنفعش للشغل"، نظرت إليهن: "إزاي تفوتكم حاجة زي دي؟"، من دون مقدمات أو كلام قامت مجد وصحبتني من ذراعي كأني حقيبة سفر تجر على عجل، واتجهت بي خارجين، فسألت: "حنروح فين"؟، قالت: "حنعدي على البنك نفتح لك حساب ونشتريلك هدوم"، رغم إحساس المهانة إلا أني منيت نفسي بخروجة طرية مع عصمت المهلبية.. ماذا حدث لي! فمنذ وطأت قدماي هذا البرج وأنا لا أفكر إلا في الجنس، وتقاربت فترات الاستثارة بعد أن كانت متباعدة، حتى صارت تلك حالتي المزاجية العامة، وانغلق علينا باب الأسانسير من جديد، ومن جديد تمنيت أن يكون الشيطان ثالثنا.

ما كنت أظنه فسحة طرية مع البيضاء المهلبية كان أشبه بمهمة عسكرية، فقد توجهنا إلى البنك أسفل البرج في تمام الثامنة والنصف وتمت إجراءات فتح الحساب في 45 دقيقة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه، أفهمتني عصمت أنها ستخصم من حسابي آخر الشهر، ثم توجهنا إلى محلات الملابس المنتشرة بكثرة في المول، اشترت لي عصمت مجموعة ملابس بما قيمته عشرة آلاف جنيه، وحين حاولت إفهامها أني غير جاهز لهذه الميزانية، أفهمتني أنه سيتم خصم كل المصروفات من ماهيتي على دفعات شهرية. فحمدت الله على الستر، وفي تمام العاشرة صعدنا إلى العيادة، حيث أسلمتني عصمت إلى مجد، التي صحبتني إلى مكتبي الواقع في الدور الثامن عشر، وهو غرفة صغيرة،

بل قل صندوق كبير لا تستطيع أن تقول عليه أنيق، بل فقط نظيف، وهو ملحق بقسم الاستقبال حيث يرد الزبائن أول ما يردون لتسجيل بياناتهم في استمارات، أحفظها في ملف يحمل اسم المريض، واستمرت مجد تشرح لي تفاصيل عملي الممل لمدة ساعة تقريبا وتركتني وانصرفت.

24

جلست أتأمل المكان، حوائط مصمتة بيضاء، لاصور ولا زرع أو ورد، وشباك أشبه بشباك السجن يطل على أسطح العمارات المجاورة انتزعني من تأملاتي للمكان وصول مريضة، يا مهون يا رب، وبدأت عملي بهمة ونشاط بمجرد أن جاءتني الاستمارة التي دون عليها اسم المريضة كريمة الحاج فرج زيتون الأسيوطي، تاريخ الدخول.. ورحت أدون كل البيانات بدقة في الدفتر المكربن وأعطي لها رقمًا حتى وصلت لبند الطبيب المعالج، فسألت مرافقيها من النسوة المتشحات بالخمار وقفازات الكف عن اسم الطبيب الذي يباشر علاجها، فلم يعرفن، فتعجبت لأن الحالة مكتوبة استئصال جزء من المعدة، أي أن هناك طبيبًا كان يباشر الحالة، وهو الذي حوَّلها للعيادة، وحين لم يجئني رد، رفعت التليفون وطلبت صفر واحد وهو رقم البيضاء عصمت، وبعد نصف رنة جاءني صوتها الساقع الميكانيكي

المحايد "عصمت" قالت اسـمها ولم تقل ألو، فكما تعودت تحدثت بهدوء وأدب وود: "أيوة يا أسـتاذة عصمت أنا جاد ازيك؟"، لحظة صمت، ثم صوت غير فاهم: "إنت بتسأل على إيه يا دكتور جاد؟".

تذكرت الأفلام الأمريكية التي رأيتها، وتكررت فيها مشاهد مكالمات العمل السريعة الحادة الجادة المختصرة المفيدة الباردة الخالية من كل مشاعر لأنهم أناس عمليون، ونحن أناس عاطفيون، فتجد مكالمات العمل تحوي كمًّا من السلامات والطمأنة على الصحة وصحة المدام والأولاد، ثم الدعاء أن يحفظهم الله ويبارك في وقتك، ثم الاعتذار عن التعطيل ثم تمهيد لطيف ثم رجاء إرسال البيانات المطلوبة.. نادتني عصمت: "دكتور جاد"، فرددت مستفيقا: "أيوة يا أستاذة أصل فيه حالة جت دلوقتي وملت الاستمارة من غير اسـم الطبيب المعالج وأنا مش عـارف..."، قاطعتني: "دخل الحالة وتعالالي"، فأدخلت الحالة وأخذت دفتر الاستمارات وصعدت، قابلتني عصمت بوجه جاد حاد مقطب حازم، ولقنتني درسا في أسلوب مكالمات العمل، فليس فيها ازيك وعامل إيه وأخبارك إيه، ليس فيها حكي تفاصيل، ليس فيها كتر خيرك أو شاكر فضلك أو والنبي، ليس فيها معلش حعطلك أو لو فيها رزالة، فقط السؤال مباشرة ورده، بل وراحت تجري معي بروفة، حتى علمتني أن أسأل بلا مقدمات أو ذيول، فالوقت له ثمن، فسألتها كما علمتنـي: "مين الطبيب المعالج؟"، قالت وهي تتجه لمكتبها تتابع عملها: "دي حالة جاية من نفسها مش محولة من حد"، قلت: "يعني أسيب الخانة فاضية؟"، قالت: "اكتبها باسـمك" فاندهشـت، رفعت رأسها شارحة:

"دي مجرد شـكليات ما تقفش عندها، وبعدين اسـمك على الاسـتمارة حيضاف لنقطك السنوية، لو مش عايز بلاش"، رددت بلهفة: "لا عايز، بس.. إيه حكاية النقط السنوية دي؟"، قالت: "كل دكتور له نقط بياخدها على شغله، بتتجمع آخر السنة، وعلى أساسها بتتحدد نسبة الأرباح، المتابعة غير الإشراف، غير الكشـف، غير العمليات، كل تخصص له عدد نقط". هممت أن أستمر في الأسئلة، لكنها عادت إلى عملها كأني غير موجود "أي أسئلة تانية تبقى بعد ساعات العمل الرسمية"، هكذا صرفتني.

لا أدري لماذا نأخذ الكلام العملي بشكل عاطفي أخلاقي! فقد شعرت بمهانة من أسلوبها، لكني تذكرت أني جديد في عالم العمل، وحياتي الجديدة لها مفردات كثـيرة عليَّ أن أحفظها حتى أتكلم لغتهـا، وطبائع كثيرة من موروثات حياتي القديمة العاطفية الأخلاقية، عليَّ أن أتنازل عنها وألغيها من تفكيري وعدت إلى مكتبي وقد زدت خبرة وتعلمت جديدًا، وبدأت أشعر أن وجودي في هذا المكان مفيد لي، فالدكتور عويس يعرف أني طبيب أولا وأخـيرا، فكونه يضعني على بوابة الدخول إنما كمن يبدأ من المطبخ، ففركت يديَّ مستشـعرا أملا كبـيرا ونجاحا مبهرا، وأدركت أني لو أثبت جدارة في موقعي البسـيط هذا فسوف تنفتح أمامي طرق المجد والثراء.. وتتابعـت الحالات في اليوم الأول بين باطنـة وعظام وجروح وإصابات وعمليات بسيطة مثل اللوز والمصران، حتى جاءتني كريمة الحاج عليش الأسيوطي.. جاءت بمفردها، خائفة متوترة مترددة، رغم ارتدائها النقاب إلا أني لمحت في عينيها ما حكى الكثير، سألتها عن اسمها فترددت، وقالت

بصوت مرعوش "كريمة الحاج عليش الأسـيوطي"، هنا توقفت واضعا القلم، فهذه ثاني حالة تحمل اسم كريمة الحاج، بمعنى ابنة الحاج، وكنت أعتقد أن الحالة الأولى اسمها كريمة وليس كنية، فاستأذنت منها ودخلت أتحدث من التليفون الداخلي، فجاءني صوتها "عصمت" قلت مباشرة "فيه واحدة اسمها كريمة الحاج عليش الأسيوطي..."، قاطعتني: "دخلها واكتبها باسمك مش حتلاقيلها طبيب معالج"، وأغلقت الخط.

عدت إلى كريمة الحاج عليش وسـألتها عن الحالة، فتلعثمت وكادت تبكـي وهمت بالانصراف، غلبني قلبي ولم أسـتطع أن أتخلى عن عاطفتي فقلت أوقفها: "بتشتكي من إيه؟"، ويبدو أن السؤال خرج من قلبي فوصل لقلبها، فعادت منكسرة وقالت: "نسا"، فأدركت خجلها معتقدا أنها تعاني من مرض نسوي مثل عدم انتظام الدورة الشهرية أو شيء من هذا القبيل، فسجلتها أمراض نساء، ووضعت اسمي في خانة الطبيب المعالج، وصحبتها ممرضة الاستقبال إلى حجرة 102.. جلست إلى مكتبي وقد شارفت الساعة على الرابعة والنصف، وسرحت في تلك المريضة الصغيرة التي لم تتجاوز العشريـن، لماذا جاءت بمفردها؟ وما سر توترهـا؟ ولماذا توقفت عندها بالـذات؟ وتذكرت مقولة عمي دهـب "كل عيان هو أخوك أو قريبك"، وقال جدي الكبير: "شغلانتك مقدسة يا جاد الله، إنت إيد ربنا في الأرض، عليـك تعالج وعليه الشـفا"، رن جرس الانصراف معلنا تمام الخامسـة، فأغلقت الدفتر بعد أن وقعت وانصرفت.

توجهت إلى الإدارة، فوجدت الفاتنات الثلاثة مجتمعات في الصالون الملحق مفترشات وجبة سريعة، فاعتذرت وهممت بالانصراف، لكنهن أوقفوني وأصررن على مضايفتي، فبعد انتهاء العمل لا حرج ولا قواعد، وبخجل شديد انضممت إليهن من باب الجوع أولا، ووجدتها فرصة ثانيا لأزيد معرفتي بهن واستمتع بجمالهن، خاصة وقد تحررن من الجاكيتات والبلاطي البيضاء وحتى الأحزية، واضجعت نور على الأريكة ممسكة بطبقها أسفل ذقنها سائلة: "عامل إيه في شغلك؟"، هززت رأسي مبتسما: "الحمد لله"، قالت البيضاء مجد وقد مددت ساقيها الحافيتين على مقعد: "كنت عايز تسألني عن إيه؟"، أخذت وهلة استجمع فيها أفكاري حتى تذكرت: "آه الحالتين اللي جم باسم كريمة الحاج دول ليه مش بيقولوا اسمهم؟"، صحيح أنا طيب لكن مش عبيط ولا أعمى، فقد سرت نظرات غامضة بين الثلاث غادات، وأجابتني الخمرية عصمت وهي تلتهم طبق سلطة هو كل غدائها: "في الأرياف ما بيحبوش يكتبوا اسم الستات والبنات في أي استمارة"، فأمنت بهزة من رأسي، وقلت: "أيوة بيعتبروها عورة.. مش فاهم ليه!"، علقت نور: "تخلف"، قلت من باب الحديث: "بس أسيوط دلوقتي ما عادتش أرياف دي بقت زيها زي القاهرة"، قالت مجد: "من برة، لكن عقول الناس لسه مقفلة"، أضافت عصمت: "الجهل لسه معشش هنا"، وأشارت إلى رأسها، فعلقت نور: "الجهل بس؟. والمرض"، قالت مجد ضاحكة: "ربنا يزيده أهو كله مكسب لينا"، قلت: "مصائب قوم عند قوم فوائد"، فهتفت نور: "والاتنين ملمومين ع الفقر"، بلا وعي قلت:

"فجم"، طالعنني بنظرات متسائلات فكررت الكلمة شارحا "فجم.. فقر، جهل، مرض"، ضحكن من تعبيري، وقالت مجد: "انت لذيذ قوي يا جاد"، في الأحوال العادية كنت سأطير انبساطا بمديح مثل هذا، لكني كنت انشغلت عنهن وعن باقي المديح في شخصي ووسامتي وأدبي وأخلاقي، وباقي الثرثرة التي لم أسمع معظمها إلا لما عن إقامتهن في نفس البرج وعن حياتهن الخاصة، فمجد أردنية أصلا، وعصمت إسكندرانية، ونور خليجية هذا ما استطعت أن ألتقطه من الجلسة، أما نصف عقلي فكان في مكان آخر، كان عند الفجم وبدأت أربط بين الاسم الذي أطلقته منذ قليل وبين الوحش الذي أصارعه، فوجدت الصلة قوية ومنطقية ومباشرة، وتعجبت كيف لم أفطن لكنة الاسم من قبل، وهل أنا فقط أم باقي مَن يعرفونه يجهلون العلاقة بين الفقر والجهل والمرض.. والفجم؟

مرتديا ملابسي الجديدة تقمعت على سنجة عشرة، لا أعرف ما هي سنجة عشرة تلك التي اتخذها الناس مقياسا للأناقة والوجاهة والشياكة! وتوجهت من فوري إلى مكتب الإدارة، ليس لإثبات حضوري مبكرا، بل لأستعرض أيافتي، لكن ما إن دخلت ملقيا تحية الصباح بابتسامة رشدي أباضة وشموخ عزت العلايلي ونحنحة عبد الحليم حافظ، إلا وقابلتني البيضاء مجد بوجه معدني: "صباح النور.. أيوة؟"، فحرت في أمري وهززت يديَّ كطفل يقول: "أنا جيت"، فتحول رشدي أباظة إلى إسماعيل يس والعلايلي إلى شكوكو وعبد الحليم إلى القصري! قالت منبهة: "الزيارات الشخصية ممنوعة يا دكتور جاد"، وعادت إلى عملها، فجررت

أذيال الخيبة والخجل، وخرجت وفي الكوريدور، التقيت بالخمرية عصمت التـي بادرتني: "فيه حاجة يا دكتور جاد؟"، قلت: "لا أنا بس كنت طالع أصبح"، قالت: "المجاملات الشخصية ممنوعة" وتركتني مبلولا، فاتجهت إلى الأسانسير فوجدته صاعدا فوقفت أنتظر وأنا مدلدل، وما هي إلا ثوانٍ وانفتح الباب عن السمراء نور التي بادرتني: "إنت مش على مكتبك ليه؟"، قلت: "كنت.. كنت.. كنت بصبح"، وجاء ردها مشابهًا لردود زميلاتها: "اللقاءات الشخصية ممنوعة"، وتركتني محبطًا خجلان.

ما إن جلست على مكتبي، حتى رن التليفون، فرفعت السماعة وقلت: "الاستقبال جاد"، بالضبط كما علمتني الغادات الفاتنات فجاءني صوت مجد: "فين التقرير بتاع امبارح؟"، قلت: "حعمله حالا"، قالت في بواخة: "ما هو لو انت على مكتبك في معادك كنت خلصته، الساعة 8 وعشرة"، وأغلقت الخط، ولا أدري لماذا تذكرت زكي رستم في فيلم نهر الحب وهو يقـول: "دقيقة واحدة تفرق في مصير أمم يا هانم"، وظللت أسـلي نفسي بشـطحاتي وأنا أقوم بعملي الروتيني في إعـداد التقرير، وهو ملء جدول بتاريخ اليوم يوضح فيه حركة النزلاء والمرضى المقيمين والعابرين، وهذا التقرير يشمل عملي وعمل المناوب الليلي الذي يستلم مكاني والذي لم ألتقِ به حتى الآن، فأنا أنصرف في الخامسـة، وهو يأتي في السادسـة، لماذا هذه السـاعة الفرق؟ وأنا أحضر في الثامنة وهو ينصرف في السـابعة! وأنهيت التقرير وصعدت به.

دخلت المكتب دون أن أطرق الباب، ووضعت التقرير أمام مجد، واستدرت خارجا، لكنها استوقفتني: "استنى رايح فين؟"، قلت: "التقرير أهو"، قالت شارحة: "لازم أراجعه وأمضيهولك"، وتركتني واقفا حتى مرت بعينيها الجميلتين على التقرير، ثم قالت: "فين خروج أوضة 102؟"، فحرت جوابا قالت: "أوضه 102 خرجت النهاردة الفجر، ليه مش متقيدة خروج؟" قلت: "أوضة 102 مين؟"، وأخذت التقرير أنظر فيه فوجدت أن غرفة 102 هي كريمة الحاج عليش الأسيوطي، فقلت: "آه دي كانت متحولة نسا، يظهر المناوب نسي يقيدها خروج"، هزت رأسها وقالت: "عيد التقرير وأيدها خروج"، قلت: "بس..."، قاطعتني نور: "دي شكليات يا دكتور ماتقفش عندها" وأضافت عصمت: "الروتين معطل".

جلست إلى مكتبي وطلبت ملف الحسابات لأستخرج فاتورتها وهي سند الخروج الذي يجب أن يرفق بملفها، لكني فوجئت أنه ليس لها ملف! كيف هذا؟ ورفعت السماعة لأبلغ مجد بهذه المخالفة الشنيعة مثبتا أني صاحي مش نايم، ولعجبي أنها تلقت المخالفة بصوت بارد قائلة: "أنا قلتلك تكتبها خروج مش تفتش وراها"، قلت: "ما أنا عشان أقيدها خروج لازم اشوف ملفها و.."، قاطعتني شاخطة: "قيدها خروج وبس"، ورزعت السماعة، هنا وجدتني أقف موقفًا هملتيًّا من جديد، فأسلوب التعامل هذا لا يصح ولا يليق، أنا ما حدش يشخط فيَّ، واتكأت بكفي على حافة المكتب أهم بالوقوف والاتجاه إليها أريها مقامها، فأنا جاد الله بن آدم الجبتي، لكن في منتصف الوقفة تسمرت، إذ خرج لي شيطاني الصغير من ياقة القميص

وراح يوسوس في أذني: "حتعمل إيه يا حمار؟"، فظللت على وضعي نصف واقـف ونصف جالس: "حطلع أوريها مقامها"، قال: "مقامها تاني راس في العيادة ومديرتك المباشرة وروحك في إيدها"، فسقطت جالسا: "لازم أوقفها عند حدها، لازم تعرف أنا مين"، قال اللعين: "انت مين؟" قلت: "جاد الله بن..."، قاطعني: "إنت حتقولي اسمك! ما هي عارفاه، بس انت مين بالنسبة لها، بالنسبة للعيادة، بالنسبة للدنيا"، هنا توقفت فاقدا الحجة والرد، فاسـتطرد: "افتكر كلام جدك الكبير، خليك متواضع، ماتحطش نفسـك قدام عينيك، انت لو اتحمقت لنفسك يبقى بتدمرها، زيح نفسك من قدام عينيك عشان تشـوف الموضوع"، قلت: "إيه الموضوع؟"، قال: "مستقبلك.. أحلامك"، ووجدتني أسأل نفسي عن أحلامي.. ما هي؟ كيـف أرى نفسي بعد ثلاثين عاما؟ بلاش طـب بعد عشرين طب عشرة أو خمسة، سنة، طب ثلاثة أشهر؟ وعجبت أني لم أستطع أن أتصور نفسي بعد ساعة واحدة من الآن! كيف هذا! أنعيش ونتحرك في الحياة هكذا بلا إرادة أو اتجاه؟ فوجود الاتجاه يخلق الإرادة، والإرادة تخلق الحركة، والحركة تتطلب خطة، والخطة تحقق خارطة طريق وخارطة الطريق توصل للهدف، فما هدفي؟ وتذكرت سؤال جدي الكبير الدائم: "عايز تطلع إيه لما تكبر؟"، وها أنا قد كبرت، وبعد أيام سأستلم شهادة البكالريوس وأستعد من فوري للماجستير، ثم الدكتوراه، ثم أصبح طبيبًا ولي عيادتي أو مستشفى باسمي.. كان حلم سمر أن أفتح مستشفى في قريتنا أعالج فيها الناس الغلابة.. كم كنتِ سـاذجة ياحبيبتي، فعلاج الغلابة سـيجعلني أغلب منهم، فالطب

يا حبيبتي أصبح استثمارا وليس خدمة إنسانية، لكني أعدكِ إن ربنا وفقني وفتـح عليَّ وبقيت غنيًّا ممكن أفكر أفتـح عيادة في قريتنا، وبناء عليه تحدد الهدف الأول.. أن أكون غنيًّا، وبلعت كرامتي، ودون أن أدري هبطت ثاني درجة في سلم التنازلات وأمسكت القلم وكتبتها خروج ووقعت.

25

الأيام تمر بشكل متكرر نمطي ممل، حتى إن تفاصيلها تتداخل لتصبح الأيام كلها كأنها يوم واحد، النهار يتبع الليل، وفي النهار عمل وفي الليل فراغ، براح من الوقت لا يشغله شيء، حتى التليفزيون لا يبث جديدًا، نفس الأفلام ونفس البرامج الحوارية، يقولون المقال ويلوكون الكلام ويهرولا في المهري، أين الأصدقاء؟ ونظرت في ساعتي فوجدتها الثامنة، أيكونون عند تامر، أم في شـقة توم وجيري؟ وقمـت مرتديا ملابسي وخرجت واضعا يدي في جيوبي وقفت أنتظر الأسانسير، وما إن فتح الباب حتى هبت على أنفي رائحة رطبة كريهة، إنها رائحة الفجم، وبسرعة تفقدت الكابينة الخالية ودخلت متوجسا ضاغطا زر الأرضي، وما إن تحرك حتى سمعت صوت خرفشـة فوق سقف الكابينة، وفشلت أن أكشف سر الخرفشة من خلال فتحة التهويـة ذات العوارض المعدنية وفجأة توقف المصعد عن الهبوط!

توجست وتراجعت ملتصقا بركن الكابينة وتابعت صوت الخرفشة الذي تحول إلى دق كما لو كان بمطرقة ثقيلة، ومع ثالث هبدة سـقط إطار فتحة التهوية، فازددت التصاقا بالركن الخالي، وفي ثانية كان رأسه الضخم ينفذ مـن الفتحة التي لم تسـع إلا رأس واحدًا، كدت أخرق الحائط من شـدة التصاقي، وركبنـي رعب الموت المحقق، فقد حصرني اللعين في مكان لا اختباء فيه ولا سلاح، وبدأ وجهه القبيح يقترب مني وأنا لاحول لي ولاقوة، ولعجبي كنت أظن أني سـأغمض عينيَّ حتى لا أرى انقضاضته الأخيرة التي سيجهز بها عليَّ، لكني ظللت مبحلقا في وجهه الكريه مفنجل الأعين، وطال انتظار الانقضاضة التي لم تأتِ، بل راح يحرك رقبته في حركة ثعبانية صعودا وهبوطا ويمينا ويسارا يتشممني حتى لامست أرنبة أنفه ملابسي، وبلسـان خشـن لزج لحس وجهي، وأكاد أقسم أني لمحت شبح ابتسامة! أي والله! أيعرف هذا البغيض الابتسـام؟ ولم أصدق نفسي وهو ينسحب خارجا من الفتحة كما دخل، وقبل أن أفيق من الخضة تحرك المصعد هابطا حتى وصلت الدور الأرضي، لينفتح الباب عن بعض السكان الصاعدين الذين لاقوني بالترحاب المعتاد لبطل البرج، ونظر أحدهم إلى إطار فتحة التهوية الساقط، وصاح: "البتاعة دي وقعت تاني! ما تشوفوا حد يربطها عدل"، فخرجت وظللت واقفا أحاول اسـتيعاب ما حدث، لكني أفقت على الرائعة السمراء نور تخرج من معرض سيارات البرج، فهتفت: "أوو دكتور جاد إيه الصدفة الجميلة دي"، وبتلقائية قبلتني على الطريقة الحديثة للسـلام بين الناس الشيك، وقدمتني إلى صاحب المعرض، الحاج رجب

الأسيوطي، وتبادلنا التحيات وكلام اللقاءات العابرة، حتى قال: "يظهر الدكتور مش عايز ينفعنا"، قالت نور: "اصبر عليه ده ما بقالوش شهرين، ولسه مستلم شهادته" قال: "ينقي العربية اللي يحبها والدفع زي ما انتي عارفة"، قلت: "عربية إيه؟"، أخذتني من ذراعي مبتعدين: "الحاج رجب بيتشطر علينا يا سيدي.. إنت رايح فين؟"، شعرت أن وراء السؤال دعوة فقلت بسرعة وتأكيد: "ولا حتة"، قالت: "يبقى تيجي تتعشى معانا".

ما أعجب الجميلات الثلاث! فهن في النهار رجال، وفي الليل إناث.. جدا، توجهنا إلى مطعم إيطالي في البرج، وتناولنا الباستا والنبيذ، ومع الرشفات الصغيرة الرشيقة دار الحديث، لكن لأني غشيم رحت أعب من كأسي كما الكازوزة، فأمسكت نور يدي منبهة: "إنت عطشان قوي كده؟"، فقالت مجد: "النبيت يتداق مش يتعب"، رفعت عصمت كأسها وقالت: "كده"، ورشفت رشفة صغيرة تكاد تكون بلة لطرف الشفة المكتنزة التي تدعوك لعضها.. أتراهما طبيعيان أم بوتكس؟ ورحت أتأمل وجوههن وأنا أتدرب على الشرب الشيك، لاحظت ملامح مشتركة بينهن، أولها عدم وجود تجاعيد في الوجه والرقبة، ثم الشفاه والخدود كاملتا الاستدارة والكلبظة، والحواجب مزجاة بعناية فائقة ومرسومة بدقة متناهية ليس فيها شعرة نافرة، والشعر نظيف ولامع ومصفف لا يهزه هواء، فقط يتمايل مع حركة الرأس "انت ساكت ليه يا جاد؟"، انتبهت من غفلتي ووجدتني أقولها صراحة: "بفكر فيكم"، نجحت في جذب انتباههن، فقد قرأت الشغف يطل من العيون الست فقلت: "إزاي بتقدروا تعملوا كده؟"، زاد شغفهن

وركزوا معي بشدة "إزاي بتقدروا تبقوا الصبح حاجة وبالليل حاجة تانية خالـص"، وخرجت الجملة الأخيرة تحمل معـاني الإعجاب والبصبصة الصريحة التي توجبها حالة الانتشاء من النبيذ، فابتسمن وبادرتني عصمت: "هي الحياة كده، ما فيش حد طول الوقت على حال واحد"، علقت مجد: "دي تبقى ملل فشـخ"، وأضافت نور: "انت بتسـتثمر وقتك في إيه؟"، تعجبت لكلمة تسـتثمر فأضافت: "طبعا الحياة استثمار للوقت"، وقالت مجد: "الوقت بفلوس فأحسن استثمار هو استثمار الوقت"، قلت معتقدا أني زنقتهم: "والقعدة دي استثمار برضه"، قلن معا: "طبعا"، وشرحت عصمت: "إحنا بنخرج نتفسح ونغير جو ونبسط نفسنا عشان نشحن"، هززت رأسي متفهما وبنصف أذن سمعت ما تلا من حديث عن الاستثمار وأهميته، وأن الدنيا ما هي إلا اسـتثمار كبير، وليسـت مسرحًا كبيرًا كما قال يوسف بك وهبي، كنت قد وصلت إلى حالة ما بعد الانتشاء من النبيذ، فقلت: "يعني معرفة الناس اسـتثمار برضه؟"، أكدن لي أنه من أهم الاستثمارات، قلت: "فيه مثل بيقول البعد عن الناس غنيمة، ومثل تاني بيقول معرفة الناس كنوز.. أنهي فيهم الصح؟"، بلا تردد اخترن المثل الثاني، فالدنيا لا تسـير إلا بالمعارف والأصدقاء، ورحن يلقنني دروس الاستثمار المفيد للمستقبل الجديـد، لكني كنت تركتهن في تلك المحطـة وهبطت من قطار الحديث سارحا في السؤال الذي لم أجد له إجابة، لماذا لم يلتهمني الفجم؟ وتذكرت لحظة تبلورت وتبروزت أمام عينيَّ حين كان ملتصقا بي يتشممني، رأيته بوضوح شـديد، رأيت مسام جلده وثنايا جفونه وبؤبؤة عينه، رأيته لأني

كنت مفنجلًا، لماذا لم أغمض عيني؟ نحن نغمض أعيننا في حالات الفرح الشـديد، حين نحتضن عزيزًا غائبًا نغمض، وحين نشتاق بشدة نغمض، حين نخشع بشـدة نغمض، حين ندعو بإخلاص نغمض، وحين نتذوق طعمًا جميلًا نغمض! يبـدو أن أجمل اللحظات وأصدقها فقط هي التي لا ترى بالعين، هي اللحظات التي تسمو فوق الحواس، فتصبح حاسة النظر غير ذات قيمة، أما لحظات الخطر والخوف والوجل والرعب والهلع والحذر فكلها تحتاج إلى كل الحواس لدرأ الخطر، وأفقت من سرحاني على البنات الفاتنات يطلبن الحسـاب.. أخ.. لحظة لم أعمل حسابها، وبدأت أتحسس جيبي فالنقود التي أحملها يا دوب تكفي لباقي الشـهر، لكن أنقذني قدوم صاحـب المحل مرحبا ومعلنا أن الليلة على حسـاب المحل احتفاء ببطل البرج.. اللي هو أنا.

26

يوم جديد يلغي ما سبق من أيام حياتي الفارغة، ليملأها بحياة لها معنى وهدف، ومع كل يوم درس جديد، وجزء جديد يضاف إلى جاد الجديد، وينتقص من جاد القديم، أكاد أراني وأنا أنضج، أكاد أشعر بخلايا روحي تكبر وتتسع فيتسع معها أفقي ومداركي، وأدرك كم كنت عبيطا ساذجا، فالتفكير الأخلاقي البحت الذي كنت لا أعرف غيره لا يصلح للحياة العملية، حياة النجاح والوصول، حقيقة هناك بعض الألم المصاحب لعملية النمو، تماما مثل ألم السيقان الذي كنت أعانيه صغيرا، وعندما أشكو ألمي، يقول جدي الكبير: "بتطول"، وها أنا ذا أطول وأكبر ويزداد حجمي، نفسيا ومعنويا وعقليا، وبعد أن كنت عودًا يابسًا سهل الكسر، اشتد عودي وقويت عضلات روحي، والفضل لأستاذاتي الفاتنات اللاتي تولينني فكنت لهن تلميذًا نجيبًا، فمثلا أنا تربيت على إلقاء السلام وتلقي

الرد ورد الرد، فأقول: "السلام عليكم" واضحة وأعنيها ويجب أن أكون مبتسما باشا، فيجيء الرد من نفس الطبقة "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اتفضل" فأقول: "عشت أو دايما عامر أو زاد فضلك أو تشكر يا كريم"، مصحوبة بلغة الجسد كاملة من رفع اليدين والتربيت على صدري وانحناءة خفيفة بالجزع، وإياك أن تقولها وأنت مولي ظهرك أو تكون متحركًا، بل يجب إتمام عملية السلام من وضع الثبات وفي المواجهة، وإلا كان لها معنى آخر فقد يفهم الطرف الآخر أنك غاضب فيقول: "مالك يا جاد.. انت زعلان مني؟"، فأقول: "ربنا ما يجيب زعل.. ليه؟"، فيقول: "أصلك رديت السلام يعني كده خطيفي واديتني ضهرك ومشيت"، فأقول: "لا والله يا فلان أصلي كنت مستعجل حبتين"، فيقول: "وهم كلمتين السلام دول اللي حيعطلوك! ده السلام صدقة يا أخي"، وندخل في هري واعتذارات وتوضيح، وأحكي له سبب استعجالي الذي دفعني أن أكروت السلام وبعد نصف ساعة أقبل رأسه و"أنا محقوقلك يا عم".. أي فراغ وضياع وقت كان ممكن أن يستثمر، تعلمت الدرس الأهم من معلماتي الساحرات أن الاستثمار في الوقت هو أول سلم النجاح: "ماتخليش دقيقة تعدي عليك من غير ما تكسب"، على حد تعبير عصمت "الساعة اللي تعدي عليك من غير ما تزيد تخسرك"، كما قالت نور، أما مجد فقالت: "الاستثمار الاستثمار الاستثمار"، قالتها ثلاثًا وجرعت ما بقي في كأس النبيذ الذي أصبح مشروبنا اليومي على العشاء.. زي الأجانب بالظبط.. وفي خلال أربعة أشهر كنت الزبون المفضل في جميع محلات ومطاعم البرج، واكتشفت أني لم أخرج إلى

الشـارع طوال تلك المدة، لم أرَ السماء والشمس والنجوم.. يبدو أنهم من مستلزمات الفشل ومصاحبات للفشلة، بدليل أني في تلك المدة القصيرة ترقيت في عملي من مدون لعمليات الخروج والدخول إلى مشرف عام على الاستقبال، وبدأ سـلم الصعود يتحرك، لكن الإنجاز الأهم أني سجلت نفسي أو بالأصح سـجل لي دكتور عويس في الدراسات العليا للحصول على الماجيسـتير، وبدأت أخرج كتبـي القديمة وأوراقي لعلي أجد فيها ما يصلح كمادة للبحث الذي أنوي تقديمه تحت إشراف دكتور عويس، لكنه استدعاني في يوم وناولني مجموعة ضخمة من أبحاث الماجيستير قائلا: "اقرا دول واختار لك منهم واحد"، فتعجبت فشرح: "دول رسـايل ماجستير اقراهم وشوف انت عايز تعمل بحث في أنهي موضوع"، رغم عدم فهمي إلا أني هززت رأسي وحملت الكرتونة الضخمة وخرجت، وأصبح وقتي مقسمًا بين العمل صباحا والمذاكرة مساء، لا يكسرهما إلا عشوة طرية.

كنت أعتقد أن كرتونة الرسـالات التي أعطانيهـا دكتور عويس هي مجرد اطلاع على ماسـبق للوصول إلى جديد، فهذه هـي القاعدة الذهبية والهدف الأسـمى من الدراسات العليا أن تصل لجديد، أو تخرج بنظرية، أو تطور مفهوم أو تكتشف طريقة، فشهادة الدكتوراه تعني بالإنجليزيـة. Ph. D "Philosophy degree" أي درجة الفلسفة، وكلمة فلسفة تعني أن تضع يـدك على موضوع لم يطرقه أحد قبلك، وتبتكر وتخترع وتكتشـف وتوجـد أساسًـا جديدًا لم يكن موجـودا من قبل، وكلـما تمعنت في معنى الشـهادة ازدردت ريقي وزاد وجلي.. هل سأقدر؟ "ليه لأ هم اللي قبلك

مش قدروا"، هكذا أكدت لي نور تشـجعني، وأضافت عصمت تحفزني: "ودول بالآلاف، إنت عارف فيه كام حامل رسالة دكتوراه في مصر؟ فوق المليون تفتكر دول كلهم اكتشفوا ولا اخترعوا ولا قالوا حاجة جديدة؟". وأكملت مجد: "بلاش التفكير المثالي اللي حيأخرك"، ظللت أسمع كلامهم المشجع المتفائل، لكن في داخلي خجل من فكرة ما أستشعرها من حديث دكتور عويس حين أعطاني الرسالات، وربطت بينه وبين ما تقوله الغادات الفاتنات الآن، أيريدني الرجل أن أضرب بحثًا من تلك البحوث؟ لكني اسـتبعدت الفكرة، فالرجل أنقى وأرقى من أن يدفعني للسرقة العلمية، ويبدو أني بالغت في تشككي، لكن الأيام التي تلت ذلك أثبتت لي صدق حدسي وحقيقة مخاوفي، فقد أكدت لي البنات أنه من الغباء أن تضيع وقتك في اسـتحداث مـا هو غير موجود، أو التفكير فيـما ليس من ورائه طائل، وقالتهـا لي عصمت صراحة: "يعني حتكتشـف الذرة!"، وأضافت مجد: "دي حتة شهادة حتعلقها في مكتبك وتتسجل في دفاتر الدولة وخلصنا.. المهم الشـغل"، ورفعت نور كأسـها تحييني: "لاهو أنت فاكر إن كل اللي معاهم دكتوراه اخترعوا حاجة ولا اكتشـفوا مسمار حتى! كله بينقل من كله.. في صحة الدكتور جـاد"، ورفعت الأنخاب، وأنا مؤمن بإخلاص نصيحتهـن فانتقيت ثلاثة أبحـاث عرضتهم على دكتور عويس معلنا أني محتار بين أيهم، فانتقى لي أحدهم، وقال: "ده مناسب ليك.. مبروك عليك الماجيستير يا جاد عقبال الدكتوراه" وحين عدت إلى شقتي أمسكت بقلم وورقة ورحت أخطط، فقد علمتني البنات أن النجاح يبدأ من وضع خطة

زمنية لمشروع حياتك، وقد اتفقت مع نفسي من قبل أن هدفي أن أكون غنيا، أمتلك الخمسة عين، وأمامي سنتان للحصول على الماجستير، ومثلهما للدكتوراه، ثم سنتان لتأسيس نفسي في السوق توطئة لفتح عيادتي الخاصة، بذلك يصبح المجموع ست سنوات، وأنا الآن في السابعة والعشرين أي سأقف على أول الطريق وأنا في الثالثة والثلاثين، ووفقا لترتيب الأولويات تأتي العيادة في المقدمة تليها العربية ثم العقار، أي شقة ملك أو فيلا أنيقة، ثم العروسة ثم العزبة، وفرحت بنفسي جدا بهذا التفكير المنطقي، لكن مجد عدلت فيه ووضعت العربية قبل العيادة "دي أمرها سهل وتقدر من بكره تركب العربية اللي تحبها"، وما كنت أظنه صعب المنال اكتشفت أنه أسهل من السهولة حين اقتادتني نور إلى صديقها الحاج رجب الأسيوطي صاحب معرض سيارات البرج الذي صحبني في جولة لأنتقي السيارة التي تعجبني، فانتقيت تويوتا كورولا، لكن نور قالت: "حلوة بس.. مش مميزة"، فوقفت حائرا أود أن أقول لها إني لا أحلم أن يكون عندي موتوسيكل، فما بالك بسيارة موديل السنة زيرو! وانتقت هي لي سيارة بي إم سبور سأدفع ثمنها بالتقسيط خصما من مرتبي الذي تضاعف، وبضمان العيادة، كل ما فعلته أني وقعت على شيكات بالأقساط يتم تحصيلها شهريا على ثلاث سنوات، ولم أصدق نفسي حين أعطاني المفاتيح قائلا: "مبروك وربنا يكفيك شر الطريق"، هنا فقط تذكرت أني لا أعرف السواقة.

" مش مشكلة"، هكذا أكدت مجد، وفي خلال الأسابيع التالية تعلمت القيادة على يد مدرب خاص استأجرته لي البنات، واستلمت السيارة،

ولكي تثبت لي نور أن معرفة الناس كنوز، دعت الباشا رئيس وحدة المرور على العشـاء، وأكدت عليه أن تكون اللوحات مميزة مثل باقي سـيارات العيادة، وفي اليوم التـالي كانت رخصتي في جيبي، وكانت لوحاتي تحمل رقـم 11 ط ب، وأفهمتني أنه كلـما صغر الرقم كلما زاد التميز، ليس فقط في لوحات السـيارات بل في أرقام التليفونات، ولم يصدقن أنفسهن حين أخبرتهـن أني لا أملك تليفون، وفي اليـوم التالي كان عندي تليفون فخيم برقم مميز جـدا 01222111222، وأفهمتني أنه كلما تشـابهت الأرقام كلما زاد التميز، وفي المسـاء أثناء استعدادي للنوم برز لي ملاكي الطيب الذي قـل ظهوره مؤخرا قائـلا: "مش ملاحظ حاجة؟"، قلـت: "إيه؟"، قال: "الدنيا جيالك بسـهولة"، فرددت بقل أعوذ برب الفلق، فاستطرد كأنه لم يسـمعني: "عملت إيه عشان يبقى عندك كل ده؟ شقة وعربية ومرتب ورصيد في البنك، عملت إيه؟" قلت في قحة المذنب: "إيه ما أنا باشتغل"، قال: "بتشتغل إيه؟"، قلت: "بقيت مسئول عن قسم الاستقبال كله، وقريب حمسك التوريدات الطبية"، فابتسم ابتسامة سخرية وقال: "تصبح على خير يـا.. دكتور"، واختفى، ولولا أن رأسي ثقيل من أثـر النبيذ الذي تناولته مع البنات على العشاء؛ لأرقتني كلمته حتى الصباح، لكني أسلمت نفسي للنوم ولم أبالِ.

حـين فتحت عيني وجدت شـيطاني وملاكي في اسـتقبالي، فتعجبت لظهورهما معا وفي ذلك التوقيت! فهما لا يظهران إلا في لحظة الاختيار.. أي اختيار أو تفكر وتدبر تجد شيطانك وملاكك يتصارعان، كل يجذبك

في طريق، وكل ينهي حجته بأن القرار لي في النهاية فأقع في مشكلة، وأحيانا يكون الاختيار بين الأبيض والأسود، فيكون القرار سهلًا، أو حين تتساوى الكفتان، يكون القرار غير فارق، لكن المشـاكل تبدأ حين تتعدد المزايا إلا عيب واحد فتكون مشكلة، وقد تكثر المشاكل فتقع في أزمة، وحين تعظم الأزمـات تكون الفوضى ويقف عقلك عن التفكير فتتركها لله.. بادرتهما سـائلا: "ما لكم ع الصبح؟ أنا لا في لحظـة اختيار ولا بفكر في حاجة إلا الحلم اللذيذ اللي.."، قاطعني شيطاني فرحا: "أنا اللي جبتهولك، عجبتك البت مجد؟"، قلت هارشا شعري الأشعث: "ما انتوا صحتوني قبل ما.." قاطعني ملاكي متجهما: "اصطبحوا ع الصبح وخلونا في المهم" سـألت: ما المهم؟ قال: "الشغل بالطريقة دي ماينفعش" وأشار إلى شيطاني: "انك تسيبه مطلوق وواخده معاك في كل حتة وأنا حابسني وكاتم على أنفاسي"، قال شيطاني وقد بدأ صوتهما يعلو: "ما أنا سايبهولك بقالي سنين، ولا أنت عاوز تكوش على كل حاجة"، قال ملاكي: "العقد اللي بينا بيقول نتناوبه.. فاهم نتناوبه مش نستحوذ"، وتركتهما يتشاجران وقمت إلى الحمام ثم القهوة وارتديت ملابسي، وقبل أن أخرج استدرت لهما وبهدوء قلت: "انت وهو مرفوديـن"، تبادلا نظرات الذهول وقفـزا إلى مكانهما المفضل داخل ياقة القميص بجوار أذني، وراحا يسـتعطفاني مترجين ألا أفصلهما، وردا على سـؤال حتعمل إيه من غيرنا؟ قلت: "مش حختار.. حسيب غيري يختار لي"، وما إن ركبت المصعد حتى اختفيا، وشعرت براحة كبيرة وحمل ثقيل انزاح عن كاهلي، فاستبشرت خيرا وبدأت يومًا جديدًا من التفاؤل والأمل،

وجاء اليوم كما توقعته مليئًا بالمفاجئات السارة، وأدركت أني كنت محقًّا في قراري برفد شيطاني وملاكي، صحيح أنهما يمثلان ضميري ونفسي الأمارة بالسوء، وصحيح أن الله خلقهما لنا ليلهمانا فجورنا وتقوانا، لكن الله أيضا خلق لنا أعينًا نستطيع إغلاقها وتعطيلها، وأرجلًا وأيديَ وحواسًّا نستطيع إيقافها عن العمل بإرادتنا، فهكذا فعلت بشيطاني وملاكي.

27

صداع رهيب يكاد يفتك برأسي، حتى إني لم أستطع خلع النظارة الشمسية ماركة جوتشي أند جابانا حتى وأنا في المكتب، وتناولت إسبرين وبنادول، وشربت كميات كبيرة من الماء إلا أن الصداع اللعين لم يترك رأسي، وأكملت اليوم بالعافية، وقعت على أوراق كثيرة لم أقرأها، وتجنبت حوارات عمل كثيرة رأفة بدماغي، وقبل أن أنصرف صعدت إلى الإدارة لأبلغهن أني لن أحضر غدا إذا استمر الصداع بهذا الشكل، لكن مجد قالت: "يعني مالقيتش غير بكره عشان تعيى!"، أضافت عصمت شارحة: "بكره الوزير جاي"، وعرفت أن زيارة السيد الدكتور وزير الصحة تحظى باهتمام خاص من دكتور عويس، كما أن حفل الاستقبال الذي يقام في فيلا دكتور عويس يحضره كبار الناس وعلية القوم حاملو مفاتيح السعادة والرعاية والحماية والوصول والمساندة والموافقة على أي مشروع يحلم به إنسان، وأن دكتور

عويس قد خصني بالدعوة فلا يجب أن أضيع الفرصة، وتعلمت أهمية تلك الحفلات، فالشـغل والبيزنيس يتم فيها، فقلت: "كنت فاكر إنها حفلات للترفيه والشحن"، قالت عصمت: "لا دي مش خروجة فسحة، ده بيزنيس"، قلت: "اللي أعرفه إن البيزنيس بيتم في المكاتب"، قالت نور: "لأ.. البزنيس بيتم في الحفلات، لكن التنفيذ بيبقى من المكاتب". هززت رأسي وقد خف الصداع قليلا لمجرد معرفة مكانتي الخاصة وما يعده لي دكتور عويس، وبرز لي ملاكي اللعين من ياقة القميص هازئًا: "عملت إيه عشان كل ده؟"، قلت في غضب: "أنا مش رفدتك"، قال: "ما تقدرش، إنت كل اللي تقدر تعمله إنك توقفني عن العمل، وحتى لو وقفتني أنا مش حسيبك"، وقضيت الليلة في عراك مستمر بين ملاكي وشيطاني اللذين أدركت استحالة فصلهما حتى وأنـا نائم، وفي صباح اليوم التـالي كان الصداع انخفض إلى أدنى درجاته حين هل الوزير برفقة دكتور عويس وفريق المرافقين من الوزارة ومديرية صحة أسـيوط وراحوا يتفقدون أقسـام العيادة تحت أضواء وعدسـات القنـوات التليفزيونية الحكومية، والعجيب أنهـم حين أذاعوا الفقرة عن تفقد السيد الدكتور الوزير لأحدث ما وصل إليه العلم والأجهزة الحديثة والمسـتوى الراقي الذي يفوق أوربا وأمريكا، قالوا إنها مستشفى أسيوط العام! واعتقدت أنه خطأ من معدي البرنامج كتلك الأخطاء الشائعة على الشاشة، وكم بدوت ساذجا وأنا أبلغ البنات عن تلك الغلطة الشنيعة، إذ أوضحن لي أن مثل تلك الأخطاء المتعمدة هي نوع من المجاملة من دكتور عويس للسيد الدكتور الوزير، وبدأن يلقنني قواعد لعبة الحفلات "البس

البدلة الكحلي والكرافات الموف"، "الجزمة تبرق"، "حط البارفان الفلاني"، "ماتشربش واذا اضطريت تمسك الكاس في إيدك وتعمل إنك بتشرب"، "ماتقفش مع حد أكتر من عشر دقايق"، "عينك ع الوزير طول الوقت"، "ابتسامتك ماتفارقش بقك"، "كلامك يبقى في العموم"، "اندهش لأي معلومة يقولهالك الضيف حتى لو قديمة"، "سيب الضيف يتكلم أكتر منك"، "حسسه إنه أهم واحد في الحفلة"، "شلة الوزير أهم من الوزير نفسه، لو كسبتهم تبقى كسبت الوزير" "لوعندك نكت قبيحة قولها، بس بعد الكاس التالت" "إعرف ضيفك بيحب إيه"، "مهما تباسط معاك إوعى انت تتباسط، خلي دايما بينك وبينه درجة"، "هو الأعلى طبعا"، "لو وقعت في مطب أو احتست شاور لأي واحدة فينا واحنا حنتصرف". وانصرفت من فوري إلى حلاق البرج أو بالأصح كوافير الرجال، وبعد أن كنت أحلق بعشرة جنيهات عند حلاقي الأسطى نصحي، دفعت مائة وخمسين جنيها في سبسبة شعري وتحممت واضعا البونيه وارتديت ملابسي وتوجهت بسيارتي السبور إلى فيلا دكتور عويس الواقعة على أطراف المدينة تطل مباشرة على أعرض منطقة في النيل.

لأول مرة أخرج من البرج منذ أن دخلته منذ حوالي ستة أشهر.. السماء.. كم أفتقدها وفتحت سقف السيارة ورحت أستنشق نسيم الليل العليل مالئا خياشيمي برائحة الهواء الرباني، وأدركت جماله مقارنة بهواء الغرف المغلقة المكيف، ولعجبي أن الصداع قد اختفى تماما، وشعرت بفرحة وطاقة لا حدود لها، وحين برز لي ملاكي من ياقة القميص بادرته شاخطا: "اخرس

خالص ماسمعش صوتك"، فاختفى، وتبعه شيطاني شامتا فعالجته بشخطة مماثلـة فانزوى ولم أرهما طوال الحفل، كنت أول الحاضرين كما نبهت عليَّ البنات، لكن نور استقبلتني ناهرة: "إيه ده شعرك منعكش كده ليه"، وحين أخبرتها أنه بفعل الهواء في السـيارة وأني كنت اسـتمتع به، نبهتني بحزم: "إنت مش خارج عشان تتفسح قلنا"، وراحت تمشط لي شعري لتعيده كما كان قلت: "بس أنا جايب العربية عشان انبسط بيها"، قالت: "انبسط لما مايبقاش وراك شـغل"، وشغلني توبيخها عن استطعام جمالها في ذلك الثوب الأبيض المحزق القصير المتلوي مع كل ثنايا جسمها، ولا يقل جمالا وفتنة وتحزيقا وتلزيقا وكشـفا عن فسـتان عصمت الأسود وفستان مجد الأحمر.. وحين وقفن يستقبلن المدعووين قلت لضيفي وهو مدير مكتب السيد الدكتور الوزير: "شكلهم زي علم مصر"، فنظر إليهن ورأى الأحمر يليه الأبيض يليه الأسـود فضج ضاحكا وهـو ما زال في الكأس الأولى، وكانـت بداية طيبة نلت عليها إيماءة استحسـان مـن مجد، وهتف ضيفي مخاطبا دكتور عويس: "الراجل ده جميل جدا يا دكتور عويس"، رد الدكتور: "ده ابني وتلميذي وبكره حيبقى دراعي اليمين"، ثم رفع ذراعه مناديا: "تعالى يا دكتور جاد" وظل مادًّا ذراعه وأنا أقترب منه كمن يدعوني أن أدخل تحـت إبطه في حضن أبوي لا ينقصه إلا قبلة على الرأس، وقدمني للسـيد الدكتـور الوزير: "ده دكتور جاد الله، بيحضر ماجيسـتير وبعدها الدكتوراه على طول"، قال الوزير وهو يصافحني بابتسـامة بلاسـتيكية: "بسم الله ما شاء الله، انت عندك كام سنة؟"، قلت: "27"، فرفع حاجبي

الاندهـاش ضاحكا: "هم الأولاد كـبروا ولا إحنا اللي عجزنا يا دكتور" قال دكتور عويس: "سياسة الدولة بتتجه ناحية الشباب يا معالي الوزير"، هز الرجل رأسـه إيجابا: "فعلًا الشباب هم المستقبل"، وجدتني أتحول إلى محجوب عبد الدايم في القاهرة 30 وقلت: "بس معاليكم الخبرة والحنكة"، وتجرأت واحتضنت ذراع دكتور عويس مربتا على كتفه: "من غير أساتذتنا مش حنوصل لحاجة"، هز الرجل رأسه مسرورا بإجابتي: "برافو عليك.. الولاء.. أهم حاجة الولاء"، "ماينكرش الفضل إلا جاحد يا معالي الوزير"، قلتها وقلت كلامًا كثـيرًا بعدها عن أهمية جيل الكبار والخبرة على أرض الواقع والفارق بينها وبين الدراسة النظرية في الكتب، وكلام أكثر عن حبي وولائي لأستاذي وتاج رأسي دكتور عويس، كلام يحمل في طياته أني ممسحة لأقدام جناب معاليه، وبإشـارة من عصمت أنهيت اللقاء مسـتأذنا معبرا عن مدى حبوري بلقاء سـيادته الميمون، ولم أَنْسَ احتضان كفه برفق بين كفي وأنا أصافحه، واقتربت من مجد أسـألها فقالت: "هايل كأنك مولود بيزنيسنجي بالفطرة"، ففركت كفي، وأشارت إليَّ عصمت فاتجهت إليها فناولتني علبة بلاستيك صغيرة: "دول الكروت بتوعك اتأخرو في المطبعة"، فتحت العلبة وقرأت اسـمي مكتوب بخط أنيق عـلى كارت من الحجم الصغير وتحت كتب "المدير التنفيذي" فرفعت رأسي مندهشـا فبادرتني: "أي حد تقابله تديله كارت" وتركتني منصرفة مرحبة ببعضهم، قادتني قدماي إلى حافة التراس الفسيح المطل على النيل، ويشرف على حديقة غناء لا تصلح إلا لمثل هذه الاحتفالات ولا يذوقها إلا من كان من علية القوم أمثالي، وعلى حافة النهر رأيته راقدا.. إنه الفجم.

شيء ما دفعني أن أهبط الحديقة وأقترب منه، ربما نظرته الوديعة التي حدجني بها أو وضع الاسترخاء الذي اتخذه بالقرب من الماء، وهبطت السلم الفخيم المؤدي إلى الحديقة متجها إليه، ترددت قليلا وأنا على بعد خطوات منـه، فهو في حجم الجحش الصغير، ورؤوسـه الثلاثة ممددة أمامه بأعين مغلقـة، فتنحنحت لأنبهه لاقترابي حتى لا يأتي برد فعل غبي إذا فاجأته، ففتح نصف عين وتنهد وعاد إلى نعاسه، مما طمأنني شيئا ما فاقتربت، فلم يحرك ساكنا، تجرأت ومددت يدي لامست رأسه القريبة مني ففتح نصف عين وابتسم ابتسامته تشبه ابتسامة الموت، لكنها في النهاية ابتسامة فرحت أداعب رأسه بخفة ملامسا، سرعان ماتحولت إلى تربيت ثم طبطبة فمداعبة وهرش في الرقبة، فاسـتجاب للمداعبة ككلب يسـتمتع بهرش صاحبه، وحين اطمأننت جلسـت على السور الواطئ بين رؤوسه، ثم اتكأت على رقبتـه فتركني، بل قرب رقبتـه الثانية لأتخذها مسـندا لقدمي، ومن هذا الوضع العجيب أدركت أني انتصرت عليه.. لقد استأنسته.. معركتي مع الفجم انتهت، مما أشـعرني براحة وسـعادة غامرة لم يقطعها إلا نداء نور: "انـت قاعد عندك بتعمل إيه؟ دكتور عويس عاوزك"، فاتجهت مسرعا سـائلا: "ماتعرفيش عاوزني ليه؟" قالت: "عارفة طبعا بس خليه هو اللي يقولك"، بمعرفتي بنور ومجد وعصمت أدركت أن أي محاولة لاستخراج سر منهن هي محاولة فاشلة.

اقتربـت من دكتور عويس الجالس مع السـيد الدكتور الوزير ورجل مهيب الحجم متجهم الوجه عريض المنكبين والشوارب، أقرب مايكون

شبها بضرغام، وقدمني له دكتور عويس: "الدكتور جاد الله الجبتي المدير التنفيـذي للمـشروع يا حاج"، فسـلمت بأدب جم، ثم قدمـه لي معرفا: "الحاج عليش الأسيوطي"، فتسمرت.. إنه أبو... أجلت تفكيري حين فاجأني دكتور عويس بتقديم فتاة شـابة جالسـة في ظل أبيها الجبل لذلك لم ألحظها: "الآنسـة عفاف بنت الحاج عليش"، فتحولت تسميرتي إلى نار في عيني وانفجار كم من الأدينالين في رأسي جعل حدقتي عيني تتسـعان حتى الجحظان، إنها هي.. المريضة الغامضة.. فأنا لا أنسى هاتين العينين حتى لو ارتدت ألف حجاب، والغريب أنها كانت سـافرة ترتدي فستانًا أخضر يظهر الرقبة وعرض الأكتاف، ولمحت في عينيها تحذيرًا فهمته فورا، فسلمت بتحفظ "اقعد يا جاد"، هكذا أمرني دكتور عويس الذي ألقى إلي بالقنبلة: "معالي الوزير بيرشـحك تمسـك مشروع القرية الطبية"، لم أفهم وبدا غبائي في ابتسـامة بلهاء فقلت: "تحت أمرك يا فندم" أضاف السـيد الدكتور الوزير: "إنت عارف طبعا سياسـة الدولة تشجيع الشباب..."، وراح يهري في كلام كثير عن إيمانه بالمسـتقبل وفترة الحكم الرشيد الذي نحياها، لكني كنت مشتت، من هي تلك المريضة الغامضة المدعوة عفاف، ومـا هو مشروع القرية الطبية! وأسـئلة كثيرة تزاحمت على طرف لسـاني وتلاحقـت تداعياتها أسرع من قدرتي المحـدودة على التفكير، ولم ينقذني من الدوامة سوى استدعاء عصمت: "بعد إذنكم حاخد منكم دكتور جاد لحظة"، فقمت تبعتها مبتعدين وقبل أن أسأل بادرتني: "لغاية ما نقعد بكره الصبـح أشرحلك التفاصيل، إنت اتعينت المدير التنفيذي لمشروع القرية

الطبية، أنا عارفة إن القرار مفاجئ ليك، لكن السرية كانت مطلوبة لغاية ما ناخد الضوء الأخضر"، وأشارت إلى الوزير ثم أردفت سائلة: "إديت الكارت بتاعك للحاج عليش؟"، أجبت نفيا، فأكدت عليَّ أن أعطيه كارتًا ولابنته كارتًا: "الأرض باسمها يعني نصيب الحاج عليش باسم البنت وحتتعامل معاها كتير"، وعدت إلى جلسة السيد الدكتور الوزير بربع دماغ، أما الباقي فكان مع تلك العفاف المريضة الغامضة.

28

أهكذا تُبنى الحياة؟ أبهذه السرعة؟ أبهذا الإيقاع المتلاحق؟ أأكون واهما أو أحلم! وأسـئلة كثيرة تضاربت في رأسي وأنـا واقفٌ طويلا أمام المرآة بعد عودتي في الثانية بعد منتصف الليل، وانتفضت مخضوضا على صوت التليفون، وتعجبت من الموعد فلا أحد يعرف رقمي سوى البنات وباقي إدارة العيـادة، وجدت رقما جديدًا فرددت، فإذا بها هي عفاف.. المريضة الغامضة التي بادرتني: "نمت؟"، قلت: "لأ مفنجل"، قالت: "أولا ميرسي إنك اتصرفت صح"، قلت: "على إيه أنا ماعملتش حاجة"، قالت: "ممكن نتقابل بكرة؟"، قلت بلا تردد وبترحاب الظمآن لرشفة ماء: "طبعا ممكن.. يـا ريت"، وضربت لي موعدًا في السـابعة في أحد كافيهات البرج وأنهت المكالمة.. والله هذا كثير على رأسي البسـيط، وسرحت في كمٍّ من الأسـئلة والإثارة والتشويق مما يشي بطول ليلتي وسهادي، ثم سرحت في حاستي التي

لا تخيب حين تقع عينياي على شخص أو مكان فأشعر برابطة ما بيني وبينه، رابطة مستقبلية، شعور يتخطى الحدس والفراسة ويقترب من استشفاف الغيب، ليس بعقلي لكـن بدقة قلب مختلفة في عمقها ونطاقها.. دقة أثقل من غيرها، وكيمياء تدفق في جسمي تنبأني أن هناك شيئًا سيحدث.. لماذا لا أتتبع تلك الظاهرة طبيًّا؟ لماذا لا أفحص وأدرس تلك التغيرات الكيميائية التي تحدث في تلك اللحظات، ربما أصل إلى مصل المسـتقبل! وأعجبتني الفكرة وقـررت أن أعرضها على دكتور عويس، ثـم عدت إلى لقاء الغد الموعود.. هي جميلة بلا شـك، جمال هادئ لا يخلو من جرأة، وأعين ذكية رغم إسدال الجفون، وأنف دقيق فوق شفتين مكتنزتين، ووجدتني أبتسم إعجابا بوجهها، أما شـعرها الفاحم المجدول مثل حبال المراكب وملقى بإهمال على كتفهـا المرمري.. "لا أنا كده مش حنام"، هكذا قلت بصوت مسموع لنفسي، وأغمضت عينيَّ، لكن وجهها اقتحم أجفاني المغلقة ووقف في تلك المنطقة الحمراء التي نراها حين نغمض أعيننا، فنحن نرى لون الدم في شـعيراتنا الدقيقة إذا وقع على عينينـا المغمضتين.. ضوء! من أين يأتي الضـوء! وفتحت عينيَّ فإذا النهار قـد انبلج، فتنهدت متحسرا على حلم جميل كنت أود لو أكمله مع تلك المريضة الغامضة عفاف، حلم ينفث عن كبتـي ورغباتي المكبوتة المدفونة المحاصرة والتـي لا تنفلت إلا في المنام.. لماذا لا أحولها إلى واقع؟ لماذا لا أقيم علاقة تريح جسـدي وتصفي ذهني لما ينتظرني من مهام جسـام في مسـتقبلي سريع النمـو هذا، ووقفت تحت الدش أستعرض دائرة معارفي، لكني قفزت مباشرة إلى النتيجة.. عفاف..

ولأول مـرة في حياتي أقرر أن أدخل علاقـة بهدف، فطوال عمري كانت علاقاتي سـواء أصدقـاء أو معارف أو زملاء عمـل، لم يكن لي دخل فيها ولا أقصد أو أهدف أو أريد شيئًا من ورائها، فهي تحدث وأنا أستجيب، وارتديت ملابسي متفكرا في أي حلة سـألقاها؟ ففي الغالب سيكون يوم عمل مشـحونًا وطويلًا، ولن يكون لـدي وقت لأغير ملابسي، وفتحت الباب متجها للمصعد ففوجئت به يرقد أمام باب شقتي مثل كلب الحراسة يسد الطريق ويغط في نوم عميق، فلكزته بقدمي ليفسح لي الطريق، فتحرك في كسـل النائـم، وأغلقت الباب، وركبت المصعـد، وتركت الفجم نائما يحرس لي باب بيتي.

كانت الثامنة إلا خمس دقائق حين ألقيت تحية الصباح بطريقة ميكانيكية على البنات وأنا أجلس إلى ترابيزة الاجتماعات فاتحا الآي باد الجديد، وبدأ الاجتماع الذي حاولت فيه جاهدا ألا أسرح، وأن أركز فيما سيقال، وفهمت أن دكتور عويس ينوي إقامة قرية علاجية على مسـاحة 300 فدان، وهي القرية الأولى من نوعها في مجال السـياحة العلاجية، وأنه اسـتثمار لملايين كثيرة، وأن الأرض ملك الحاج عليش الأسـيوطي والتي سيشارك بها في المشروع مسـجلة باسـم كريمته عفاف، وأنها ستكون شريكة في المشروع بقيمـة الأرض التي قُيِّمَتْ بمبلغ ثلاثين مليون جنيه، وكلام عن التكلفة المهولة التي تقرب نصف مليار جنيه، وأن المشروع يستهدف جذب أثرياء المرضى حول العالم، فالجو الجاف الحار مطلوب في حالات استشفاء كثيرة، وأن سوق المرضى مبشر، وأن دراسة الجدوى التي قام بها مكتب أمريكي

متخصص تشير إلى أرباح متوقعة بالمليارات.. وكلام عن خطة تسويق ودعاية دولية، خاصة المنطقة العربية.. وأكوام من الأوراق والملفات عليَّ أن أذاكرها خلال أسبوع، و.. سرحت.. لم أقوَ على هذا الكم من المعلومات والبيانات والإحصاءات والجداول والقوائم والنسب والحسابات، وأنا حين أسرح لا أقصد ولا أتعمد، أنا فقط أنسحب، أنزلق، مثلما يسحبك النوم حين يحل، ورأيت صورتها أمامي فابتسمت، كانت ترتدي فستانًا أسود ضيقًا يبرز مفاتنها، أترى أي شخصية وراء هذا الشكل! وتلك التركيبة الاجتماعية؟ أي شخصية يفرزها مجتمع مدينة أسيوط؟ ليست أسيوط التي نراها في الأفلام، بل أسيوط الحديثة، أسيوط البرج.. فهي من عائلة المفروض أنها محافظة، لكن حضورها بصحبة أبيها يوم الحفل يشير إلى شيء آخر، وتوالت الأسئلة والمتناقضات عن عفاف وأبيها فوجدتني أسأل: "هي مين عفاف دي؟"، تساءلت نور: "بتسأل ليه؟"، قلت: "مش بتقولوا دي الشريك اللي حتعامل معاه طول الوقت؟ عايز أعرف أي باك جراوند عنها"، أشارت إليَّ عصمت بسبابتها مبتسمة: "برافو عليك، نقطة مهمة"، قالت مجد: "هي بنت متعلمة تعليم عالي، عندها 27 سنة، كانت مخطوبة لابن عمها وفسخت من حوالي أربع خمس أشهر"، أضافت نور: "ذكية جدا"، وقالت عصمت: "وقوية"، قلت وأنا أشعر أني وقعت على منجم معلومات، فمهمٌّ جدا أن تتسلح بأكبر قدر من المعلومات عن هدفك: "وأبوها إيه علاقته بالمشروع؟"، قلن: "علاقة شكلية"، "هو بيعمل حاجة لبنته"، "الوحيدة" أضافت المعلومة الأخيرة ملمحًا مهمًّا، واستمر

الاجتماع حتى السادسة والنصف، وبدأت أحرك وأفرك، فقلن: "يظهر إنك تعبت"، "بكرة بدري حنروح نعاين الأرض مع الفريق الهندسي"، وفرحت لأني سأرى سماء النهار، كم أفتقدها.

انصرفت إلى موعدي ناظرا في ساعتي الرولكس تشير إلى السابعة إلا خمس دقائق، وكنت أمام كافيه البرج في تمام السابعة، واقتربت مهرولا، لكني تباطأت وغيرت مشيتي إلى التؤدة والثقل والرزانة وقليل من اللامبالاة بوضع يدي في جيبي ودخلت المحل، لا أدري لماذا هي لحظة ثقيلة على القلب تلك التي تدخل فيها مكانًا، فتتوجه كل الأنظار إليك، تتفقدك وتفحصك وتقيمك وتوزنك، وبنظرة فيها شيء من التعالي هو في حقيقته رد فعل لنظراتهم مسحت المكان فلم أجدها! فبدأت أبحث عن مكان مناسب أجلس فيه، مكان استراتيجي، وتوجهت إلى ركن قصي في طرف المحل، فهو مكان منعزل يوحي بالخصوصية والسرية، فينتقل ذلك الشعور إليها، فتكون لي فريسة سهلة مهيأة نفسيا، "ها ها يا لي من وغد"، لكن أوقفني صوتها ينادي: "دكتور جاد"، فالتفت إلى مصدر الصوت، فلم أرها، حتى رفعت يدها مشيرة من وراء الخمار الأسود الذي رأيتها به أول مرة.

جلست وعيناي تحاول إزاحة الخمار، لا أدري لماذا تضايقت من وجود حاجز بيننا حتى لو كان حاجزًا قماشيًّا، ونادت هي الجرسون وسألتني: "تشرب إيه" قلت: "كافيه لاتيه" فطلبت اثنين، وأخذت هي مبادرة الكلام مكررة شكرها على موقفي فقلت: "أنا ماعملتش حاجة، أي جنتلمان في

مكاني حيعمل كده"، قالت ضاحكة: "أصل فيه ناس طربشات، كنت خايفة تسلم عليَّ بحرارة وتطمن على صحتي" قلت: "من أول لحظة كان باين عليكي إنك مش عاوزة حد يعرف إنك جيتي العيادة"، قالت: "باين عليَّ إزاي وانا لابسة الخيمة دي"، قلت: "يعني جاية لوحدك من غير مرافقين.. رعشة صوتك، دا أنا كنت سامعك بالعافية، ما قلتيش اسمك.. يعني حسيت إنك مخبية سر"، قالت في مرارة: "خلاص مابقاش فيه أسرار"، ودار الحديث حول أسرتها وعائلة أبيها، فهي لها سبعة أعمام، وكل عم له بين خمسة و9 أبناء، وجرى العرف أن يتزوج أبناء العمومة حفاظا على الثروة الممثلة في أراضٍ زراعية تساوي نصف مساحة محافظة أسيوط بعضها دخل كوردون المباني وبعضها ما زال طينًا، وقلت متخابثا أريد معرفة مدى صدقها: "يعني انتي مخطوبة لابن عمك؟"، قالت بسرعة ووضوح: "كنت"، فسألتها عن سبب الفسخ قالت: "انت ما تعرفش كنت جاية المستشفى في إيه؟"، هززت رأسي نفيا: "ولا لقيتلك ورقة تقول إنك دخلتي وخرجتي"، فهزت رأسها متفكرة وهي حين تفعل ذلك تنحصر بؤبؤتها في ركن عينها، ثم هزت رأسها وقالت: "أوكي"، قلت: "أوكي إيه أنا مش فاهم حاجة"، قالت: "بعدين.. ححكيلك بعدين"، ورانت لحظة صمت استشعرتها طويلة رحنا نرشف من أكوابنا الورقية، وقطعت الصمت سائلا: "بتعرفي تشربي من تحت البتاع ده؟"، قالت وما زالت سارحة: "لا طبعا بدلدق على نفسي"، ضحكت: "أمال لبساه ليه؟"، قالت بالفرنسية: "بور لافورم.. مضطرة"، قلت: "بس يوم الحفلة كنتي.."، قاطعتني: "أبويا.."، وراحت تحكي عن

أبيها أصغر إخوته وأضعفهم وأفقرهم، يسمونه "الخرع" تزوج من ثلاثة نساء لم ينجب منهن، فعاش مكسورا مذموما، ثم تزوج الرابعة فكانت ثمرتها عفاف، فرفعت من قيمته ونفت عنه تهمة العقم، لكنها أنثى والإناث لا يرثن، فباع لها أبوها كل ممتلكاته بيعا مسجلا حتى لا ينازعها أحد في الميراث، لقد صارت هي كل حياته ودخل المسكين في صراع مع نفسه، بين عقله القديم الموروث من احتقار الإناث وتبجيل الذكور إلى آخر تلك الغباوات البدوية، وبين حبه لابنته التي رفعت رأسه بعد انكسار بمجرد مولدها، فعاملها بتقديس، وعاش ليصنع منها رجلا، فعلمها تعليمًا راقيًا في ليسيه أسيوط ثم الجامعة الأمريكية في القاهرة، ثم عادت لتتزوج ابن عمها، "لكن ماحصلش نصيب.. يوم الحفلة كان أول يوم أخرج فيه من غير نقاب.. أبويا لسه عايش الصراع.. أنا اللي طلبت إني أخرج من غير نقاب عشان أثبتله إن الناس مش حتاكلني"، هكذا ختمت عفاف حكايتها، ولفنا الصمت من جديد، قطعته هي رافعة عينيها النفاذتين إلي قائلة: "سألتني عن كل حاجة إلا أهم حاجة"، أثارني الشغف فاعتدلت منصتا: "طلبت أقابلك ليه"، فقلت في أريحية: "هو لازم يبقى فيه سبب"، قالت: "لأ لأ لأ سيبك من كلام السهوكة ده أنا عارفاه"، خطفتني بصياعتها، فقلت: "ما انتي لو عايزة تحكي حتحكي، مش من الذوق إني أسألك عايزة إيه، وبعدين بصراحة أنا عاوز أقعد معاكي، مش مهم بقى السبب إيه"، كنت صريحا لأبعد حد بل وجريئا، وبدأت الهجوم مبكرا مما أتى بثماره التي بدأت بابتسامة لمحتها في عينيها، وصوتها السعيد يقول: "بجد!"، قلت:

"جد الجد.. من ساعة ما شفت عنيكي في العيادة وأنا حاسس إن وراكي سر، وبعدين الظروف جمعتنا في شـغل، فأنا محـاصر بيكي، قوليلي أعمل إيه". أسـندت ظهرها إلى المسـند، وظلت ترمقني بنظرة مبتسمة طويلة: "شكلك مايقولش إنك تعرف تقول كده".

29

على سريري تمددت عاقدا يديَّ خلف رأسي، مسترجعا كل لحظة من اللقاء الذي امتد حتى الثامنة والنصف، وكان ختامها مسكًا حين صارحتني أنها تريد رؤيتي لأني أعجبتها، لم تقلها صراحة بل حكت لي عن انطباعها عنـي من نظرتها الأولى لي في العيادة، مـن تصرفي معها واهتمامي، وكيف شعرت بامتنان لشهامتي ودماثتي "حسيت إنك راجل.. بجد" هكذا قالتها، واسـتطردت عن فقدانها الثقة في الرجال بعد تجربتها مع ابن عمها الذي كان هدفـه الأرض والثروة ضمن مؤامرة عائلية كبـيرة يطوون بها أباها تحت جناحهم ويكسروه ليفشـلوا مشروع تطوره إلى رجل عصري يؤمن بقدرة المرأة.. فجأة قفز إلى ذهني خاطر كاد يوقف قلبي، هل تكون المؤامرة العائلية وراء دخولها العيادة؟ هل حاولت الانتحار؟ لا هذا احتمال مستبعد، فلا شـخصيتها ولا مقدمها بمفردها يقر ذلك، ودارت رأسي كثيرا حتى

أعياني التفكير، فأسلمت نفسي للنوم بتناول حبة منومة، لكني تذكرت أني لم أتعشَّ، وشعرت بالجوع فطلبت دليفري من مطعم البرج، جاء بعد ربع ساعة، فقمت أفتح له البابا وقد بدأ مفعول الحبة يعمل، فسرت مترنحا حتى الباب وفتحته وأخذت الطلبات، لكني فوجئت بتامر وبهجت ومدحت وهبة يخرجون من المصعد، صراحة مفاجأة غير سارة، لكني رحبت بهم، ولاحظت أن هبة في حالة هزال شديد، بادرني تامر: "فوق كده وقوم اغسل وشك"، قلت: "أنا فايق بس واخد حباية منوم"، قال تامر: "يبقى تشرب قهوة"، وقام إلى المطبخ ومدحت يسألني: "إنت فين يا جاد؟"، قلت: "موجود"، قال بهجت: "موجود فين وسايبنا في الحوسة اللي إحنا فيها دي"، قلت: "خير إن شاء الله"، قال: "خير منين بس دي مصيبة وحلها عندك" فالتفت إليهم مستفسرا، فوجدت تردد فصحت مستحثا: "في إيه؟"، قالت هبة: "من شهرين كنت راجعة لوحدي بالليل، طلعوا عليا عيال صيع اغتصبوني"، وسكتت.. لم أستوعب في البداية، لكن هول الفجيعة أفاقني، وشربت كوب القهوة كمن يشرب كأسًا يفيقه، وأتبع تامر: "دلوقتي هي حامل وعايزين ننزل الجنين"، صدمني الطلب فهتف تامر مستنكرا: "إيه بتفكر!"، قال بهجت: "دي مالهاش غيرنا يا جاد"، وأضاف مدحت: "لو اتأخرنا حيبقى.."، شخطت فيه أسكته: "عارف.. عارف"، انتابتني نوبة غضب، لا أدري أبسبب الجرم الذي وقع على المسكينة هبة، أم بسبب موقفي المخزي من القضية، فأنا متردد بين واجبي كطبيب الرافض لهذا التصرف، وواجبي كصديق يجب مساعدة صديقته، وتعجلني تامر:

"قلت إيه؟"، قلت: "بس أنا عمري ما.."، قاطعني تامر: "هو حد قالك انت اللي حتعملها"، أضاف مدحت: "عايزين ندخلها العيادة"، قفزت مؤكدا: "استحالة، عيادة دكتور عويس مش ممكن تقبل عمليات من النوع ده"، فرمقوني بنظرة تعجب وقال بهجت: "مش ده الكلام اللي سمعناه"، قلت: "كلام إيه؟"، قال تامر: "يا مغفل، عيادة الدكتور عويس أشهر مكان للعمليات دي"، أكدت هبة المعلومة: "بنات كتير أصحابي قالولي عنها، وقالولي إنها بتاخد ليلة واحدة، وما بتتسجلش في دفاتر المستشفى"، أكمل صدمتي بهجت مكملا: "البنت بتخش ما تقولش اسمها.. تقول كريمة الحاج فلان الفلاني"، وأضاف مدحت: "بتتكلف مية ألف جنيه"، وكلام عن أنها أرسلت لأبيها تطلب المدد، وكلام لم أستوعبه لأن أبواب الجحيم قد انفتحت حين عرفت سر المريضة الغامضة.. المؤامرة العائلية إذنْ أثمرت جنين جاءت تتخلص منه لترفع رأس أبيها عاليا بين إخوته والناس والمجتمع، وأفاقني تامر سائلا: "قلت إيه؟"، قلت: "سيبوني لبكرة وحرد عليكم".

في الصباح الباكر كنت في الجراج حسب الموعد لأستقل السيارة مع البنات، وانطلقنا خلف السيارة التي تقل دكتور عويس والحاج عليش وكريمته عفاف، وخلفنا ميني باص يقل فريق المهندسين والمساحين، وحين وصلنا الموقع كان نائب المحافظ في انتظارنا مع بعض قيادات المحافظة والداخلية، جيش كامل حضر ليشهد أول خطوة في المشروع العملاق "القرية الطبية"، والذي كُتبت لافتته الضخمة على رأس الأرض باللغة

الإنجليزية، وقد فوجئت أن الأرض زراعية! مع أن بينها وبين الصحراء بضعة أمتار.. عجيب هذا الشعب، يجرف الأرض الزراعية، ثم يصرف ملايين لاستصلاح الصحراء، يعني موت وخراب ديار، والأعجب أنه يتم تحت سمع وبصر ومباركة ومشاركة المسئولين الحكوميين! وانتهزت فرصة اختليت بالدكتور عويس وتجرأت وسألته عن تلك الإشاعة المغرضة بخصوص عمليات الكورتاج، فإذا به يصدمني حين رد ببساطة: "إمم صح مش إشاعة"، وبحنكة المعلم انتظر حتى ابتلعت الصدمة، فأخذني تحت إبطه مبتعدا: "شوف يا جاد، أحيانا حتقابل مواقف تختار فيها بين إنسانيتك والقانون.. حتختار إيه؟"، تلعثمت وقلت: "بصراحة أنا حختار إنسانيتي"، خبط على ظهري مؤكدا: "أنا كمان اخترت إنسانيتي.. فيه بنات عائلات بتغلط، والفضيحة بتبقى واقعة لا محالة، وتمنها الموت زي ما انت عارف، فإنقاذ البنت أولى من القانون.. مش كده ولا إيه؟"، قلت: "مش البنت بس وأهلها"، قال: "نبقى متفقين.. آه صحيح أنا بخالف القانون، لكن القانون ده ممكن يتغير ونبقى زي بلاد كتير بتبيح الإجهاض.. صدقني يا ابني القانون الإلهي.. قانون الرحمة والستر يجبوا قانون البشر.. إحنا بنعمل عمل إنساني يا جاد، عشان كده ما بناخدش منهم فلوس"، كالحمار قلت: "بس ده بيقولوا حضرتك بتاخد ميت ألف"، ضحك وقال: "وسمعت ربع مليون ومليون، حتسمع كتير يا جاد ما ترميش، ودنك للناس، وركز في شغلك". هممت أن أقص عليه قصة هبة، وأني أريد أن أدخلها العيادة لولا وصول المحافظ شخصيًّا، فأسرع دكتور عويس لاستقباله، وحمدت

الله أني لم أفاتحـه في موضوع هبـة؛ إذ أن الأيام التالية تمخضت عن حقائق يشـيب لها الولدان، واستمر اليوم طوال النهار في الموقع بين عمل وطرح أسـئلة وفرد الرسومات الهندسية وترسـيم حدود الأرض وتحديد نقطة البداية وحديث عن تصاريح وموافقات ودوشـة ليس لها آخر، ووسـط هذا الضجيج شغلني مجموعة من الرجال الصعايدة، مدججة بالسلاح، يقفـون عن بعد خارج حـدود الأرض، ولاحظت عفـاف نظراتي إليهم فمالت عليَّ هامسـة: "دول أعمامي جايين ناويين ع الشر"، فدق قلبي دقة خوف، لكني توجهت إلى السـيد اللواء مدير الأمن الذي عرفني بصفتي المدير التنفيذي لهذا الصرح، ونقلت له مخاوفي وما قالته عفاف فقال بهدوء: "عارفين"، قلت: "دي بتقول ناويين ع الشر"، "عيلة عز الأسيوطي طول عمرهـم ناويين لبعض ع الشر، ما تقلقش"، وتركني وانصرف، فاقتربت مني عفاف سائلة: "ماجعتش؟"، فتعجبت لها: "الموت واقفلك على بعد كام خطوة وانتي بتفكري في الأكل؟"، ضحكت وقالت بأنوثة في غير محلها: "خايف عليَّ ولا خايف على نفسك؟"، قلت: "ع الاتنين طبعا"، لينقطع الحديث باستدعاء من عصمت التي انتحت بي جانبا، وبصوت هادئ لكنه يحمـل غضبًا مكتومًا، وبلهجة حازمة لكنها تحـوي تهديدًا، وبنظرة ثاقبة شلت تفكيري حين قالت: "تاني مرة لما تحب تسأل على حاجة ابقى اسألنا، ما تروحش منـك لدكتور عويس مباشرة.. مفهوم"، وتركتني في لجة من الحيرة والخوف، فقررت تأجيل الحوار كله لوقته المناسب، وأكملت اليوم متشـاغلا في تفاصيل العمل، إلا أن الأمر لم يخلو من نظرات وابتسامات بيني وبين عفاف.

عدت إلى شقتي واتصلت بتامر أخبره بموافقتي على مساعدة هبة، وأن عليهم أن يصحبوها إلى العيادة غدا، وألا يذكروا اسمي بتاتا، وسوف أتابع أنا الحالة من الداخل وأوصي عليها زملائي الدكاترة، وفي الحقيقة أنا أنوي ألا أظهر في الصورة بأي شكل من الأشكال، لأني أريد أن أطلع على الحقيقة كاملة بكل تفاصيلها دون أن ألفت انتباه أحد، وقضيت باقي الليل مع ملاكي وشيطاني، فالأول يلومني على مشاركتي في جريمة تجريف الأرض، وجريمة الإجهاض، ونوايايا الدنيئة وراء علاقتي بعفاف، وأخذ يرص لي مظاهر التغير في سلوكي وتفكيري وكلامي وأفكاري، ومواقفي المخزية وضعفي أمام إهانات عصمت.. لكن شيطاني تولى مهمة الدفاع عني طارحا منطقًا برجمتيًّا بحتًّا، منطقًا عمليًّا صرفًا وواقعيًّا بوضوح، فمن يريد أن يبني نفسه عليه أن يتسلح بالقوة، وفي تلك الأيام السوداء التي انقلب فيها ميزان كل شيء تحول الحق إلى جانب القوة بعد أن كانت القوة هي التي بجانب الحق، صار من يمتلك القوة يمتلك الحق، والقوة تعني المال والاسم والشهرة والخبرة، القوة تتطلب أن تجيد لغة عدوك، أن تكون شبهه فتعرف دخائله ونقاط ضعفه، أن تحيا حياة المدينة وتفكر فكر المدينة، أن تسلك طريق الاستثمار وليس طريق الأخلاق، وحين تمتلك سلاحك ويشتد عودك تستطيع أن تفرض قوانينك وقواعد لعبتك.. وختم شيطاني مرافعته بأن قال: "من غير كده نبقى إحنا بنقضيها كلام كبير في الفاضي" وراح يضرب الأمثال عن نماذج من الأسماء الناجحة، كلهم أصحاب فكر استثماري، فهل كل هؤلاء أشرار؟ في الحقيقة لولا أني أعرفه أنه شيطاني

لقلت إن هذا الكلام خارج من فم ملاك، فقلت له: "لا فض فوك"، وأثنيت على منطقه، وقررت أن أسميه شوشو بدلا من شيطان وانقلبت أنام، وما إن أغمضت عينيَّ حتى هل عليَّ طيفها بابتسامتها الداعية وعيونها الجريئة وغموضها المثير.. يا أهلا يا أهلا إحنا ليلتنا بيضا.. واحتضنت المخدة كما عبد الحليم حافظ في الوسادة الخالية.

30

في اليوم التالي، صحبتني عفاف للمرور على الأرض لمتابعة سير العمل، وهناك وجدت البلدوزرات تعمل بهمة ونشاط، منظر لا أنساه ما حييت، عملية قتل واغتيال للتربة الزراعية، أمتار وأمتار في عمق الأرض ترسبت على مدار آلاف السنين لتجعل من تربة مصر أغنى تربة في العالم، وسمعت صوت أنين الآلات، كما لو كانت تتألم للأرض الصماء، وعلى حدود الأرض انتشرت قوات الأمن المركزي مدججين بالسلاح ومن خلفهم وقف الأهالي.. بسطاء الفلاحين وقفوا يشهدون مقتل أمهم، واغتيال عرضهم.. الأرض.. ورغم بعد المسافة بيننا إلا أني لمحت الدموع في الأعين العاجزة والأجساد الهزيلة بلا حول ولا قوة، ووجدتني أتمتم: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، قالت: "صعبانة عليك الأرض؟"، قلت: "ما قدامهم الصحرا"، قالت: "ومصلحتنا!"، قلت: "أنهي مصلحة؟"، قالت: "الاستثمار"، قلت: "ملعون أبوه"، قالت:

"لا انت مالكش وقوف هنا يالا بينا" وانصرفنا وقلبي ينزف دما، وصوت الكراكات يعوي في وحشية وهي تلتهم الأرض، ولمحت الفجم مستلقيا كأنـه حارسٌ للمشـهد، وفي الطريـق ظللت صامتا حتـى وصلنا البرج، فقالت: "حتفضل مكشر كده كتير؟"، قلت: "يعني اللي بيحصل ده حرام ولا حلال؟ انتي عارفة متر الأرض بياخد كام سنة عشان يتكون"، قالت وهي تداعب شعري: "أكتر حاجة بحبها فيك نقاءك"، نقلتني هذه الجملة من حال إلى حال وخلعت همومي وألقيت بها تحت قدميها، فقالت: "أهو كده فكها.. نفسك في إيه؟"، قلت: "نفسي أحضنك"، ضحكت وقالت: "تعالى أنا عازماك".

صحبتني إلى المطعم الإيطالي وتعشـينا مع زجاجة نبيذ، لم أكن أتصور أنها تشرب، لكنها حكت لي أنها عاشـت فترة الجامعة في القاهرة، وكانت تسافر كل صيف إلى أوربا وأمريكا، وأنها لم توافق على العودة إلى أسيوط إلا من أجل المشروع، وبدأت غريزتي تتحرك، فكلامها يشير إلى تحررها، وما عرفته عنها يؤكد ذلك، وتمنيت أن يكون الشيطان ثالثنا، فإذا به يخرج من ياقة قميصي هامسـا: "البت مسـتوية وبتقولك أنـا حرة ولي تجارب، عايـز إيه أكتر من كده يا قفل"، وجدتني أمد يدي ألامس يدها، فتركتني وابتسمت، قبضت على كفها أعتصره فاقشعرت وسحبت يدها، وقد تهدجت أنفاسـها، وفجأة أحسسـت بقدمها تلامس أقدامي، فقربتهم أكثر، فزاد التلامـس بقدمها الحافية راحت تداعب سـاقي تحت البنطلون، فأشرت إلى الجرسـون بالحسـاب، وطنين في رأسي يلغي تفكيري ويلفني معها في

دوامة الرغبة المحمومة التي تلغي كل شيء، وتتبوأ هي بؤرة الشعور، قمنا ممسكين الأيدي، وتوجهنا إلى المصعد، وما إن انغلق علينا الباب، حتى هجمنا على بعض ننهل ونلتهم ونلهط في حيوانية حتى وصلنا شقتي.. وكان الشيطان ثالثنا.

استلقيت على ظهري ناهجا.. هذا هو الجنس إذنْ! وبدأ عقلي يعود إليَّ بالتدريج وبدأت أفيق وأعي ما حدث، فالغريزة الجنسية تعطل العقل وتعظم الحواس خاصة حاسة اللمس والشم والتذوق، لا شك هي أقوى الغرائز، فهي تجب الجوع والعطش تسيطر وتفرض نفسها فتلغي التفكير وتحجب الرؤية، ولا عجب في ذلك، فهي الغريزة المسئولة عن الحياة، يسمونها غريزة البقاء على النوع، لذلك هي الغريزة التي حظيت بأكبر كم من القوانين والحدود والمحاذير والشروط والقواعد في كل الأديان السماوية.. وتذكرت السماء.. الله.. وسحبت الملاءة أداري عورتي، خجلت أن أتبجح في عريي، لقد سقطت في المحظور، كبيرة من الكبائر، أول مرة أرتكب معصية، أول مرة أمارس الجنس، أول مرة أرتوي وأسقط.. خوف ما تملكني، الشرع يبيح جلدي، الملائكة تلعني، وعفاف تشعل لي سيجارة فقلت: "ما بدخنش" نظرت إليَّ طويلا، وقالت: "مالك؟"، قلت: "مافيش"، لكن الحقيقة كان في.. حالة رفض وقرف وندم حالة رخص، والغريب أن الفكرة التي سيطرت عليَّ في تلك اللحظة هي فكرة الخسارة، وظلت كلمة يا خسارة تتردد في داخلي وتتعاظم حتى خرجت إلى لساني، فقالت: "ندمان؟"، قلت: "تعرفي إن دي أول مرة"، قالت وهي

تقبلني: "خدت بالي بس بموت فيـك"، واحتضنتني، فهربت إلى الحمام، وحرصت أن أداري عورتي ببشكير ملقى، وقفت تحت الدش أدعك وأفرك وأهري جلدي لعلي أخلص من بقايا رائحة الخطيئة.. يا خسارة.. مثل فتاة عذراء فقدت عذريتها ووقفت تندم حيث لا ينفع الندم، فرفعت وجهي لأعلى ليصدمه الماء الساخن يكوي الوجوه، رفعت وجهي وانسال عليه المـاء فلم أدرِ أهي ماء الدش أم دموعـي، رفعت وجهي أطلب المغفرة.. وتذكرت الرحمة واستدعيت كل ما أعرفه عنها، فوجدتها تجب كل شيء، فهي الصفة التي كتبها الله على نفسه، وهي الاسم الأول لله عز وجل.. الرحمن الرحيم.. وقطع عليَّ حبل ابتهالاتي دخولها عليَّ فاتحة ستارة البانيو قائلة: "بتستحمى لوحدك"، ووقفت معي تحت الدش ممسكة الليفة البلاستيك ورغتها بالصابون السائل وراحت تدعك لي جسمي، وتوصت بظهري، تلك المنطقة التي لا تصل إليها يدي، وشعرت بمتعة فتركت لها نفسي وبعد دقيقة واحدة كنت نسيت السماء والندم، واستدعيت الشيطان شوشو على عجل ليكون ثالثنا.

تكـرر الموقف ليلتها خمس مـرات، كان الندم يتناقص تدريجيا مع كل مـرة، قضينا ليلتنا بين جنس وأحاديث شـخصية، أذكر أنها أخبرتني أنها فقدت عذريتها وهي في الجامعة، وأنها أجرت عملية ترقيع غشـاء بكارة في أمريكا، لكن ابن عمها تكفل به وأزاله في ليلة حمراء وبعدها تخلى عنها، وحـين علمت بحملها لم تخبر أحـدًا وجاءت إلى العيـادة، هززت رأسي قائـلا: "عارف"، ثم أردفـت: "أخدوا منك كام؟"، قالـت: "مية ألف"،

فهززت رأسي وقد أدركت كذب دكتور عويس، قالت: "وانت؟"، قلت وأنا أتثاءب مهدودا "أنا ما ليش تاريخ جنسي"، قالت وهي تحتضني بقوة: "دي أكتر حاجة بحبها فيك"، وقامت منصرفة في الثالثة صباحا، وألقيت نفسي على السرير وأنا أترنح من الإجهاد، مستشعرا رعشة في ركبي وعدم ثبات لسيقاني وحاولت أن أنام، لكن رائحتها كانت تعبئ الفراش فقمت وغيرت الملاءة وكيس المخدة، ونمت.

استيقظت على صوت التليفون يرن فهببت مذعورا، كانت مجد تصيح في: "إنت فين؟"، بصوت خارج من بئر قلت: "أنا هنا.. هي الساعة كام؟"، قالت: "تمانية ونص"، قفزت ملسوعا وهي تصيح زاعقة: "إنت مش عندك معاد الساعة تمانية مع دكتور عاطف"، قلت: "دقيقتين وأكون عندك، وأغلقت الخط مسرعا إلى ملابسي وطسست وجهي بماء بارد، ونسيت أسرح شعري وخرجت عدوًا حتى إني لم أنتظر المصعد وصعدت السلم قفزا حتى وصلت مكتبي، فوجدت دكتور عاطف في انتظاري، فبادرته بالاعتذار بحجج واهية من نوع المنبه ماضربش وماعرفتش أنام من الكحة، فكان الرجل سهلا وقبل حججي ودعا لي بالسلامة، كان موعدي مع دكتور عاطف بخصوص توريد أكياس لحفظ الدم، فهو يمتلك مصنعًا كبيرًا لتصنيع المعدات والمستلزمات الطبية، بيزنيس آخر واستثمار كبير يقوم على الطب، وأخرج لي من حقيبته عينات الأكياس بالمواصفات المطلوبة، فشكرته مؤكدا أني أصدقه أنها بالمواصفات المطلوبة، لكن نظام العمل يتطلب إرسالها إلى معمل التحليل، حيث إن أكياس الدم من الأدوات الحساسة، فأي تغير

في مواصفات عجينة الكيس تؤدي إلى تفاعل مع الدم المحفوظ فيفسد أو يتلـوث مما ينجم عنه مصائب، لكني وجدته مترددا فسـألت: "في حاجة تانية؟"، قال: "الدكتور عوني اللي كان قبلك كان بياخد مني وهو مغمض"، فضحكت وقلت: "لا أنا مابغمضش في شـغلي"، فضحك وأخرج ظرفًا نفحني إياه: "أقصد وهو مطمن".. لم أصدق نفسي! إنها رشوة! كيف يجرؤ هذا الحيوان أن.. من ياقة القميص برز لي شوشو: "بتفكر في إيه يا حمار؟"، وأفقت على صوت دكتور عاطف يقول: "الدكتور عوني الله يصبحه بالخير فتح عيادته في مصر عقبال ما اشـوفك"، وأمن شوشـو على كلامه مذكرا إياي: "إنت مش هدفك تبقى غني، مش لسه امبارح قايلين نمتلك القوة، وبعدين نفرض قوانينا"، ومددت يدي ووضعت الظرف في جيبي وأنا أقول: "بـس برضه لازم أبعت العينات المعمل"، قام مصافحا منصرفا: "طبعا ده شغلك ومش حوصيك.. ما تنسانيش في مشروع القرية الطبية"، قلت في أريحية: "بس ده شغلها حيكون على كبير، يعني أضعاف الكميات اللي بنطلبهـا هنا"، قال: "خـير وبركة.. كل ما الطلبيـة زادت كل ما العمولة زادت، مـش كده ولا إيـه!"، لا أدري لماذا رأيته توفيـق الدقن، ورأيتني استيفان روستي.. وبعد يومين توجهت إلى معمل العيادة أسأل عن نتائج تحليل الأكياس، فجاء إيجابيًّا وأنها مطابقة للمواصفات، وقال لي مشرف المعمل: "إبقى سلملي على دكتور عاطف"، لم أقف عندها وقتها، فهي جملة مجاملـة تقال دوما، لكن بعد أن عدت إلى مكتبي قفزت إلى ذهني.. كيف ولماذا وما علاقته بدكتور عاطف؟ وشككت أن يكون دكتور عاطف هذا يدفع للمعمل كما دفع لي.

ظللت طوال اليوم أعمل وأنا مجهد رغم أني أجلس على كرسي معظم الوقـت، ويبدو أن أثر ليلة الأمس بدأ يعمل عمله في سـحب الطاقة من بدني والتشـويش الذهني وعدم التركيز، فصعدت إلى الإدارة أستأذن في الانصراف لأني مجهد، وانتهزتها فرصة لأزيل سوء التفاهم بيني وبين البنات، فاعتذرت لهن عن سـوء تصرفي حين سـألت دكتـور عويس مباشرة عن عمليات الكورتاج، وتركتهن يكذبن عليَّ فيما يخص عدم تقاضي أجر عن تلك العمليات، وشـعرت أني كبرت وفهمت أكثر، وها هي هبة سـتأتي وتدفع هـي الأخرى، وشرحـن لي أن العمل له نظام وسـلم وظيفي إذا كسرتـه أكون خارجًا عن النظام وتتحـول الحياة إلى فوضى، وقالت نور: "يعني ماينفعش أكلم سيادة الوزير قبل ما أكلم دكتور عويس الأول"، وأكدت مجد: "السـلم الوظيفي هو النظام والنظام هو النجاح"، وعلقت عصمت: "اعتبرها خطأ غـير مقصود ومش حيتكرر". وانتهى الموضوع عند هذا الحد، وقبل أن أنصرف قالت عصمت: "ابقى كل لك أكلة كوارع ترم بدنك"، وأضافت مجد: "شكلك عندك هزال"، وأخرجت نور من درج مكتبها علبة دواء مسـتورد ناولتني إياهـا: "حباية كل يوم الصبح تخليك كده"، وكورت قبضتها رافعة إبهامها فأخذت العلبة وأنا محرج مكسوف كسـفة بنت يوم صباحيتها وانصرفت.. كيف علموا؟ وكان هذا السؤال فاتحة لطريق طويل من الأسـئلة، أولها "هل أنا مراقب؟"، كانت الإجابة بسـيطة وواضحة بالتأكيد آه، فالكاميرات الواضحة في كل مكان ترصد الداخل والخارج، فمن السـهل معرفة أن عفاف جاءتني، لكن هل تلك

فقط حدود المراقبة أم أن هناك دائرة أضيق؟ وبدأ الشـك يتسلل إلى قلبي المستكين الراضي المطمئن، فراح يقفز في صدري باحثا عن طمأنينته المفقودة، كطفل أزعجوه في نومه فقام يصرخ.. أين السكينة؟ أين الدعة؟ أين راحة البال؟ وبرز لي شوشـو من ياقة القميـص منبها: "ما هو انت لو حتفضل تدورع السـكينة والبطيخ بتاع الكسـالى والعواطلية يبقى مش حتجيبها الـبر.. وبعدين فيها إيه لـو كانوا مراقبينك؟ فيها إيه لمـا يعرفوا انك بتاع نسـوان؟ مش يمكن ده مصلحة؟"، ارتحت لكلامه فهو منطقي، وخفت أن يسـمعه ملاكي الذي اختفى منذ فترة، فنظرت في الجانب الأيمن من رقبتي فوجدته ممددا يغط في نوم عميق، فتركته حتى لا يزعجني، وأزحت الفجـم الممدد على باب شـقتي بقدمي ودخلت ملقيـا نفسي على السرير بملابسي و.. خخخخ.

31

استيقظت في التاسعة مساء على صوت جرس الباب، وفوجئت بها تقف أمامي فشعرت بسعادة بالغة، كانت تتدثر بمعطف أسود أنيق يسوى الشيء الفلاني، وألقت نفسها في حضني تقبلني بنهم، فرفعت عيني إلى الكاميرا في الكوريدور، وحملتها داخلا مغلقا الباب بكعبي مثل رونالدو، وقبل أن تجلس خلعت البالطو فإذا به هو الشيء الوحيد الذي ترتديه، فألقيت نفسي في خضم المعمعة بلا مقدمات، وخرج الحيوان في داخلي منطلقا يصهل ويصول ويجول.. وفجأة شعرت بتعب شديد وألم في صدري، إرهاق سربل كل جسمي وشعرت بجوع الوحش في الغاب فقلت: "أنا جعان"، قالت: "الساعة داخلة على تلاتة مش حتلاقي حد فاتح"، قلت: "حشوف في إيه في التلاجة"، وقمت، وما إن خطوت خطوتين حتى ترنحت وسقطت وقد اسودت الدنيا في عيني.

حين استيقظت لم أجدها، ووجدتني ممددا عاريا في مكاني بالطرقة، وبصعوبة تسندت وتوجهت للثلاجة أفتحها، وأخرج ما تصل إليه يدي وألقيه في فمي، كنت أظلط لا أمضغ، أحشو وأزغط لا آكل، حتى شعرت بالامتلاء والشبع فظللت جالسا أمام الثلاجة برهة تناولت زجاجة ماء ورحت أعب منها كمن لم يشرب منذ سنوات، ونظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الخامسة صباحا، وأتاني صوت آذان الفجر، فأسندت ظهري إلى الحائط سارحا في تلك النغمة التقليدية الكلاسيكية.. تلك النغمة التي تهدهد روحك وتستهل بها يومك فقمت وتوضأت وصليت الفجر و.. بكيت.

من الناحية اليمنى لياقة القميص برز لي ملاكي فاركا عينيه متثائبا: "كنت خايف تسيبني نايم"، قلت: "أنا ولا جيت جنبك"، قال: "أمال عياطك ده إيه!"، فابتسمت وتفاءلت وارتديت ملابسي وصنعت سطل قهوة وأنا سارح فيما حدث.. كيف تتركني عفاف وأنا على هذه الحالة؟ لا بد أنها اطمأنت عليَّ قبل أن ترحل، لكن لماذا تركتني عاريا؟ كان على الأقل تغطيني وتضع وسادة تحت رأسي، يبدو أنها خافت أن توقظني، فبالتأكيد هي ليست بهذه اللا مبالاة، ورغم براعتي في تفسير وتبرير وسياق الحجج لها، إلا أن جزءًا من نفسي يستشعر رائحة نذالة.

ما إن دخلت مكتبي، حتى نسيت عفاف، وانهمكت في عملي، اجتماع مع الفريق الهندسي، واجتماع مع الفريق الطبي والحسابات والتحضير لمناقصات

تكييـف المباني، وتوريد معدات طبيـة ثقيلة، ووقعت على كمية أوراق لا حصر لها حتى الساعة السابعة حين استشعرت الجوع، فتوجهت إلى مسمط البرج بمفردي، فأنا أنوي أن أقضي فترة مع نفسي، وبينما أنا أستعد لتناول غذائي أو عشائي، إذا بصوتها يأتي من خلفي: "اللي ياكل لوحده"، التفت فوجدتها بنفس البالطو، قلت: "إنتي ما روحتيش ولا إيه؟"، جلست منادية الجرسون طالبة شـوربة: "أنا أصلي بموت في شوربة الكوارع"، فمددت لها طبقي فراحت تشـاركني، وكنت أشرب الشوربة من يدها عن طريق الشفط فيسمع له صوت، أما هي فكانت تضع الملعقة بالكامل داخل فمها وتخرجها ممسوحة، راقبت شفتيها وهما تطبقان على الملعقة، فأنهيت الأكل بسرعة ودفعت الحسـاب، ولم أنتظر الباقي، وسحبتها من يدها وصعدنا إلى شـقتي.. وفي إحدى الاستراحات سـألتها: "إنتي إزاي تسيبيني واقع امبـارح؟"، قالت ضاحكة: "أنا لقيتك طبيـت زي لوح العجين، فقمت بصيـت عليك لقيتك بتتنفس، رحت ماشـية"، قلت: "طب مش تطمني عليَّ! افرضي مـت"، قالت: "واجيب لنفسي مصيبـة؟"، هنا أدركت أنها ليست فقط نذلة بل واطية.. لكنها شهية.

تمر الأيام مكونة أسابيع، والأسابيع تكون الشهور التي تكون أعواما، والأيام صارت متشابهة، كنت أرى أن كل يوم له طعمه، فالسبت شامخ قوي يقف في أول الصف، والأحد عملي قصير، والاثنين طيب ومهاود، والثلاثاء توأم الاثنين، والأربعاء ليس له ملامح، والخميس ناري ساخن، والجمعة هادئ رزين.. أين ذهب طعم الأيام؟ بل أين ذهب طعم الحياة؟

أتحرك كروبوت، وأتكلم كروبوت، لا أحب ولا أكره، أمارس عملي بشكل روتيني، لا أفكر ولا أقلق، لا أخاف ولا أطمئن، لا زيادة ولا نقصان، اللهم إلا رصيدي في البنك الذي يتزايد مع كل صفقة توريد، وتشعبت مسئولياتي ومعلوماتي عن خبايا العيادة، أبسطها تجارة الأعضاء، وتوسعت أعمالي فشملت شركات المقاولات العملاقة التي تتنافس على المشروع، هذا يعرض مليونًا فيزيده الثاني النصف، فيرفعه الثالث لمليوني جنيه ثمن توقيعي مناقصة التوريد.

جاءني تليفون من تامر يخبرني أن هبة عادت ومعها النقود، فاتفقنا أن يتوجها إلى العيادة، وفي الموعد المحدد جاءت هبة بصحبة تامر وسجلت نفسها كريمة الحاج فلان وانتقلت إلى غرفتها، وطلبت دفتر الدخول ووقعت بصفتي الطبيب المعالج من حالة تسمم، وظللت أتلكأ في المكتب، حتى أخبروني أنها دخلت العمليات، وبعد ساعة تقريبا أبلغني تامر أنها خرجت لكن ما زالت في البنج، فأخبرته أن مفعول البنج سيزول بعد ساعتين، ونصحته أن يصحبها إلى البيت، ولا داعي لإطالة المدة حتى الصباح، كأني أخلص من عبء على أكتافي، فلتنتهي هذه المشكلة بأي شكل وأرتاح، وبالفعل ما إن أفاقت من البنج ومكثت بضع ساعات بعدها تم الكشف عليها والاطمئنان على نظافة العملية سمح لها بالخروج، فساعدها تامر حتى أوصلها لبيت بهجت ومدحت، وصعد معها ليساهم في خدمتها، وفي تمام الساعة الثالثة صباحا وأثناء مناوبتي اليومية مع عفاف، رن جرس تليفوني، وتكرر الرنين كلما انقطع فنظرت لأجده تامر: "هبة جالها نزيف،

إحنا جايين في السكة"، يا ليلة سودة، قفزتُ من فوق عفاف إلى ملابسي إلى الجراج لأكون في استقبالهم لأعرف الحالة، وركن تامر السيارة وهبط مدحت وبهجت يحملان هبة الغائبة عن الوعي، وقد استحال لونها إلى الأصفر، فهتفت في جزع: "هي بتنزف من قد إيه؟"، قال مدحت: "مش عارف هي رجعت الساعة تسعة من العيادة ودخلت تنام، دخلنا نشقر عليها من شوية لقينا الأوضة غرقانة في بركة دم"، زاد جزعي وأسرعنا إلى الاستقبال، كان النبض ضعيفا جدا، وما إن وصلنا الاستقبال حتى هب الفريق يدخلونها العمليات وتم استدعاء الطبيب النوباتشي، ومال عليَّ مشرف الاستقبال هامسا: "لازم نبلغ البوليس"، قلت: "ليه؟"، قال: "عشان لو خلصت نخلي مسئوليتنا، البت جاية خلصانة أصلا"، فتركته يتصرف، وصممت أن أصحبها إلى غرفة العمليات، فتعقمت وارتديت الماسك ودخلت معها، وبالكشف على الحالة لم يكن بها نبض يذكر، فأسرعوا بطلب أكياس دم، فقد نزفت كثيرا وبدأت الخراطيم والإبر والمحاليل توصل إليها، وعيني تنتقل من جهاز التنفس إلى جهاز النبض إلى صدرها.. شدي حيلك يا هبة.. المسكينة كانت تتحرك بالكاد في يقظتها وتمام صحتها، فما بالك وقد فقدت معظم دمها، ولما طال انتظار الأمل دق جرس القلب معلنا توقفه، فأسرع الفريق إلى جهاز التنشيط بالصعق الكهربائي مرة، والثانية، والثالثة لكن لا أمل.. ماتت هبة.

32

غبت عن العمل يومين كاملين، لا أرد على تليفونات ولا أفتح الباب، وعلمت لاحقا أنه تم عمل محضر بالحالة بمعرفة المستشفى وتم تسليم الجثة لأبيها عن طريق الشحن بالسكة الحديد، سافر معها تامر فقط، أما أنا فقد دخلت في حالة كآبة لم أشهدها من قبل، حتى حين ماتت سمر لم أكتئب، بل حزنت، والحزن شعور راقٍ، أما الاكتئاب فمرض قميء، شعرت بقرف من كل شيء، برفض لكل شيء، ماذا فعلت المسكينة حتى تموت فطيس وخاطر يهب على ذهني: كيف ماتت؟ وكانت الإجابة واضحة، أنها نزفت حتى الموت، وأن النزيف كان من أثر العملية التي لم يحسن إغلاقها جيدا، وانتابتني موجة غضب نعم.. غضب على مَن كان السبب، على الجراح المجرم عديم الضمير، وبمناسبة الضمير.. أين كان ضميري وأنا أوافق على إجراء العملية، لقد شاركت في قتلكِ ياهبة فهل تسامحينني؟

تصاعـد غضبي وأنا أعب من زجاجـة البلاك ليبل، وحاولت عفاف أن تقتحم خلوتي فطردتها لاعنا سـابا، ورحت أنفث غضبي في محتويات الشقة، فحطمت كل ما يتحطم، مما دفع البنات أن يكسرن الباب بمساعدة الأمن، الذين اقتحموا الشقة ليجدوني في حالة من الهياج العصبي الشديد، فكبلـوني وأعطاني الممرض حقنة مهدئة سرى مفعولها فورا، وتم نقلي إلى العيادة، وظلت البنات يتناوبن عليَّ لمدة يومين حتى استعدت توازني، لكني صامـت، قلن كلاما كثيرا عن إرادة الله والقضـاء والقدر، لكني أرى دم هبة على أيديهم، ومن يدري كم غيرها مات بفعل الإهمال وعدم الضمير، وفي اليـوم الثالث جاءت مجـد تبشرني بأن الدكاترة سـمحوا لي بالخروج وينصحونني بالهدوء، وأخذ إجازة بعيدا عن أي ضغوط، لكني قلت: "إحنا اللي قتلناها"، قالت نور: "ما تخليش الحزن يأثر على تفكيرك"، استشعرت في كلامها لكنة تهديد، فنظرت إليها بثبات: "النزيف نتيجة خطأ مهني"، قالت عصمت: "المريضة جـت عندها نزيف والكلام ده مثبت في محضر رسمي"، قلت: "النزيف نتيجة العملية"، قالت مجد: "أنهي عملية؟"، قلت: "الكورتاج"، قالت عصمت: "إحنا ما بنعملش العمليات دي هنا"، هممت أن أرد، لكني تمهلت وكظمت غيظي، وقمت مرتديا ملابسي، وقد قررت أن أواجه الظلم وليكن ما يكون، قالت نور: "فكر كويس قبل ما تاخد خطوة تندم عليها"، وهبطت الجراج لأستقل سيارتي، فإذا بالفجم يعترضني وقد عاد إليه استشراسه، فهجمت عليه أوسعه ضربا وطعنا وأنا ألعنه وأسبه، حتى إن الوحش فوجئ بهجومي ولم يقوَ على غضبي، وانطلقت بالسيارة

إلى نقطـة الشرطة وحررت محضرًا بالواقعة، أتهم فيه عيادة دكتور عويس وإدارتها والجراح الذي أجرى العملية، وعدت بعدها إلى شقتي ونمت.

جـاءني جدي الكبير في المنام قال: "مش قلتلك خلي بالك من سـمه، بيسري في الـدم، فيوقف الضمير، وبعد كده كله سـهل"، قلت: "المدينة سرقتنـي يـا جدي"، قـال: "كان لازم تاخد بالك، لما الدنيـا تديك زيادة عن حقك إعرف إن ربنا سـبحانه وتعالى بيملي لك.. بيمتحنك"، قلت: "لكني طبيت زي الطربش.. سقطت في الامتحان"، قال: "ملحوقة".

اسـتيقظت على صوت تليفون اسـتدعاء من عصمت، فتوجهت إلى مكتب الإدارة، فبادرتنـي عصمت: "انت فاكر إن المحضر اللي عملته ده حيعمل حاجة؟"، قلت: "حفضحكو"، قالت نور: "إنت ناسي إنك انت اللي ماضي على دخول المريضة بحالة تسمم"، هنا أفقت من غضب الأبرياء، فانهالـت عليَّ البنات يكيلون لي التهـم: "إوعى تكون فاهم إن إحنا لقمة طرية، إحنا ممكن ندمرك"، "أولا ما فيش أي دليل على عملية الكورتاج"، قلت: "لكن فيه شهود"، وكنت أقصد تامر وبهجت ومدحت، قلن: "هل دخلوا أوضة العمليات وشـافوا العملية؟"، قلت: "ممكن أطلب تشريح الجثة"، هنـا قالت عصمت بهدوء: "براحتك إحنـا حاولنا نعقلك، لكن يظهر إنك راكب دماغك"، وأضافت مجد: "إحنا كمان حنطلع المستخبي"، فنظرت متسائلا فأكملت نور: "توقيعك على عمليات قبلها، توقيعك على مناقصات مضروبة مقابل مبالغ مالية على سبيل الرشوة، قبولك لتوريدات

أكياس الدم ومعدات طبية غير مطابقة للمواصفات مقابل رشوة برضه"، وختمت عصمت: "تحب نكمل ولا كفاية؟"، وضغطت مجد الريموت فعرض التليفزيون تسجيل لي في غرفة نومي مع عفاف! وأخر وأنا أضع ظرف الرشوة في جيبي، فأسقط في يدي وسقطت جالسا مسهما، وعم صمت ثقيل حتى كسرته عصمت آمرة: "انزل دلوقتي زي الشاطر واتنازل عن المحضر"، ففعلت.

حين عدت وجدتهن في انتظاري في الجراج، أخذت نور مني مفاتيح السيارة، فقلت: "بس دي بتاعتي أنا دافع فلوسها"، قالت: "العيادة هي اللي بتدفع الأقساط ولو قريت عقدك حتلاقي بند بيقول إننا نشتريلك عربية تبقى باسمك طول ما انت شغال معانا"، قلت: "وطبعا الشقة شرحه"، قالت مجد: "برافو عليك بقيت بتفهم أهو"، فقلت: "أنا ممكن أدفعلكم باقي أقساط العربية و.."، قاطعتني عصمت: "منين؟"، قلت: "من حسابي"، قالت: "حسابك تقفله وتحول رصيدك كله لحساب العيادة"، قلت: "وإن رفضت"، قالت: "يبقى بتفتح على روحك أبواب جهنم، حتلبس قضايا رشوة وفساد واستغلال منصبك للتربح غير المشروع"، وأضافت مجد: "إنت متكتف من كل ناحية، تسجيلاتك صوت وصورة وانت بتقبض الرشوة، تحليل المعمل اللي بيثبت عدم مطابقة الأكياس للمواصفات، كل المصايب اللي عملتها حتطلع، شوف بقى دول يساووا كام سنة سجن"، هززت رأسي مدركا دقة وصعوبة موقفي، فقررت الانسحاب من المعركة بأقل خسائر ممكنة، وقلت: "حطلع ألم هدومي"، قلن: "اللي جيت بيها،

باقـي الهدوم إحنـا اللي جبنهالك، كتبك وورقـك وباقي حاجتك عندك أهي في الصندوق ده"، نظرت، فوجدت صندوق كرتون مزيتًا، وزيادة في الإذلال أجبرنني على خلع ملابسي وارتداء القميص والبنطلون القدامى، فحمدت الله أني لم أتخلص منهما.. وتملكني يأس قاتل ومرارة تسمم حلقي، وتوجهت إلى البنك ونفـذت تعليماتهن، وخرجت من البنك إلى رصيف محطة القطار.. وحيـدا ملفوظا مزمومًا مدحورا مهزوما، مجروح الكرامة فاقـد الدنيا وخاسر الدين.. ما جمعته في شـهور طوال خسرته في أقل من ساعتين زمن! وبعد أن كنت مليونيرًا عدت صفر اليدين، وطارت أحلام الخمسـة عين، وطار الماجيستير والدكتوراه وضاع المستقبل لأني غضبت للحـق.. غضبت للصديقة المقتولة.. ووقفت على المحطة واضعا يديَّ في جيوبي الخالية، وما إن وصل القطار، حتى قفزت متسـطحا مع حرافيش الطريق والهاربين والمفلسين والمطاريد وأبناء السبيل والأطباء اللذين خسروا وفشلوا وعادوا إلى قريتهم أقل مما تركوها.

33

القرية من جديد.. أمي وحضنها الدافئ الطويل، أبي وشعور الأمان، عائلتي ولمة المخلصين، حامد وأمه يعيشان مع عم دهب وهجلة، لم يظهر جدي الكبير وسمسمة، فاعتبروهما من الأموات وترحموا عليهما وبكوهما بحرقة الصادقين الصافية قلوبهم، لم يقيموا سرادق عزاء فموتهما غير مؤكد، لكن مر قرابة العام ولم يظهرا، وبدأ الناس يعتادون غيابهما، وحين سألني أبي: "خدت الشهادة الكبيرة؟"، هززت رأسي إيجابا وتجنبت أي أسئلة عن عملي أو خططي المستقبلية، وارتميت في حضن أمي باكيا: "مش عايز غير حضنك يوماي"، فاحتضنتني ملهوفة وأشبعتني وأحاطتني وملأتني ولفتني واحتوتني في غلالة من الحب والصدق والإخلاص والحنية.. خامة الحب هي حب الأم، كثافته تكفي البشر وقوته تطرد الخوف ونعومته ممتعة، خمس دقائق أو تزيد وأنا مرتمٍ في حضنها وهي تعتصرني، كأنها تعصر قماشًا

مبلولًا لتطرد منه كل الماء ومعه الأقذار والأوساخ والسموم.. خمس دقائق في حضن أمي خلصتني من ألم التجربة المريرة، خمس دقائق في حضن أمي طـردت حوالي عام في المدينة.. وعاد للأيام طعمها، وعدت أشـم رائحة الخبيز الطازج.

من التغيرات التي طرأت بعد سقوط برج الجبتية أن بنى أبي وأعمامي دورًا لهـم على الطراز القديـم، وتم إزالة أنقاض البرج كـما تم إزالة برج المراغنة الذي مال وأصبح خطرًا، فقلت مرتاحا: "عقبال باقي الأبراج"، قال عمي: "ليه دا احنا بنفكر.."، قاطعته في حدة لا تناسـب خلقي معه: "لأ أبراج تاني لأ"، عمت الدهشة عائلتي، وعم صمت، لكن الأعين كلها تكلمت وقالت أكثر من الألسـن لوما وعتابا على أسلوب مخاطبة عمي، فاعتذرت فـورا وقلت: "حقك عليَّ يا عمي ما قصدش.. بس.. الأبراج ما بيجيش من وراها إلا الهم.. الأبراج خطر.. مش بتاعتنا"، قالت نسوة أعمامي ومعهم أمي: "حقة السـكنى في الدار مافيـش أريح منها"، تبادل الرجـال النظرات وقالوا: "بـدام دي رغبتكم يبقى خلاص بلاها برج"، قمت واحتضنت عمي وقبلت رأسه ويده.. جميل جدا أن يكون لك كبير تحبه لا تخشاه، تحترمه لأنه يحبك لا لأنه يقدر يبهدلك ويشردك ويرفدك.. وقضيـت يومين لا أخرج من الدار، ووفود من الناس تأتي مرحبة حامدة الله على سلامة وصولي ومباركة حصولي على الشهادة الكبيرة، وقد حاول البعض اقتراح إطلاق لقب دكتور يسـبق اسـمي، لكني رفضت، قلت: "جدي الكبير بس هو اللي له الحق ده"، فاحترموا ذكراه وأمل عودته وتم

إلغاء الاقتراح.. في الحقيقة أنا رفضت لأني كرهت اللقب، كرهت الكذب باسمه، كرهت كل ما يذكرني بتجربتي وفشلي، كرهت ما يعيد إليَّ الألم.. والألم ملخص في كلمة دكتور.

في صباح اليوم الثالث اشتاقت نفسي لشوارع القرية وناسها، اشتقت لحامد والتسكع عند الجندول أو الجلوس على قهوة توشكى فقمت وتخلصت من القميص والبنطلون مقررا ألا أعود إليهما، وارتديت جلبابًا أبيض شاهق البياض، وأحسنت لف العمة الكبيرة، وفردت طولي وخرجت.. ويا ليتني ما خرجت.

الشوارع هي هي، والمباني هي هي، كل شيء في مكانه، لكنْ شيء ما تغير.. لون المباني لم يكن زاهيا كما تركته، أين ذهبت جداريات حامد؟ أين ذهبت ألوان البيت النوبي المشهورة؟ لقد كانت تغطي كل بيت وكل جدار! وجدتها طمست بدهان رمادي كالح أو أسود يشوه المنظر، ورأيت ما أفزعني حين لمحت ثلاثة أبراج لتقوية المحمول تعلو بين الدور، لقد كان جدي يرفض دخولها القرية لأسباب صحية، وله في ذلك حق، فوجود أبراج المحمول بين الناس يضر ضررا مباشرا بصحتهم ويسبب سرطان، لاحظت أيضا أن معظم الرجال قد أطلقوا لحاهم بلا تهذيب ولا تشذيب وغارت ابتسامتهم وراء تجهم غير مبرر، واختفت وجوه النسوة الصبوحة وراء الخمار، وانعدم صوتهن الذي كان يملأ نهار القرية كنشرة أخبار لا تنقطع، ونهرهن للأطفال وملاعبتهم، اختفت الزغاريد لأتفه سبب، أن

تنجـح أم فلان في صنـع طاجن ويكا مثلا فتجدها تزغـرد فتفرح قلوب النـاس، ماذا حدث للناس؟ لماذا قلوبهم ثقيلة؟ أين ذهب الأطفال؟ أين صراخهم وتعثرهم بين أرجلي وأنا سائر! ماذا حدث للبلد؟

"الشـيخ منصور الله يلعنـه"، هكذا أجابني حامد حـين التقيت به، حكيـت لـه كل شيء.. نقلت له وقائع تجربتي الفاشـلة، والعجيب أني لم أبكِ ولم أحزن، بل أحسست براحة كأني أحكي عن شخص آخر، وما إن انتهيت حتى فرغت منها ونسيت التجربة، لكني لم أَنْسَ دروسها، ورحنا نتسكع عند الجندول، وهو يحكي لي ما فاتني العام الماضي.

توحش منصور واسـتشرس وفرض سيطرته على عقول البسطاء من الناس، أفهمهم أنهم يعيشون في ضلال، وأن معيشتهم كفر وعلاقاتهم كفر، لذلك أفقرهم الله! ولا حل ولا مخرج ولا نجاة لهم إلا بالعودة إلى صحيح الإسلام، فأطلق الرجال لحاهم وتحجبت النسوة وصار شغلهم الشاغل أن يصلوا الوقت بوقته، وأن يسـتزيدوا من العلم، وأن يتزودوا بالتقوى والخشـوع والخنوع، حتى الأطفال كانو يقضون نهارهم في حفظ القرآن، لا يلعبون، لايضحكون فشـاخوا وهم صبية.. وصار النظام اليومي يبدأ بالاستيقاظ قبيل الفجر والتوجه للجامع لقراءة القرآن، رغم أن معظمهم أميون، ثم الصلاة يتبعها حوالي ساعة من التدبر، ثم الإفطار جماعة ثم تبدأ دروس الفقه والشريعة حتى صلاة الظهر، وهي تسـتغرق حوالي سـاعة تقريبـا، ثم الغداء وقيلولة الظهيرة لأنها سـنة، ثم صـلاة العصر، بعدها

ينصرف كل ليباشر عمله! أي عمل هذا الذي يبدأ بعد العصر؟

قال الشيخ ردًّا على هذا السؤال: "العلم هو السبيل الوحيد للتقدم، وهو أبدى من العمل؛ لأن عملًا بلا علم يؤدي إلى الفشل، وقد أمرنا السلف الصالح أن نتعلم من أي مصدر حتى من أعدائنا، وها هم الكفرة الملاحدة أعداء الله والأمريكان من ورائهم يأخذون بالعلم ونحن نتركه"، يا ابن الأبالسة يا منصور! نجح اللعين في قلب الحق باطلًا، فالعلم الذي يتحدث عنه هو العلوم الدينية من فقه وشريعة وتفسير وسنة وأحاديث وقراءة وتجويد، أما العلوم الدنيوية مثل الكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضيات فكلها علوم شيطانية.. لقد سرق عنوانًا براقًا صحيحًا ووضعه على إفك وتدليس.. لكن لماذا؟ ماذا سيستفيد من لَمِّ الناس حوله بلا عمل؟ من أين يأكلون؟ تنهد حامد شارحا: "الناس لما سابت أشغالها لا بقى فيه ورش بتتفتح ولا محلات ولا سوق ولا عيش ولا فلاحة"، قلت: "يا نهار اسود! دي الأرض تبور"، قال: "ما هي بارت"، فقلت مستحثا وقلبي ينخلع: "إوعك تقولي إنهم باعوها مباني"، هز رأسه إيجابا وحسرة: "300 فدان راحوا في سنة، اتباعوا لناس أغراب"، قلت: "أيوة وهو استفاد إيه؟"، قال: "ما هو السمسار.. ما هي دي الخطة.. الناس اللي سابت أشغالها وأكل عيشها بقوا مش لاقيين ياكلوا فكان اللعين يوعدهم إنه حيفك زنقتهم ويجيب لهم زباين تشتري الأرض وبسعر عالي ويطلع هو بالعمولة"، قلت: "بس بعد شوية الفلوس حتخلص"، قال حامد: "ابن الأبالسة فتح خط سبوبة لنفسه، وبقي مقاول أنفار، يبعتهم يشتغلوا في الفاعل في الصعيد ومصر

وإسـكندرية.. والأكادة يا أخي مفهمهـم إنه بيعمل فيهم جميلة! وفي كام شهر ركب البلد".

تعجبت من هذا التشابه بين قريتنا والمدينة.. فهناك يستثمرون ويتاجرون تحت غطاء العلم، وهنا يستثمرون ويتاجرون تحت غطاء الدين، وفي النهاية كله اسـتثمار.. نحن نعيش عصر الاسـتثمار.. وأنهى حامد قصة البلد بأن قال: "اللي وقفوا قدامه أعمامك وكبارات البلد، لكن مساكين لا حول لهم ولا قوة، كان زمان قوتهم بياخدوها من هيبتهم وقيمتهم، لكن دلوقتي ما عـادش حد بيحترم حد، لا الكبير عاد له قيمة، ولا الصغار بيتعلموها"، ولفنا صمت ثقيل قطعته سـائلا: "وعم دهب؟"، قال: "عم دهب شاف أيام أسـود من قرن الخروب، هو وكل مسيحيين البلد"، وحكى لي كيف أن منصور أقنع الدهماء والغوغاء والسـوقة والرعاع أن المسيحيين كفرة، وهم المقصودون بكلمة الضالين في نهاية الفاتحة، وأن القرآن نص صراحة على أن من يدعي أن المسيح هو ابن الله فهو كافر، وكيف تركزت دروسه ودروس المشـايخ اللذين استوردهم حول موضوع الجهاد، وتكررت آية "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل..".

وفي ليلة سوداء أغار أشباح الليل على دور المسيحيين ومحالهم، أحرقوها وطردوا سكانها، ولولا تدخل مأمور المركز بعد ثلاثة أيام من الرعب لكان القضاء المحتوم، فقد فر الناس إلى كبيرهم عمي دهب، ولاذوا بداره، إلا أن أشباح الليل يمتطون الخيول لأنها سنة، أحاطوا بالمنزل وحاصروا من فيه،

وفشلت محاولات كبار البلد من المسلمين لتهدئة الموقف، ولولا وصول قوة الأمن بقيادة المأمور شخصيا الذي أراهم العين الحمراء، لكانوا أحرقونا أحيـاء، هنا التفت إلى حامد: "انت كنت جـوه؟"، قال: "أنا وأمي، ومن ساعتها واحنا قاعدين معاهم"، قلت: "وجوازك؟"، أطرق برأسه حزينا وقال: "جواز إيه بقى في الظروف المنيلة دي"، فعلا توقيت غير مناسب، وأزاد: "قالوا عليَّ أنا راخر كافر عشان برسم ورايد اتجوز مسيحية.. بقيت مطلوب ودمي مباح شرعا".

كيف سرقت فرحتك يا حامد؟ كيف سرقت أحلامي؟ بل كيف سرقت الحياة من أمة وهبت الحياة للعالم.. ووقفت أنظر إلى النيل يجري.. ما زال يجري كما جرى من آلاف السـنين، قبل الإنسـان وقبل أجـدادي الجبتية الأوائـل، خلقـوا منه الحياة، ألم يجعل الله كل شيء حـي من الماء! فإذا كنا نمتلـك سر الحياة، فلم القعوص؟ التفت إلى حامد سـائلا: "هي الفاس والمنجل لسـاهم في الدار؟"، رد إيجابا فقمت فقـال: "رايح فين؟ إوعك تكون ناوي تلم شوية شباب وتعمل عركة"، قلت مبتسما وأنا مدرك تماما أني أقـول الحق والصدق ولا حق ولا صدق غـيره: "لا.. العراك والقوة مش حتجيب نتيجة، ولا الكلام والتفاوض حيودي لشيء"، قال: "أمال حتعمـل إيه؟"، قلت: "حزرع.. حصنع حيـاة من أول وجديد"، ومررنا على دور الشـباب والرجال الرافضين لمنصور وسياسـته، وحملنا فؤوسنا ومناجلنـا وهبطنا الأرض نزرع، وفجأة صرخ حامد: "خلي بالك يا جاد الفجم ورانا"، قلت دون أن أتوقف عن العمل: "ولا يهمك منه ده جبان،

إديلـه على قفاه"، ولكي أثبت له صدقـي، التفت إلى الفجم الذي اقترب ينفث لهيب غضبه وصفعته على أقفيته الثلاث، فلاذ بالفرار عاويا.. وعدت أعمـل وأنا مؤمن أنه لكي تنتصر على الفقر والجهل والمرض ولكي تقتل الفجم.. عليك أن تقتله في داخلك أولًا.

تمت بحمد الله.

المؤلف في سطور

محمد صلاح أبو سيف

محمد أبو سيف

- مواليد أكتوبر 1950 - القاهرة.
- خريج المعهد العالي للسينما - قسم إخراج دفعة 1976.
- عمل بالإعلانات حتى عام 2001.

أفـــلام:

- التفاحة والجمجمة 1985 - كتابة وإخراج.
- نهر الخوف 1988 - كتابة وإخراج.
- جحيم تحت الماء 1990 - إخراج.
- أولى ثانوي 1998 - قصة وإخراج.
- بطل من الجنوب 2000 - إخراج.
- النعامة والطاووس 2002 - إخراج.
- خالي من الكوليسترول 2004 - كتابة وإخراج.

- خلي الدماغ صاحي 2006 – إخراج.
- هز وسط البلد 2014 – كتابة وإخراج.
- المشخصاتي II 2015 – كتابة وإخراج.

أخرج مسلسلات:
- بنت أفندينا 2005.
- عواصف النساء 2007.
- الهاربة 2008.
- جنة ونار 2009.
- امرأة فوق العادة 2009.

جوائــز:
- أفضل فيلم من مهرجان نانت السينمائي عن فيلم نهر الخوف.
- أفضــل فيلم وأفضــل إخراج مــن مهرجان نوتــردام عــن فيلم أولى ثانوي.
- أفضــل فيلم وإخــراج من مهرجــان الإســكندرية عن فيلــم النعامة والطاووس.

البريد الإلكتروني:

mabouseif@yahoo.com